المعلوم والمجهول

تأليف

ولي الدين يكن

الجزء الأول

سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م

obeikandl.com

قائد كتائب الحرية والأحرار

الأمير المرحوم مصطفى فاضل باشا الشهير

obeikan.com

ما كان أهنأنى وأسعدنى   لوكان ينفع معشرى قلمى

أنا لى فؤاد لا أنزهه   لكن يراقب مايقول فمى

الى القراء

بهذا الكتاب أشياء . وقد فاتته أشياء . وفى أحوال العالم ما يمنع الافصاح بكل ما يدور بالخلد . على أننى لا أحب أن أخرج من هذه الدنيا قبل اظهار ماعندى من الخوافى . فاذا وفقنى الله الى أمنيتى تلك كنت سعيدا .

حين تذهب دول الظلم ويذوق الناس نعيم العدل يقرأون مثل كتابى هذا بارتياح .

واذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوه وبقيت أنا حيا بينهم كلمتهم بما يخالج صدرى تصريحا لا تلميحا .

مؤلف الكتاب

الى مؤسس بناء الحريه

الامير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا

أيها الامير

أنطقت كمالاً واصحابه واخترت الصمت . ولدت بنفسك غنياً ومت لوطنك فقيراً . علمت محب الحرية كيف يغنيها فغناها . ثم طربت فشربت كأساً هى الحمام . فى حب حبيب هو الوطن . ما كنت شاعراً ولكن خلقت الشعراء . فلما جئت فى لداتى لم نجد ماتقول بل كررنا ماقاله الاسلاف من تلامذتك .

لو أمست البلاد العثمانية كلها قبراً لك وحدك . وخيط كفنك مما يتسرب من آماق بنيها من الاشعة . وأقيم لك تمثال من الذهب أطول من برج (ايفل) عشر مرات . وكتب مدحك على أديم الارض من شمال البالقان الى جنوب اليمن لكان ذلك دون قدرك .

هذا كتاب فصوله كثيرة ولكنها فصلان . لى فى كليهما شؤون . اما الفصل الاول فبيان لمحنة الامة . واما الفصل الثانى فاستخراج العبرة من تلك المحنة . وقد ذهب الشر وجاء الخير ولكن ضعت انت فى الفترة .

هذا كتاب اهديه الى اسمك الخالد . لا تقرباً اليك بأمل دنيوى اذ لا سبيل اليك . بل تشريفاً لى ولكتابى ثم اعترافاً لك بفضل لايخالفنى فيه أحد . فليطب مضجعك . ولتتغمدك الرحمة . وليسق ثراك الغيث . أيها الامير الفاضل الجليل ؟

ولى الدين يكن

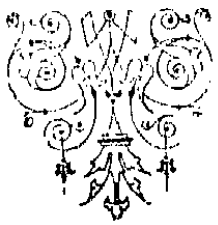

مقدمة

— ١ —

كتابي سر فى الارض واسلك فجاجها
وخل عباد الله تتلوك ماتتلو
فما بك من اكذوبة فاخافها
ولا بك من جهل فيزرى بك الجهل
سيشهد من يتلوك ان كان عادلاً
بأن بنى حواء مابينهم عدل

للمؤلف

بين فروق ومصر نجى من الغيب تتراوح به الرسل ، فتقصر فى بلاغه . وتتحمله النسائم ، فتعجز عن تأديته . لكل عند صاحبتها لبانة ، ولكل لدى الأخرى مكانة . شدت أواصر القربى بينهما فأحكمت ، ثم رثت فتراخت ، ثم دبت بين الأم وبنتها عقارب الجفوة ، فكادت تنفرج مسافة الخلف . وتنفصم عرى الوُد ، ولكن تدوركتا من حيث لم تحتسبا ، فباتتا على ريب من أمريهما . فمتأمل فى حاليهما يقول :

وكل مظهر للناس بغضاً * وكل عند صاحبه مكين

ومتسل بواحدة عن الاخرى ينشد :

تسلى باخرى غيرها فاذا التى * تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

أما فروق ، فهى الغانية ، بزت حليها وحلاها . واستغنت بجمالها عن تجملها . عروس الطبيعة الناشز . المنعمة الممنعة . تهب الصبابة وتسلب الجلد . للملوك مصارع من حسنها وللرعايا مصارع من ظلمها . يقيم على غرامها الى الأبد من نظر اليها نظرة واحدة .

واما مصر ، فهى الفتاة ، أنسها قريب وملالها أقرب . أكبر من أمها سناً وأقدم منها بالحضارة عهداً . رائعة الخلق والخلق . عروب ، لعوب ، نؤوم ، مكسال صادق حبها ، كاذب وعدها ووعيدها .

الفاتنتان تتباينان ، فتتراجعان . ولا تستمران على قطيعة .

أما بنو فروق ، فمغلوبون على أمرهم . قضى عليهم أن لا يتحاصوا من الحياة الدنيا الا الهموم . يعيشون فيها ، لا يرون بها شمساً ولا زمهريراً (ولا يسمعون لغواً ولا تأثيما) عاليهم ثياب من نار ، كلما شوت منهم جلوداً بدلوا بها جلوداً . تتعاقب الآناء وهم سكارى ، حيارى ، كأن عهدهم بالحشر قريب ، ينظرون من خلل اليأس الى بارق الامل

وكأنه برق تألق بالحمى * ثم انضوى وكأنه لم يلمع

يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا . أوصدت دونهم أبواب القبول وحيل بينهم وما يشتهون . فايد بسطت ضارعة بالذلة ، ووجوه عنت منقبة بالمسكنة ، وأبصار زاغت وفى لواحظها نعاس الخمول ، وقلوب شقت وفى أشطارها معانى الشكوى . وما

يغني التطلب : أقعدت العزمات وصفرت الهمم ، وفاضت النفوس . وراحت الآمال ، وبوعد بين الشباب وبين الوصال .

أما لو أن زهور الرياض مقل ، وقطرات الطل دموع ، وأنفاس النسائم زفرات ، وأغاريد الطيور نحيب ، والأقاحي ثغور تناجي ، والبراكين أفئدة تتقد ، والقيامات أنات الضمائر ، وخطوب الدهر أحزان بنيه ، لقل ذلك عند وقوف المتأمل على أجداث اخواننا الشهداء . ألا بنفسي تلك اللحود ، صمت نازلوها ونطقت صناديقها . . ألا مالمثل هذه الافئدة البشرية هذه الشجون . بلى هي قوى كهربائية لها من كل ويل تيار .

أما بنو مصر ، فمغلوبون على أمرهم . ذاقوا مرارة الذل أولا ، ثم بدلوا منها أريا شهياً وأوتوا رخاء وعيشاً مملا جانبه . أسفرت لهم الحرية ، عدوة الملوك وحبيبة الشعوب . راموها زرقاء ، فأتت حمراء . وماتلك بحمرة خجل ولا حمرة دم ، ان هو الا الحياء يورد الخدود ويقصر الخطى ، فهم مغبوطون وهم حاسدون . ذلوا لها حين استعصت ودلوا عليها حين سلست ، وأنساهم عذب الوصال مر الهجران .

ليقف من شاء من أبناء حواء على منارة من منارات فروق . وليدع طرفه يرود تلك الهضاب في أبرادها السندسية وليفسح له مجالا في مسارح خلت من أوانسها ، وليرم به الى قرارات كالدراهم . تلمع بكرة وتلتهب أصيلا . مراودها الغزل ومسالكها العفاف . فاذا بدا له (البوسفور) في ازرقاق عبابه ، وتجعد أديمه ، وازدهار شطيه ، واطلاع اقماره . فليرجع البصر الى منازل كأنها لعب أو علب ، كأنها بنيت بعضها فوق بعض . فلينصت هنالك

قليلا ، وليسأل بعدها عما سمع ورأى أما والله ليصيحن بملء فيه ، منشداً قول المعرى :

خفف الوطء ماأظن أديم ال * أرض الا من هذه الأجساد

رب دار كأنها قفص البلبل . فى وسط حديقة كأنها طبق زهر . ثم فتاة أفرغ الله نوره فتكونت منه . يدخل عليها داخل وهى غارقة فى هواجسها فتقول له ماأخر أبى ؟ ماأبطأ بأخى لم لم يحضر هو . . . ؟ وهو معلوم . . . . فيقول لها أبوك نفى وأخوك سجن وهو . . . . . ضاع بين الأزرقين ، السماء و (البوسفور) . فلا أدرى ، بل لاأود أن أدرى ما يكون من لحظيها اذا أسبلا بكاء وما يكون من ذلك الوجه اذا رفع فى يأسه وحزنه الى السماء وقال فمه مرة واحدة : آه !!!

وليقف بعد ذا من أراد على قمة الهرم الكبير في مصر ، وليتأمل بنت ايزيس وأوزريس ؛ أما والله لايلبث ان يرى الوجوه الضاحكة . خلال المغانى الآهلة فيبدو لتأمله فرق مابين العاصمتين .

— ٢ —

بفروق قصر وبمصر قصر . القصران مصدران للأحكام وموردا للآمال . هما كشق المقص : اذا افترقا أحاطا واذا تجمعا فرقا . هما الصرحان تطل منهما المعالى ويشرف سلطان القوة . يقلبان ولايتقلبان : على أيهما وقف البصر خشع وأيهما حضر بخيال النفس هالها ! يادارى العزة ماالخورنق

والسدير . ماايوان كسرى وما قصر الحمراء . ماربع مية يطيف به غيلان وهو معمور . بل ما ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .

تطاولت الأيدى حتى انتهت اليهما فما بقى مكان خالياً الا وطرقه طارق منتاب . أحيطا ، فنما ، فهزا ، فأرهبا . ثم اغترا ، فأعملا ، فأذلا ، فأغضبا. ثم زادا ، فأفنيا ، فأثارا . وما هى الا صيحة أخذتهما فتساقطت تلك اللبنات الذهبية وقعقعت هاتيك العروش وقضى الأمر . وكذلك يستدرج ربك بعباده من حيث لا يعلمون .

مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب . وقد قال شاعر العرب :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

القاضي هو الحق . والمخاصم هو الامة . ومن كان نصيره تاجه وصولجانه فالأمة نصيرها الله .

— ٣ —

قلت (له) قبل اليوم بنحو الثلاث عشرة سنة من ابيات لى :

ضع الامر فى موضع الاعتبار

فان الزمان زمان العبر

ولا يفرحنك زوال الخطوب

فكم اثرها من خطوب أخر

مصاب مرير اذا ما انقضى
تلاه مصاب عليك أمر

حياتك أمست حياة التساوى
فلست تساء ولست تسر

اذا ما أمانى الهوى برزت
وكل خفى بها قد ظهر

وشام بصير وأصغى سميع
وراحت ترود المعانى الفكر

وقال زمانك كيف التحامى
وناداك دهرك أين المفر

هنالك تشكو كما كنت تشكى
ويجرى بما لاتشاء القدر

واليوم لا أجد ماأزيد على هذا المقال .

— ٤ —

أضحت مصر منذ سنة ١٥١٧ ولاية عثمانية . عاشت سلسة القياد ، لينة العريكة ، الا ماكان يأتى به بعض المتغلبين ، من بقية السيف ، من ساداتها الاول منذ سنة ١٧٦٦ .

وفى سنة ١٧٩٤ أخرج نابوليون الأول من الجيش العامل فى فرانسا . فهم أن يقصد الى الملك العثمانى لينظم مدفعيات العثمانيين . لكنه استبقى لفرانسا حتى سلط مدفعياتها على الهرمين فى سنة ١٧٩٨ وهزم عنهما مراد بك وابراهيم بك . ثم أجفل الى بلاده وأخرجت جنوده الجنود العثمانية والبريطانية .

وقد شاءت الاقدار أن يغنم مصر سليم الاول ويخسرها سليم الثالث. كما رفع فرانسا نابوليون الأول ووضعها نابوليون الثالث . وشتان بين سليمنا الثالث ونابوليونهم الثالث . ان سلطاننا كان حراً وحكيما وعادلا ولكن جنى عليه الجانون .

فلما اطمأنت مصر بعض الاطمئنان الى محمد على الأول، بعد سنة ١٨١١ ، دخلت فى تاريخ جديد .

فاذا تأملناها منذ أخذها العثمانيون الى يومنا هذا ، رأينا الغرابة فيها من ابتداء سنة ١٨٩٢ وما تلاها من السنين . وسيأتى الكلام على بعض تلك النوائب ايثاراً لتخليدها .

— ٥ —

وهبتنى مصر تجارب ووهبتنى فروق تجارب . وكتابى فيه مواهب العاصمتين ومختصر من تاريخ القطرين وعبر من وقائع القصرين . فمن قال فيه أنه دفتر الحسنات والسيئات فقد صدق ، ومن قال فيه انه ديوان

السياسة فما أخطأ . على انى أتمثل بقول أبى الطيب :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت

منى بعلمى الذى اعطت وتجربتى

﴿ الجرائد المصرية فى سنة ١٨٩٢ وما قبلها وما بعدها ﴾

كانت الجرائد المصرية الى سنه ١٨٩٢ معتدلة السياسة على اختلافها في مذاهبها . ولم تكن السياسات الا ثلاثة ضروب : عثمانية محضة مسالمة للاحتلال الانكليزى وهى التى امتازت بها جريدتان يوميتان (المقطم) و (النيل) وفرنساوية مصرية وهى التى اختصت بها (الاهرام) و (المؤيد) ومصرية محضة مع انصاف المحتلين وهى التى سارت عليها جريدة الوطن .

فأما (المقطم) فقد ثبت على سياسته الى يومنا هذا ولم يبد منه ادنى تغير فيؤآخذ عليه . وأما (النيل) فقد تغير فى أواخر أيامه وظهر تغيره للعيان . وما غيره صاحبه بل غيرته أنا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها بل استكبر حمايتها الاحرار العثمانيين ، ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت أنا وصاحب النيل رحمة الله عليه ننكر على الاحرار مساعيهم ونأبى مشاركتهم فيها . ومن هنا يتبين للمتأمل ان اختلاف (المقطم) مع (النيل) لم يكن الا من الوجهة العثمانيه الداخلية . وذلك لأن أصحاب (المقطم) نشأوا فى أعظم مدرسة غربية أسست في الشرق وهى الكلية الاميريكية الكائنة ببيروت ، وأخذوا

علومهم عن أعظم حكيم غربى فطن الشرق وهو طيب الذكر الدكتور كارنيليوس ڤانديك. فعرفوا التمدين المصرى وبرعوا فى العلوم الجديدة وأشربوا الحرية فشبوا عليها وكانهم ولدوا فى أوطانها . وصاحب (النيل) لم يكن كذلك. فان الرجل كان من الراسخين في العلوم العقلية والنقلية مما نحله اياها أحزاب الفكر القديم . فكان مؤرخاً فقيها وكاتباً ألمعياً ولكن لم يخل قلبه من التعصب. كانت نفسه الكبيرة لا تستحب النزوع عن القديم ولا تستطيب شيئاً من الجديد . فاهتديت أنا برأيه ولكن وقعت في خطائه.

وأما (الاهرام) فكان صاحباه رحمهما الله مخيين بقوة فرانسا . فلم يريا من المروءة أن يخالفاها فى سياستها الاستعمارية . ولولا ماسبق منهما من الافراط فى التعصب لها لكان عذرهما أوسع . على أنهما سعيا لخير مصر من حيث ظنا أنه صواب . ولم ينصفا الانكليز بل أصرا على حربهم ولم يذكرا للقوم يداً وان جلت ولم يستراالهم هفوة وان صغرت . وأما (المؤيد) فقد ظهر واهى القوى ، شديد العزيمة ، خلق الجلباب ، جديد الهمة ، رابط الجأش ، جميل الصبر يعانى الشدائد ويعاين المهالك ، رحب الصدر باسم الثغر. فكان يزداد كل يوم شهرة ويجد من اقبال الناس عليه وموازرتهم له ما يبعث نشاطه ويستعيد فتوته . ولم يرض صاحبه أن يمشى فى الأرض مكبا بل سار في منا كبها شامخ العرنين ، سامى الطرف ، بادى الخيلاء . ثم جنح الى السياسة الفرنساوية شيئاً على يد صديقه من قبل وخصمه من بعد المرحوم مصطفى كامل ، رئيس الحزب الوطنى الأول ومؤسسه وصاحب الموسيو (دلونكل) أحد ساسة الاستعمار فى فرانسا اذ ذاك . وقد أمسى (المؤيد)

مخالف (الاهرام) كما أصبح (النيل) مخالف (المقطم .)

فكانت جريدة (الوطن) وحدها تغنى مصر كما تهوى مصر ، بل كما يجب عليها لمصر. حفظت العهود ، عهود أجدادها الصيد الاول ، نسل الشمس وخدمت قومها كما أراد قومها . ولما كان الأقباط ، أولو مصر ، قوماً امتازوا بحب وطنهم وشرف نفوسهم وبعد هممهم ومحبتهم الجد ومجانبتهم المعايب ، لم تثن هماتهم عداوات البعض من مواطنيهم المتعصبين . وكما هوا مجدهم على قلتهم وكثرة حسادهم وظلم حكامهم أعانوا جريدتهم فعاشت لهم واستفادوا بها.

على أن هذه الجرائد لم تكن متمتعة بمثل حريتها اليوم . فان قانون المطبوعات الذى وضع فى سنة ١٨٨١ ونصب معه البارون مالورتى الشهير مديراً لقلم المطبوعات ، ضيق الخناق على أرباب الصحف والأقلام وسلب الأمة المصرية حريتى الفكر والسياسة .

فكانت الجريدة من الجرائد تنشر الخبر لا يوافق سياسة الحكومة فيأتيها الأنذار من الداخلية تنشره فى أول عدد يصدر منها بعد وروده . واذا أنذرت مرتين الغيت فى الثالثة . وقد يحكم عليها بتعطيلها شهراً أو أكثر أو أقل وقد تلغى بغتة . وكل ذلك على ما يبلغ ذنبها وجنايتها السياسية. ولكن لم يطل أمدُ هذا الظلم . وأعلنت حرية المطبوعات فى وزارة الرجل الحر مصطفى باشا فهمى وكان ذلك فى أواخر سنة ١٨٩٢ على ما اظن . ثم أتت الوزارة الرياضية فهمت برفع هذه الحرية فلم تفلح وذهبت غير مأسوف عليها .

غير ان الجرائد المصرية لم تشبه اخواتها فى الغرب بحال من الاحوال لا فى عهد أسرها ولا بعد عتقها . وسبب هذا النقص اتحاد الصحافيين على

استرضاء الشعب . فهم يرون أن الشعب المصرى لايحب فى صحفه الا أن تكون هكذا . وفاتهم أن الجرائد هى ألسن العقلاء تنطقها الحكمة ولا يستميلها الهوى وأن الواجب عليها أن تقود لا أن تقاد .

وكم أسف أجده عند ما أتذكر ماضى الشباب . أيام كان الفتى منا شغله مقالة يكتبها أو قصيدة ينظمها لتذكرها له الصحف السيارة ناعتة اياه بالفاضل والاديب . أيام كان الشاب منا يقضى ليله فى معاقرة ولهو وسماع ثم يصبح فينادى فى الصحف باسم الوطن ويدعو الى مكارم الاخلاق . واذا صادف من أديب غرة انبرى له طالباً مناضلته طامعا فى مساجلته ، اقتساما لشهرته ولكى يقال انه ناظر فلانا فغلبه . كانت أمامنا ساحات المطبوعات متباعدة الاطراف ، مباحة الحمى . نجول فيها كما نحب . نقول فنجد من يسمعنا ونهذر فنلقى من يشاركنا . فيوماً نحن أعداء (قوم) نحض الناس على مقاتلتهم ونزين لهم مناوأتهم ونحبب اليهم بغضتهم . ويوما نحن أنصارهم نقديهم بالأرواح ونبغض من يريدهم بسوء . ذلك بأننا دخلنا أبوابا لم نكن اهلا لدخولها وادعينا السياسة وما كنا الا فتيانا لايعلم الواحد منا أحوال نفسه . فكيف كان يتسنى لنا كشف غوامض حارت فيها الدهاة وأخطأها أهل الصواب .

هكذا ، يأتى على المرء حين من الدهر يؤلمه تذكر ماضيه ويخجله . وما أشد عصر الشباب اغراء للشباب . وليت هذه العظات تنال رخيصة فيستعاض بها ماخسرته الحياة على قصرها . الا أنها غالية أثمانها الاعمار .

وهنا لا أجد بداً من الاعتراف بأن حرية الجرائد اليوم بلغت أقصى

غاياتها . ولكنها أساءت الى الأدب والأديب . فقد منحت الجرأة لقوم من الأميين والبعيدين عن معالى السياسة فصرت الاقلام بما يضر وعجزت عما يفيد .

obeikandl.com

﴿ السياسة الانكليزية بمصر ﴾

فى سنة ١٨٩٢

فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ جاء من (ڤينا) الى رئاسة مجلس النظار بمصر تلغرافا هذا نصه :

« ان نبأ وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى . فهو مصيبة عظيمة »
« على عائلتى وعلى القطر المصرى بأجمعه . ومتى وصلتنى منكم الاخبار »
« الاكيدة عن الوابور الذى سيعد لسفرى من تريستا ، أسافر بلا »
« ابطاء وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر . واننى على يقين أن الاعمال »
« تستمر سائرة على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم ريثما أصل »
« اليكم » .

كان هذا التلغراف رجع الصدى لآخر مثله نعى توفيقا العادل الى عباس البارّ . فرددت ألسن الكهول قول الشاعر القديم :

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتازذو السبق منهما

وكررت ألسن الفتيان قول الشاعر الجديد شاعر الاميرين :

بين ماضى الأسى وآتى الهناء قام عذر النعاة والبشراء
نبأ معذر نفى بعضه به ضاً فكان السفيه فى الأنباء

حتى اذا ازدحمت الجموع وتأهبت عابدين للترحاب بالأمير الفتى ، ألهم جنى القريض ذاك الشاعر الجديد الهامه فقال :

ان خيلا حملن سيزوستريس الـ ـمصر أولى الجياد بالخيلاء

فردت الشبيبة المصرية بقوله :

وطنى قبلتى وأنت امامى بك فيه لوجه ربى اقتدائى

ثم خفتت الأصوات وتطلعت الأعناق فدوت المدافع من القلعة . فاذا هى تحيات يزفها محمد على الكبير، من مرقده العالى لابنه الامير ، بالنيابة عن أبنائه المصريين.

هنا اضطرت انكلترا أن تغير سياستها التى سارت عليها بمصر من سنة ١٨٨٠ الى هذا التاريخ المتقدم ذكره . وكانت تلك السياسة قائمة على تأييد المقام الخديوى وحفظ القطر المصرى من أن تمد اليه يد الطامع ، وأن تصلح شؤون مصر ويزداد عمرانها . وقد رأت من ود الخديو المرحوم توفيق باشا وصدق ولائه ماذال لها الصعاب . فاشتركت معه واستعانت به على القيام بجلائل الأعمال . وبات العرابى ومن خدعهم في سيلان يتحسرون على مصر ولسان حالهم يقول :

فهيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات خل بالعقيق نواصله

فأما السياسة البريطانية الجديدة ، فلم تزد فى تغيرها على زيادة الانتباه لسياسة عابدين الجديدة . هنالك شرخ الشباب وخطر المقام وقلة التجربة

وكثرة المطامع استدعت ذلك الانتباه حتى قال طيب الذكر اللورد (سالسبرى) فى ١٠ فبراير سنة ١٨٩٢ :

« ان الحكومة الانكليزية لاتدع مصر فتتسلط عليها دولة أخرى أو تقوم فيها الفتنة . »

ولقد قال (أرل ددلى فى خطبة خطبها في ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ بعد خطبة العادلة الفاضلة الشهيرة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى : (انا على ثقة أن سمو الأمير الجديد سيكون كفؤا للقيام بأعباء ملكه على توالى الأيام) .

على أن المعية المصرية أخذت تتهيأ لسياسة جديدة بما تدرجت فيه من التغيير الجديد ، قبل ذلك بأيام.

ففى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٢ عزل المرحوم خليل بك ثابت التشريفاتى الثانى بالمعية ، وموسى بك عصمت معاون التشريفات. وفى ٢٧ يناير سنه ١٨٩٢ صدر امر عال بقبول استعفاء ثابت باشا وذى الفقار باشا . وقبل ذلك أى فى ١١ يناير أحيل على المعاش احمد باشا الياور الخديوى الأول وعين بدلا منه عبد الله باشا فوزى . وأحيل على المعاش أيضاً على بك ثابت قوماندان المراسلة الخديوية وعين مكانه محمد بك توفيق (هو محمد باشا توفيق الذى توفي بعد أن نال رتبة الفريق.) وفى ٥ فبراير من السنة عينها أحيل على المعاش على بك حافظ رئيس قلم الترجمة وعين مكانه احمد بك شفيق (هو الآن احمد باشا شفيق) .

ثم حلت النقمة بسبعة من عملة التلغراف بالمعية ، فصدرت الارادة بفصلهم جميعاً من أعمالهم وعينت ادارة السكة الحديد فى القاهرة سبعة

غيرهم وذلك فى ٨ يونية سنة ١٨٩٢ .

وكان الناس يستشعرون بتجدد فى أحوال المعية كلها كما وقع ذلك التجدد فى تغيير رجالها . فباتوا يتوقعون يومه بصبر اضطرارى ونظر اختيارى حتى آذن صبحه بابتسام . وانى لذاكر فى هذا الفصل ، قبل الدخول فى بيان شىء ، صورة التقرير الذى سيره السير أفلن بارنج (هو اللورد كرومر) الى طيب الذكر ماركيز (سالسبوري) ليكون توطئة لما سيتلوه من الكلام .

صورة التقرير

منقولا تعريبه عن مجموعة المقطم الشهير

مصر القاهرة فى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢

مولاى .

كانت عادتى قبل سنة ١٨٩١ ، أن أبعث الى فخامتكم أو الى أسلافكم بتقرير سنوى فى مالية الحكومة المصرية ولكنى فى السنة الماضية كتبت أول مرة تقريرين ، أحدهما فى المالية المصرية فقط والآخر فى تقدم الاصلاح الادارى الذى تم بوجه الاجمال فى القطر المصرى مدة السنين اليسيرة الماضية . وقد قصدت فى هذا التقرير الذى أتشرف بعرضه على فخامتكم أن أوضح ، بالايجاز ، النتائج التى أدركتها مصر ، سواء كان فى المالية أو فى الادارة العمومية بعد تقريرى الماضى فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩١ .

المغفور له الخديو السابق

أهم الحوادث السياسية التى حدثت بعد كتابة تقريرى الماضى فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩١ ، وفاة سمو الخديو السابق رحمه الله : وذلك في ٧ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد أن مرض أياماً قلالا .

وقد كان رحمه الله فى مقام عظيم المصاعب طول أيام اشتغاله بالسياسة . فانه ارتقى سرير الخديوية فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو يومئذ ابن سبع وعشرين سنة ، كانت البلاد قد أمست على شفا الدمار ، بسبب الاسراف

والتبذير في المالية وسوء الادارة العمومية. وكان نظام الجيش قد اختل اختلالا عظيما ، بسبب الحوادث التي جرت قبل تنازل اسماعيل باشا . فثار الجيش وتمرد بعد ارتقائه رحمه الله بزمان قصير ، واقتضت الأحوال مجيء جيش أجنبي لرد النظام . ولم أكن أنا بمصر في الثورة العرابية . ولكني كثيراً ماسمعت الثقاة الأكفاء يتكلمون عن تصرف الخديو المرحوم في تلك الشدة ويطنبون في مدحه اطناباً عظيما . ولم يزل مركزه بعد الاحتلال البريطاني محفوفاً بمصاعب عظيمة ، وان كانت مختلفة عن المصاعب الاولى في نوعها . فان سموه امتاز بكونه مصلحاً ممتدلا . وكان خبيراً بأحوال بلاده ، يعلم حق العلم بأن اصلاحها يجب ، بحكم الضرورة ، أن يتم تدريجا . وكان يدري جيداً أنه لابد من استخدام عدد يسير من الأوروبيين المنتخبين ، مدة من الزمن . وذلك مع شدة رغبته في ترقية أبناء وطنه الى المناصب التي يكونون فيها محل الاعتماد وتلقى عليهم العهدة والمسؤولية . أما الخدمة التي خدمها الموظفون الأوروبيون في الحكومة المصرية للقطر المصري ، فالناس كلهم يعترفون لهم الآن بها . وهم أقل كرهاً لوجودهم عندهم. وأقل حذراً وتخوفا منهم ، بالنسبة الى ما كانوا عليه قبلا .

فاقتضى في غضون ذلك أن يكون هناك شيء كثير من حسن السياسة والتمييز لاجراء معظم الاصلاح على يد الأوروبيين بلا اساءة الى أهالي البلاد ولا مس حاساتهم . وحسن السياسة هو ما اشتهر به الخديو المغفور له وفاق فيه . فكان من جهة يشد أزر مشيريه الأوروبيين ويؤيدهم تأييداً لولاه ، لما جاءت مساعيهم في تحسين أحوال البلاد بنتيجة تذكر. ومن جهة لا ينسى

ان النظامات الاوروبية الشوروية والادارية يجب أن تغير فى الصورة والجوهر وتكيف بحيث تصير صالحة لحاجات الأمم الشرقية .

وكان رحمه الله ، يعلم أيضاً أن أعظم الخاطر التى يجب اجتنابها هى الاسراف والتبذير فى المالية ، والاستبداد في الحكومة . فلذلك جعل علم الزمان الماضى نصب عينيه . فكان فى معيشته العمومية أول من يكرّه غيره الاسراف والتبذير ويؤيد سلطة القانون ، كما كان أيضاً فى معيشته الخصوصية التى هى حرية بأن يقتدى بها من كل الوجوه .

فلهذه الأسباب وغيرها مما تيسر سرده يحق لأبناء مصر ولكل الذين يهتمون بأمورها أن يندبوا فقيد مصر الذى عاجلته منيته فاخترمته قبل أوانها . لاسيما وأنها وافته حينما زالت المصاعب التى خصت بخديويته فى بداءتها ، وابتدأ يجنى ثمار جده الدائم الشديد وجهده الثابت الجهيد ، لتحسين أحوال مصر فى السنين اليسيرة الماضية .

وزد على ذلك أيضاً أنه منذ سنة أو سنتين ، زاد نصيبه الخصوصى فى تولى الأمور وادارتها بنفسه ، فتوفر الخير والفائدة لبلاده . وكانت الثقة به آخذة فى الازدياد والتعاظم ، فى نفوس الموظفين والوطنيين والأوروبيين الذين مازجوه ، وفى نفوس الأهالى عموما ، وكانوا يزيدون كل يوم اعتباراً لصدقه واستقامته وصحة حكمه وحسن تميزه . والحق يقال ، ان الناس على اختلاف طبقاتهم ، حزنوا حزناً حقيقياً على وفاته في شبابه .

وأضيف على ماتقدم ، أن سموه طالما شكر وأثنى فى حديثه معى على مافعلته حكومة جلالة الملكة لانقاذ بلاده من الفوضى فى أيام الفتنة العرابية .

وقد كان سمو طول أيام حكمه على غاية الصداقة والمودة مع حكومة جلالة الملكة ومع الانكليز الموظفين في الحكومة المصرية . وكان يعلم حق العلم أن الغاية الوحيدة من السياسة الانكليزية في الديار المصرية انما هي خير المصريين ورفاهتهم . وعلى ذلك كان يجري في معاملاته معهم ومع سواهم.

ومما يزيدني رغبة في ايفاء سموه حقه بهذه الشهادة هو أنه نظرا الى صعوبة مركزه أخطأ كثيرون حقيقة تصرفه ولم يصيبوا في فهم البواعث التي كانت تبعثه على أفعاله . واذا قلت ذلك فاني أقوله عن ثقة بعد تقادم عهد العلاقة الشديدة التي كانت بيني وبين سموه .

ولما توفي الى رحمة ربه خلفه بكره سمو البرنس عباس باشا حلمي على عرش الخديوية عملا بنص الفرمان الشاهاني الصادر في ٨ يونيو سنة ١٨٧٣. أما الفرمان الناطق بتولية سموه فلم يأت من الآستانة حتى الآن ولكن جلالة السلطان بادر بعد وفاة الخديو السابق فاعترف له بالخلافة الشرعية على الخديوية. الخ ... ويتلو هذا الكلام ثناء على مقام الامارة الجديدة . ولولا طول التقرير لذكرته برمته في هذا الفصل .

ويستدل من هذا وما يتلوه ، أن السياسة البريطانية كانت الى عام ١٨٩٢ سياسة ود وصفاء . قام العرابيون على أمير البلاد عصياناً وطغياناً ووقفت الحكومة العثمانية وقفة الغريب لا تدري أي طريق يجب عليها أن تسلكه . وقد عرضت عليها انكلترا ارسال جنودها العثمانية ارهاباً للعاصين وعقاباً ، ووعدتها ان تحرس لها جنودها بدوارعها . فصدرت الارادة السلطانية بارسال عدد كاف من الجنود العثمانية التي كانت اذ ذاك بجزيرة كريد . الا أن المرحوم

الشيخ أسعد ، وكيل الفراشة ، وشى الى السلطان بأن الأسرة الخديوية اتحدت مع الانكليز على اعلان الاستقلال المصرى والنداء باسم الخلافة لتوفيق باشا . فصدرت ارادة سلطانية ثانية نسخت الأولى . وبقى الجنود فى كريد كما كانوا . وكتب الشيخ أسعد الى العرابى وأعوانه يحضهم على الثبات ويعدهم بجعل الامارة المصرية فى نصابهم ، اذا هم تمكنوا من طرد هذه الأسرة من مصر . فلما يئس الانكليز من انتباه الحكومة العثمانية وارعواء المتمردين كلموا الثغر الاسكندرى بألسنة المدافع وهبطوا مصر ان شاء الله آمنين .

فلما كانت الامارة الجديدة التى ظهرت فى عام ١٨٩٢ ، وسبق منها ما سبق من التغيير الدال على تغير القلوب ، وجب على الانكليز الانتباه .

ولما سقطت الوزارة الفهمية الأولى وحلت محلها الوزارة الرياضية ، حسب المخلصون لمقام الامارة أن قد تمّ لهم ما يريدون وأن الزمان رجع الى شيمة الوفاء وتاب عن الغدر . ولكن لم تلبث هذه الوزارة أن أشارت على الامارة برأى كله خطل . فكان انتقاد الامارة على الأعمال الجندية بما لا يوافق المجاملات السياسية مغضباً للقواد الانكليز الذين يدربون الجيش المصرى ويصلحونه . فاستعفى السردار كتشنر باشا ومن هم تحت أمره من الضباط واضطرت الامارة الى الاعتذار خطاً وشفاهاً . وكانت الامارة استدعت رئيس الوزارة الرياضية بالتلغراف سائلة اياه رأيه . فأشار عليها بالاعتذار وقفل راجعا من ساعته .

ولم تكتف الامارة المصرية بهذا القدر من اعلان العداء للمحتلين واظهار

الاخلاص لجماعة من اهل البطالة والمرّافين . فاتخذت بدار الامبراطورية العثمانية من تعتمد عليهم وتحمل الهدايا اليهم . ومن هؤلاء عزت العابد وعبد الله النديم والمرحوم جمال الدين الأفغاني ولا إخال أن في أكثر الفضلاء ، من المشتغلين بمثل هذه الأشياء ، من يكون نسي سفر الامارة الى الآستانة ، متقدمة جماعة من أهل الشبيبة المصرية ، معتمدة على آراء من ذكرت من رجالها . وقضية المضبطة التي قامت لها القيامة اذ ذاك معروفة . وما أريد من هذا كله الا تجديد الصلة بين التابع والمتبوع في الظاهر ، وبث الفتن في الباطن .

ثم ظهر مصطفى كامل وراح ينتصر بالمسيو دلونكل أحد أعضاء مجلس الأمة الفرنساوي وناظر المستعمرات في فرانسا في أواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك ، المسيو هانوتو ، من أضداد الاستعمار الانكليزي . ولم تكن فرانسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية . فرحب الوزيران بالشاب المصري واستخدماه في آرابهما . فكان لهما أشد من البنان طوعا وأكبر من الظل انقياداً . فخلق مصطفى كامل من العدم وخلقت السياسة البريطانية الجديدة معه . ولما بدت على تلك السياسة التي كانت آية في الولاء والسلم آثار الاشمئزاز ، بلغ الخوف من القلوب مبلغه ، حتى لقد اضطر جماعة من أولى الحماسة الى انكار المضبطة متقدمة الذكر وكانوا يريدون الاحتجاج بها على الاحتلال عند القصر السلطاني .

فرأى كبار الساسة في انكلترا بذل النصح أولا والارهاب ثانيا . فكلم اللورد كرومر مقام الامارة مراراً ، ناصحاً غير مخادع . فلم يجد ذلك

تفهماً ولم ينتبه أحد الى مافى هذه السياسة العوجاء من الخطاء العظيم. ثم تبدلت وزارتان ، احداهما لم تدم أكثر من الأربع وعشرين ساعة ، ورجعت الوزارة الفهمية فى حكمتها وسداد رأيها . فعاشت تعانى الشدائد وتجاهد فى الاخلاص للبلاد جهاداً . غير أنها لم تفز كل الفوز ، اذ كانت الحيل التى يتدبرها جماعة خافية عنها . ولو خيرت لاختارت طريق الاصلاح مع الوقار .

وانى لأعجب من قوم حببوا الى الامارة الاستمرار على سياسة العداوة للمحتلين . وأذكر جيداً أنى لاقيت بعض وجهائهم (والأمانة تقضى بستر اسمه فى هذا الكتاب) . فقال أتدرى مايراد بالمحكمة المخصوصة ؟ قلت وما أدرانى ذلك . قال هى ضربة على الامارة . ولو بقى عبدالله نديم بمصر الى اليوم لما أقدم هؤلاء على أمر كهذا . قلت له اقدامهم على طرده من مصر دليل على احتقارهم له ولشيعته . وتركته لايحير جواباً . ومثل هؤلاء أسسوا الاحن فى قلوب المصريين ولقنوهم أقوال السوء وغشوا الامارة وآلوا بها الى مالا أحب بيانه فى هذه الفصول .

على أن المحتلين أصروا فى طلب العفو عن العرابيين من الامارة ، وما زالوا بها حتى اجابتهم اليه . وقد أرادوا أن يعرفوا الامة أنهم قوم لاتحمل صدورهم دخلا وأنهم لايستثمرون أحقاداً . ولاأظن أن رجلا يشفق على بنيه اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو أبو حريتهم ومصدر انصافهم ومورد سعدهم الا أنه كان يخدم من لايحبونه .

﴿ المرحوم عبد الله النديم وأستاذه ﴾

لاأذكر هنا ترجمة الرجل لكى لا أخرج عن الصدد . فليلتسمها من يطلبها في مظانها . وأنا ذاكر له ما أعرف من أحواله ومقاصده، مبين بعض ماتيسر من تقلبات الأيام معه . فقد كان له أشياع يأتمرون بأمره ويسيرون تحت علمه .

ان عبد الله النديم انتحل لنفسه السيادة وجاراه الى تسميته باسمها جماعة من محبيه . ولكن اتصل بى ممن حضر مجالسه وسمع حديثه وألمّ

ببعض أموره أنه لم يكن فى طباعه ما يشبه طباع السادة . وما كان الا رجلا من الرجال ، ذكى القلب ، شديد العارضة ، ذرب اللسان ، سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، ظريف المحاضرة ، حلو الشمائل . وكان كذلك جريئا على من يخافه ، كثير الوقيعة بمن يعاديه ، محاسداً أهل الفضل ممن هو دونهم ، سهل الغضب ، صعب الرضاء مدمن الهجاء ، دائم السخط . فمن صاحبه على حذر منه فاز بوده ، ومن وثق به ضاع وضاعت ثقته معه . قرض الشعر فلم يملك له ناصية ولا فاز منه بسهم ، ورام الزجل فوفر منه حظه وحلا فى فمه نشيده . فكان يرتجله ارتجالا ويسابق أهله فلا يشقون له غباراً .

هذا عبد الله النديم صاحب (الطائف) و(التنكيت والتبكيت) من قبل وصاحب (الأستاذ) من بعد . اختفى بعد ثورة العرابيين . وكان حارثهم ابن حلزة أو عمرهم بن كلثوم . رغا فتجمعوا وعقر فتفرقوا . ثم آوته قرى الريف ، فبات كأبى زيد السروجى يحترف الحرف ويتنقل فى الأزياء والأشكال . فيوما هو واعظ ويوما هو ماجن ويوماً هو عالم ويوماً هو خليع . وما زال كذلك يطوّف فى البلاد حتى تعرفه بعضهم فوشى به الى الحكومة فجىء به الى نظارة الداخلية . عليه غبرة ترهقها قترة . فأظهر الذلة والاستكانة ووعد بالتوبة والانابة . فزين بعض شيعته لمقام الامارة المصرية أن تعفو عنه بعد ذلك فعفت . فبدأ بعدئذ فى نشر (الأستاذ) . وبيان النديم مشهور ومألوف تفهمه العامة وتبتذله الخاصة . ولو مسح على كلامه بشىء من جزالة اللفظ وسمو المعنى وأمعن النظر فى غلطاته فاجتنبها لصح ان يعد من كبار الكتاب . فقد شهدت له ببعض الذوق السليم وأعجبنى ترسله . وقرأت له فى (الأستاذ)

مقالة عنوانها (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) فعلمت أن البيان سجية في الرجل. وكتابه المسمى (كان ويكون) يجوز أن يقال فيه أنه ابن قريحة وقادة.

ومن المعلوم عند أهل الدهاء ، أن حزب العرابي وان تمزق شمله بعد نكبة صاحبه ، بقي مختبئاً في مكامن خوفه اختباء الأفاعي في جحورها . وكذلك الفزع يستولي على أهل الدعوة فيلجم أفواههم ويكبهم على أذقانهم . فلما عاد النديم وأعاد لهم نغماته ، تطربوا وعرتهم هزة أفلتوا بها من مرابطهم . فقال فصدقوا ودعا فأجابوا . وما زال في غلوائه وهم في غوايتهم . يدعو الى الفتنة ويحض على الثورة ، والامارة تحبوه مايقوّم أوده ويطلق لسانه حتى آل أمره الى الطرد . فترك مصر مأسوفاً عليه من أشياعه ، مغضوباً عليه من العقلاء .

وقد اخطأ اللورد كرومر وقد يخطىء عظماء الساسة. فطلب من الامارة أن تكلمه في الخروج . فكان كلام الامارة له كلا ما يدل على قصر في النظر وخطل في الرأي وضعف في الارادة ومجاملة حيث يجب العدل. وظن اللورد كرومر أن عبد الله النديم اذا دام على نشر (أستاذه) حدثت ثورة في البلاد . فأراد الاقتصاد في المكاره والاجتناب للفتن . ولو كنت أنا في مقام اللورد لتركته يقول حتى ينفد ماعنده . فان للباطل جولة ثم يضمحل. وليس بمصر قوم يقدمون على الثورة ولو كانت مداعبة . وان قوماً ثاروا ، أو أثيروا ومعهم خمسمائة ألف مقاتل ، لم يصبروا في ميادين الحرب الا ساعات معدودة . لأشد من النعائم اجفالا . وأسرع في الهزيمة من الظباء عدواً . فلا يقومون الا اذا مد السماط وصفت الصحون .

مضى النديم رحمه الله تعالى ، واستخلف بعده آراء مشى فيها على أثره أشياعه . وقد جرى لى معه شأن ليس هذا محل ذكره ولربما جاء كلام عليه فى سياق الحديث مما يلى الفصل الحاضر . وانما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين . وهو من قدماء من يقولون (مصر للمصريين) ونحن نقول مصر للعثمانيين . ويظهر من أمور كثيرة أن مقام الامارة المصرية وثق بالنديم ثقة لا يتخللها الريب . فكان يحسبه قادراً على كل شىء . ومن أجل هذا قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر : ان مقام الامارة يقرب منه النديم لأنه عدو أسرته وجنسه . وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر الى الاعتماد على مصطفى كامل . وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم . وانما ميز المقلد عن المجتهد الممامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين. ولم يفز النديم بمثل ذلك .

وقد أخبرنى من لا يتهم بكذب ، أن مقام الامارة المصرية اتخذ النديم وسيطا بينه وبين بيلدين ، فى أمر المصاهرة وسيأتى ذكرها . وكاد يفلح في سفارته ، لولا أشياء دسها عليه خصم من أخصامه بالآستانة ، وبذا بطلت الثقة أو كادت .

حزب تركيا الفتاة

ملك من الملوك، شديد البطش، قاسي الفؤاد، دائم الحقد جريء في غضبه، خائف في حيلته، مطلق اليدين على أمة تتوجع ولا تدري مكان وجعها، يبعث بأمره الى رجل من رجاله فيجرده من ماله ونشبه ويسلبه عزه وسلطانه ويخرجه من بين أهله وجيرته ويسجنه صاغرا. كل ذلك لنصح نصح به أو قول صدق فيه أو حق عرف حبه له أو ظلم أبى أن يعين عليه. ثم يفرق أهله ويشرد أولاده ويقفل باب داره ويختم عليها رجال الشرطة بالشمع الأحمر ويمسى الرجل وذووه خبراً من الأخبار. هذا هو الاستبداد.

دولة عظيمة. جم ثراؤها، رغد عيش أبنائها، يتقلبون في النعم ثغورهم باسمة وألحاظهم غير زائغة، يتسابقون ولكن الى المجد. يتنافسون الآن تنافسهم في الفضل. ربوعهم آهلة وخيراتهم عميمة. لا يخافون مسيطراً الا كتاباً هو القانون ولا يتقون عادياً الا الأجل المحتوم. أيديهم مطلقة في عمل ما يفيد، مغلولة عن عمل السوء. تخفض الملوك رؤوسها أمام اراداتهم وتنصاع الحكومات الى اشاراتهم. لا يعرفون الحزن الا وصفاً ولا يجهلون من السرور طعما ولا شكلا. هذه هي الحرية.

الاستبداد الذي اشتكاه العثمانيون هو أكبر مما جاءت به هذه السطور

obeikandi.com

والحرية التي كانوا يقنعون بنيلها أقل بكثير مما مثلته في الكلمات المتقدمة . ثم كانت الأمة تريد شيئاً ولا تدري ما هو . كانت تشكو ولا تعلم ما يشكيها . بل كانت لا تطمع أن تعلمه . فلما حل ميقات الخلاص انتفضت فتساقطت من عليها نبال الظلم ووقفت مستبسلة لا ترجو الا الله ولا تريد الا الوطن . حتى اذا ذاقت وصال الحرية واستمتعت بجمالها وشبابها علمت انها كانت تئن من أجل ذلك ودرت أن هذا مالا بد منه لحياة الامم .

يحسب أكثر الناس أن أبناء تركيا الفتاة محدثون . كلا ثم كلا . هـذا فريق عريق مطلبه مترق بترقي الأجيال . وأول من هاجر من الاراضي العثمانية ناقماً هو الأمير (جم) الذي يسميه الأجانب (زيزيم) . وهو ابن محمد الثاني من ملوك آل عثمان . ولد في سنة ١٤٥٩ وهاجر مغلوبا من أخيه بايزيد الثاني في سنة ١٤٨٢ وراح الى أوروبا تضيفه السجون وتتقاذفه أيدي الملوك حتى قضى في أسر البابا (اينوسان) الثامن في سنة ١٤٩٥ مسموما . على أن هجرة (جم) لم تكن من أجل اصلاح ولكنها كانت النموذج الاول .

الا أن الامة العثمانية ، وان انتابتها النوائب وتعددت فيها آفات الاضمحلال ، أسعدها الله مراراً بقوم تداركوها وانتشلوها من وهدتها . واذا كان (الصقوللي) الشهير مجدداً بناء هذه الدولة فان (محمداً الكوبريلي) انالها في سنة ١٦٦١ من الثراء والجاه مالم يفز بمثله معاصره (ريشليو) . وقد شاء الله أن يسير فيها على اثره ، بل أن يفوته ، حفيده (مصطفى الكوبريلي) الشهير الوطني الذي لمع نجمه بعد سنة ١٦٩١ وما هؤلاء الا رجال تركيا الفتاة . فعلوا ولم يقولوا . أصلحوا لأنهم أرادوا ولم يطلبوا الاصلاح لانهم قدروا على فعله .

obeikandl.com

أما مذهب التجديد الحق وقلب الادارة العثمانية القديمة الى ادارة عثمانية جديدة على منوال الادارات فى الممالك المتمدنة ، فأمر لم يكد يخطر على بال أحد من قدماء العثمانيين قبل سليم الثالث . فانه أول سلطان بل أول عثمانى ألهم هذا الرأى ، رأى القلب من القديم الى الجديد . ولى الملك فى سنة ١٧٨٩ بعد عمه عبد الحميد الأول . فرآه مضعضع الأركان بادى الضعف فقطن لوجوب الاصلاح وأوشك يشرع فى انجازه ، لولا أن تعجلته الصروف بما لم يكن فى الحسبان . فدخل الجيش النمساوى بلغراد والجيش الروسى بسدر اسماعيل ودارت رحى الحرب حتى اضطر أن يرضى بهدنة (ياس) سنة ١٧٩٢ ودخل بونابارت مصر واحتل الفرنساويون بر الشام فاستعان على طردهم بانكلترا واستخلص مصر من غاصبها فى سنة ١٨٠٢ وقد ثار الوهابيون فى أرض الحجاز وثار على باشا (التبه دللى) فى يانية وثار الصربيون وقامت القيامة فى داخل البلاد وانهمك هذا السلطان الجليل باطفاء هذه الفتن حتى أتى عليها . ثم رأى أن لا بد من ابطال الجنود (اليكيجرية) وجمع جنود مرتبة مدربة على النسق الاوروبى . فقد أيقن أن لا خير فى أولئك الجبابرة الذين ظهرت سطوتهم فى النهب والقتل والاعتداء على اخوانهم من بعد ما افتضحوا وخذلوا فى حرب النمسا وروسيا . فاسس ثكنات عديدة وشاد (الخبره خانه) والمهندسخانة ونظم بعض الفرق من الجنود الجديدة . وبدا ثار اليكيجرية عليه وخلعوه فى سنة ١٨٠٧ ثم خنقوه فى سنة ١٨٠٨ بأمر من مصطفى الرابع الذى ولى الملك من بعده . فقضى سليم الثالث شهيد الاصلاح وبقى عمله ناقصاً الى أن أتمه السلطان محمود وطهر البلاد حتى لم يترك فيها من

اليكيجرية أحداً واستراح واستراحت معه الأمة . ومن هنا صح لنا ان نعد سليمان الثالث أول مؤسس لتركيا الجديدة أو تركيا الفتاة فعلا .

ثم شاءت الأقدار أن تنال البلاد العثمانية نصيبها من التمدين على يد الرجل الحر ، الشهير ببيانه ودهائه مصطفى محمد رشيد باشا . ومن عجائب النوادر أنه ولد فى سنة ١٨٠٢ وهى السنة التى نهادن فيها سليم الثالث مع الفرنساويين بعد اخراجه اياهم من مصر . ولم يكن لهذا الرجل فى صباه من يعينه ويربيه سوى أمه ولا من يحميه فى شبابه سوى ختنه على باشا المعروف (بالاسبارطه لى) وذلك الى سنة ١٨٢٦ . وقد عرف فضل نفسه وعرف السلطان محمود فضله بعد سنتى ١٨٢٨ و ١٨٣٣ . وكان برتو باشا يريد أن يستخدم رشيداً فى اصلاح هذا الملك فلم يمهله الدهر الى انجاز ارادته ونكب بالنفى ثم بالقتل وبقى رشيد من بعده واهن القوى واهى الأمر . وقد اختص بعودة انكلترا وولائها . ومن أجل ذلك لقى من فرنسا من العدوان ما أحبط كثيراً من مساعيه . وما لقيه من أعدائه المقربين من السلطان كان أشد وأنكى . ولولا هؤلاء السفل الذين يتزاحمون على أبواب السلاطين ويتخاصمون على المكاسب لاستفادت الأمة من جد أعاظمها ولم يذهب نصبهم فى غير جدوى . كذا بلى رشيد بحساد أبطلوا أعماله وحالوا بينه وبين خير البلاد . ولم يزل يتولى زمام الصدارة ثم يبارحها من سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٥٧ حتى قبضه ربه اليه . فهو ثانى المجددين بعد سليم الثالث وأول من هذب اللغة العثمانية واستخلصها من حوشى الكلام ومستهجنات العجمة وفتح باب الاصلاح اللغوى لشناسى الشهير .

ولقد جاء بعده رجلان عظيمان . أحدهما عالى باشا وهو نابغة المحررات الرسمية فى اللغة العثمانية . نشأ فى عز رشيد المتقدم ذكره وانتسب اليه وتفرد بحذقه ودهائه . ولى الصدارة فى نحو سنة ١٢٨١ هجرية وبقى ينافرها ويعاودها خمس مرات . وكانت ولايته الصدارة خامس مرة فى سنة ١٢٨٣ وبقى فيها الى آخر عمره . ولئن فاز عالى باشا فى تذليل المصاعب اليونانية التى ظهرت فى سنة ١٢٧٤ فلقد خاب فى معضلة كريد التى أتت فى عهد صدارته وقفل غير فائز منها بعدما قصد اليها بنفسه . وكان عالى باشا من القائلين بالترقى فى المألوف والاعراض عن المستجد . وكان يؤثر رضاء السلطان على رضاء الأمة . وكان يطارد أنصار تركيا الفتاة الذين وجدوا فى عصره حتى لقد قامت الحرب بين كمال بك مع ضيا باشا وبينه . كلاهما عاداه وطالت الحروب واشتدت الخصومات فألفاه اعداؤه خشنا عند المجس وصعباً لدى المراس مادام حياً ومثله فؤاد باشا الشهير الذى ولى الصدارة فى سنة ١٢٧٨ فكان أول ماأتى به من جلائل الأعمال أن سعى فى عزل مصطفى فاضل باشا من نظارة المالية ووشى به الى السلطان حتى أوقع بينهما العداوة والبغضاء وحرم بذا الأمة من أبى الحرية وموجدها . ولبعض الكتاب فى فؤاد هذا مبالغات لا طائل تحتها . ولم يكن الرجل الا من أنصار الفكر القديم . وقد مات بعد ما اختل عقله بالغا من العمر خمساً وخمسين سنة .

على أن أبا الحرية وصاحبها الأمير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا نال الشرف وحده فى مجاهدة الاستبداد . فكان هو ورشيد باشا قطبى المجد فى الملك العثمانى . ولكن تكاثرت عليهما الأعداء وقلت الحيلة وبقى

الأخلاف من بعدهما أن يسيروا على اثرهما .

ولى الامير فاضل نظارة المعارف ثم نظارة المالية لا يتقاضى راتبا ولا يراقب كسباً . بل جاد بقناطير من الذهب ورثها من أبيه . فأهدى المعرض الأول الذى أقيم بالاستانة العلية خمساً وعشرين ألف ليرة وأهدى السلطان مراداً الخامس خمساً وسبعين ألف ليرة . وهاجر من عاصمة الملك يؤم بلاد الغرب حتي استقر به النوى فى باريس سنة ١٧٦٥ . وكان استصحب معه الشاعرين الكاتبين الشهيرين كمال بك وضيا باشا . فجاهد بماله ورأيه وجاهد صاحباه بقلبيهما ويراعيهما فهزا قصور الظلم هزا . وسار على طريقه شهيد الحرية والوطن مدحت باشا الشهير . ومازال يجاهد ويعمل حتى تمكن من خلع عبد العزيز فى قصة معروفة يطول شرحها . وأجلس على سرير الملك مراداً الخامس .

فبينا يجتهد الأمير مصطفى فاضل مع صاحبيه اجتهاد ابى حنيفة وصاحبيه ، اذ أتى عبد العزيز ، وقد تخلص من عالى وفؤاد بموتيهما واستخلص لنفسه محمودا نديماً المعروف عند العثمانيين بندموف . وانما سمي بذلك لانه كان صنيعة آغناتيف وأول من جعل السياسة الروسية رابحة السوق فى المابين . فانطلق هذا الخؤون فى زمان صدارته يرتكب من الموبقات مالم يسبقه اليه سواه . استغوى السلطان عبد العزيز حتى أغواه وحارب به الحرية والأحرار . ثم طلع مدحت في سماء الصدارة فمنت الوجوه وشخصت الأبصار .

ولا بد لى من ذكر شيء من لائحة أبى الأحرار المرحوم الأمير مصطفى فاضل ، قبل الكلام على مدحت وأعماله هذه اللائحة أنفذها الأمير مصطفى

فاضل الى السلطان عبد العزيز حين مهاجرته الى باريس وأودعها من الحقائق والكلام الموجع ما نزل على المابين نزول الحديد المذاب . وهذه اللائحة كانت كاعلان حرب من حزب تركيا الفتاة الذي تأسس اذ ذاك ، على السلطان المستبد.

قال مؤسس الحرية الأمير فاضل بعد الديباجة :

أصعب ما يدخل قصور الملوك هو الحق . ومن يحيطون بهم يخفون الحق حتى عن أنفسهم . لأن هؤلاء لما عاشوا فى مركز الحكومة وبين لذتها ، حسبوا أن المشقة التي تكابدها الرعية هى من فتورها . وهم يزعمون أن وقوع الدول فى الضعف هو من حوادث الكون التى لا حيلة فى درئها .

لابد من جرأة فى الصدق ، ليبصر الحق ، من غير وقوع فى الأوهام الباطلة . ولابد من جرأة أكثر من ذلك لبيان الحق للملك . وهذا الصدق لم يتخط عبدك أبدا . واثباتاً لذلك أرجع الى ذاكرة جلالتك ومن كانوا سبباً فى نفي الى ديار الغربة .

نعم ، لم تتهيأ لى الى الآن خدمة ترى الآثار البادية لهذه الصداقة واستعدادى لها . أى لم أتمكن من خدمة صالحة تستوجب اصلاح وطننا واعادة الحياة اليه . ولكنى أول من أماط الحجب عن وجوه الدول وعرض سيئات حكومتك وجراحاتها لذاتك الهمايونية . وجل أفكار عبدك متجهة الى خدمة ذاتك الشاهانية . وانى ، لاخلاصى لذاتك الهمايونية ومحبتى لوطنى ، لم يبق لى صبر للتفرج عن بعد على الأسواء التى أحاطت بنا ظاهراً وباطنا . واذ كنت على ثقة من المروءة التى اتصف بها قلبك الشاهانى عددت من وظائف التابعية أن أبين هذه الأسواء مرة أخرى ، غير كاتم منها

واحداً ، لنجد لنا سبيلا الى خلاصنا في حينه .

مولاى صاحب الشوكة ، ان مايقوم به في دولتك من أعمال الفوضى ورعاياك المسيحيون ، هي كلها من أعمال أعدائنا في الخارج . على أن الادارة الحاضرة أيضا لها من ذلك نصيبها الأوفر . لأن أعمالا لم يكن بها بأس فيما سلف من الأزمان ، تلوح اليوم وكأنها ظلم وجور على الرعايا من كل جنس. والأوروبيون يحسبون أن المظلومين والمتهنين والمحقرين كل التحقير في تركستان هم من الأمة المسيحية المحكومة . وليس الأمر كذلك . ان المسلمين ولا تحميهم دولة من الدول الغربية ، سحقوا ومحقوا أكثر من الملل غير المسلمة . المسلمون كابدوا هذه الكرب الى الآن بما اتصفوا به من النخوة في الصبر والانتظار . أما الأوروبيون فلا يعلمون ذلك. على أن المسلمين، لما كانوا من دم ذاتك الشاهانية التي بيدها زمام حكومتهم ، يعدون محبتهم وطاعتهم لعرش سلطنتك من الأوامر القرآنية . ولكن اءذن لي يا مولاى صاحب الشوكة ، أن أقول لك : انه لم يبق للملة الاسلامية جلد ، لا على الاخلاص ولا على احتمال الكرب . ان أصوات السخط وان عولجت بالاسكات ما عولجت ، أخذت ترن في كل صوب . فانزالهم اذن الى هذه الدركة من اليأس مضر بنسلك وبهم .

ان من سيئات أصول الادارة الحاضرة التي ربما كانت على مايخالف رضاءك الشاهانى خاصة ويخالف رضاء الوكلاء أيضاً ، بل من أنواع الظلم التى لو علمت به ذاتك الهمايونية لأزاحته ، أن أعراض التناقص بدأت تبدو في سلالة الأتراك يوماً بعد يوم وأن البعض من عبيدك الصادقين الذين

يفتخرون بأنهم من هذه السلالة العلية يرون قلة هذه الأمة فيأسفون أسفاً حقاً . ولئن كان السبب الأصلي لهذا خطأ الأصول العسكرية ، الا أن الأمر الذي يخيف عبدك أكثر من ذلك ليس هذا . بل الذي يخيفني جداً من أحوالنا الآتية هو ، كما يرى في الملل المحكومة ، ازدياد سوء الأخلاق الذي عرض لامتنا العثمانية وتمكنه كل آن وانتشاره .

مولاي صاحب الشوكة ، محا آباؤنا قبل أربعمائة سنة ، امبراطورية الشرق من على وجه الأرض وجاؤوا البلدة المشهورة التي اتخذها قسطنطين مقراً لملك العالم في أبهتهم وجلالهم وسكنوها . فما كان هذا الشرف التاريخي الذي أحرزوه ناجماً عن غيرة دينية أو شجاعة عسكرية ، بل كانت الغيرة الدينيه والشجاعة العسكرية عكساً لاشعة أخلاقهم الملية ، وانما نالوه لأنهم كانوا مطيعين قوادهم . ولكن هذه الطاعة كانت قائمة على أساس حرية اختاروها وقبلوا بها من أنفسهم وكان قلب كل منهم وعقله حراً فيما يختار . ولا أدري أية حرية فطرية وأي شمم غريزي اجتمعا فيهم واستعدتا لهم نظاما وجعلا أخلاقهم الحية ومشاربهم في حالة من الاطراد . هذا هو السبب ، سهل لهم الظفر بدولة عظيمة قامت فيها حكومة الظلم وأضحت الذلة والمسكنة وكل المعايب الأخرى دستوراً للعمل .

هذا ما تيسر نشره من لائحة الأمير الجليل مصطفى فاضل وكنت أود تعريبها برمتها ايثاراً لدرر حكمها واقراراً بفضلها لولا ضيق المقام . ولمدحت باشا واسماعيل كمال بك ومراد بك لوائح عديدة رفعت الى عبدالحميد الثاني من بعد ، سخر بها وبكاتبيها وزاد اسرافا في الدماء واستمراء للظلم .

وقد كان فى خلع عبد العزيز والبيعة لمراد موعظة لعبد الحميد ، نبهته الى العناية بذاته دون ملكه حين أفضت السلطنة اليه بعد أخيه مراد . رأى الشعب موغلا فى ظلم الجهالة لا يدرى من نعم الحياة شيئا . وأبصر قوما من نبهاء العثمانيين يقودهم مدحت أبو الدستور . فقال أستميلهم كلهم باللين حتى اذا خضعت رقابهم وملكت نواصيهم أعملت فيهم الشفار القاطعة واقتطفت رؤوسهم اقتطافا وكان مدحت أخذ عليه عهدا بخطه أن لا يحيد عن أسلوب الدستور وأن لا يستبد برأيه . فرضى بذلك ساكن « يلديز » وأصدر ارادته بانفاذ القانون الأساسى الذى كان اشترك فى تحريره كمال بك وضيا باشا وحرفه سعيد باشا وفتح مجلس الأمة فى سنة ١٨٧٧ الى أن ثبت قدمه . وكان اسم مدحت يكاد يغطى على اسم السلطان . فدبت فى فؤاده نيران الحسد وأكبر أن يعلوه أحد رعيته مجداً وسؤدداً ويسلبه محبة الأمة ولا يدع له من الملك الا تاجاً أذهبت تألقه الأيام وأبلت جدته العصور . فأضمر له الشر ، ولكن كيف يقوى على ذلك ومعه رقيبان لا يغفلان عنه ولا تسام ذمتاهما بأغلى المهور ، وهما كمال بك وضيا باشا . وكانا جعلا مستشاريه ومراقبيه . فدعا مدحت ذات يوم الى قصره وقال ان وجود رقيبين عليه يخفض جانبه ويذهب بهيبته ويحقره فى أعين أمته . ولعبد الحميد فى مثل هذه المضايق حيل لا تخذله . ومدحت وان عرف بسعة العقل وخلاص الطوية وكثرة التجارب لم يكن من نظراء عبد الحميد فى مكايده . فدخلت عليه الحيلة ورضى بما نوى سلطانه واستكان .

وما لبث السلطان العثمانى أن استطار كمالا وضيا كلا الى بلدة يحتكمها

﴿ عالى باشا ﴾

ظاهراً ويبيت عانيها باطناً. واستشعر مدحت بعاقبة الأمر وكاد يقضى ندماً ولات ساعة مندم . ظفر الجبار أول ظفر وهدم سدين قويين بينه وبين الاستبداد .

فما بقى على طاغية الشرق الا أن يتخلص من مدحت اما بسلم واما بحرب ، ولا سبيل الى أحد الامرين . فأقام يترقب الفرص وفى العين قذى وفى الحلق شجا . فلما كانت سنة ١٨٧٧ وجعل الجنرال اغناتيف مندوب روسيا فى الاستانة يقترح مطالب كلها فضول وأبى نواب الأمة قبول تلك المطالب ، طاب السلطان نفسا وتحفز للوثوب على فريسته . . فأعلنت روسيا الحرب المشؤومة وخرجت الدولة العثمانية مكسورة القوادم منهوكة القوى. وعقدت معاهدة (سان استفانو) وكان مجلس الأمة تفرق جمعه ومدحت أسقط من مقام الصدارة وطرد من وطنه . الا أنه بادر الى برلين وما زال بيسمارك

حتى استرضاه بعقد مؤتمر برلين بعد ما أقنعه بالحجج الدامغة بأن زوال الملك العثماني يفضي الى فقدان التعادل في اوروبا ويؤول الى حرب تهلك الحرث والنسل وتأكل كل غارب ومنسم .

هكذا هزم الجيش العثماني . وتفرق نواب الأمة . فمنهم من ضاقت به السجون ومنهم من أدلي الى قاع البحر أو نفي الى الولايات البعيدة أو هرب ومكن من الخلاص . فطاب الوقت لعدو الدستور والمتيم بالاستبداد وبقي القانون الأساسي ينشر كل سنة في التقويم العثماني الرسمي (السالنامه) وفجر بميثاقه من ينتحل لنفسه اسم الخلافة لرسول الله .

ولما كان هذا السلطان مرزأ بحب النفس والجاه والمال ، شديد الجبن ، دائم الوسواس ، قليل الثقة بأشد رجاله اخلاصاً ، كثير الارتياب لا يزول من قلبه الحقد ولا يفارقه حب الانتقام ، سل للأمة سيف البغي فجندل سراتها وأذل أعزتها وجعل سافل ملكه عاليه . فألقت له الامة الطيبة بمقاليد الأمور وأذعنت له أيما اذعان .

ولما أصبح الاوائل من رجال تركيا الفتاة وقد انصدع شملهم لم يبق منهم الا من غلب عليه الخوف فآثر السكوت على مضض أو فتنه المال فاختار النفاق ، حتى لقد صار جماعة من علية القوم وفضلائهم من رجال القلم جواسيس ووشاة وأغدقت عليهم الهبات وفسدت الطباع فنم الولد على أبيه وعادى الأخ أخاه وخان الأمين وراجت أباطيل التعصب فتزلف حملة العمائم والطيالس الى سدرة الملك حيث يدر النوال وترفع الأقدار .

وانما تقم رجال تركيا الفتاة على الملوك العثمانيين جهلهم وخمولهم وما ألفوه

من البذخ والترف وما جروا عليه من ظلم الرعية والتأله عليهم وانكارهم على الأمة ماتطلبه من العدالة وهي أصل الحرية والمساواة والاخاء . واستكبروا أن يكونوا كالملوك في البلاد المتمدينة . وأبناء الملوك عندنا لا يربون على ما يفتح أذهانهم ويهذب أخلاقهم ولا يتقنون من العلوم الا مبادىء في أمر الصوم والزكاة والصلاة ولا ينظرون من الكتب المؤلفة الا في كل قديم منها مشحون بما لا يسعه العقل مثل (آلتي پارمق) و (أنوار العاشقين) و (علم حال) ولا يتعلمون الا مالا يذكر من اللغة العثمانية في كتب مثل (التحفة الوهبية) و (بند عطار) و (كلستان) و (بوستان) ولا يلقنون الا بعض كل ما كان غريباً من جيده ورديئه . ثم هم يرون كيف يعيش آباؤهم ومن هم فوقهم سناً . فينغمسون في الملاهي ويقضون أيامهم بين الأبكار العون من الولائد في قصف وعزف ومعاقرة ولهو وهم بمعزل عن أمور الملك ولا يأذن لهم بمعاناتها أحد ممن ولي الأمر خشية ورقبة .

أما رجال الدين وهم عيال الرجال فينبشون عن منسوخة الأحاديث وغير الصحيح منها فلا يروون للملوك الا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين اصبعي الله يقلبه كيف يشاء) وقولهم (الملوك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) . كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقرباً الى جفانهم واستجداء لجوائزهم فما يخرج هؤلاء الا يدخل السائلون المادحون ، ونسميهم مسامحة شعراء ، ليمدحون الظالم سفاك الدماء وناهب العباد فيقولون له : (ان بين غلائلك فعدلا من الله وبين جنبيك لروح القدس . يامجزل العطاء ومولى النعم يامن

يخصب بأمرك المحل وتجرى الرياح . وتنقاد لمشيئتك الأقدار وتحسد السماء الأرض اذ كانت موطئا لأقدامك ، ياظل الله وباني الكون ، يامن عتبته فوق الافلاك .) الى غير ذلك مما يستحى من ذكره ويشمئز من سماعه كل من كان فى فؤاده مثقال خردلة من العقل أو الانصاف . ولا يكتفى أمثال هؤلاء بما أجملنا قليله بل يختلقون لأنفسهم مايمكن فى قلوب الملوك مكانتهم ويعليها ويتحكمون به على الأمة وهى غافلة عنهم . فيروون مثل قولهم (علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل) ويأتون بآيات من القرآن العظيم لا تصدق فى أحد منهم كقوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وفيهم من بلغت به القحة الى أن قرأ لفظة الجلالة مضمومة والعلماء مخفوضة ففسر الآية الكريمة بغير معناها الأصلى.

أما الحكومة العثمانية فلم تشبه حكومة فى الوجود . وما انتظم لها أمر فى ماضيها ولا فى حاضرها . ومثل رجالها كمثل سكان الخيام فى زمان الجاهلية. اذا وليهم سيد عاقل واتخذ بطانة خير وحاشية عدل انعش نفوس محكوميه وأحيى موات آمالهم واذا وليهم غاشم جب منهم الغارب والسنام واذاقهم مضض الذل ومرارة العذاب . تجبى أموال الرعية بلا حساب فيضيع بعضها فى جيب الجابى وبعضها فى جيب من هو فوقه . فلا يبقى لبيت مال الدولة الا مايتصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طرب الملوك ولذاتهم وجانب على المقربين من الغرانقة ويبقى الموظف الصغير صفر اليد أو تدركه آمره رحمة فينبذ اليه بما يسد به رمقه .

فالى مثل هذا نظر رجال تركيا الفتاة وتوقعوا منه سوأ وأحبوا أن يفدوا ملكهم ووطنهم بأرواحهم .

﴿ فؤاد باشا ﴾

واذ كان الأوائل من رجال تركيا الفتاة فنى أكثرهم ولم يبق من شيعتهم من يعول عليه كما تقدم ذكره فى هذا الفصل أخذت جماعة من الناشئين الأحداث ممن تأدبوا بأدب كمال وتعلموا من كتبه الخالدة على ممر الدهور واستناروا بآرائه وآراء من كان معه ، تنوب عنهم . فكانوا يتشاكون فيما بينهم مما يرون من سوء المصير. وقد ابغضوا السلطان لما اقترف من الآثام ولحنثه بيمينه . وكان كلما أحس السلطان بنهضة سلط أعوان نقمته فشرد دعاتها وبدد سراتها وكاد لها كيدا . ولقد بث الجواسيس وفتح أبواب السعاية والنميمة لكل خامل الذكر عاثر الجد لئيم الأصل . فمن دله من هؤلاء اللؤماء على نبيه ليذهله وفاضل لينتقصه وعائل يؤيم أهله وبيت يخربه على صاحبه أجزل عطاءه ورفع منزلته . ولقد أقصى عن دار الملك كل أريب صادق وفى

وقرب منه كل خؤون ممقوت .

فلما حدثت المذابح الارمنية التى وقعت فى سنة ١٨٩٥ حنق أكثر أنصار الحرية من العثمانيين واستحوا ان يدعوها تمر بهم غير متألمين . فكان فيمن حنق على الحكومة الحميدية مراد (الطاغستانى) . رفع كتابا طويلا الى عبد الحميد أدمج له فيه وصف التهلكات المحيطة بالملك العثمانى وأبان له عن مصير الظلم . الا أنه أحس بالشر وعرف أن عبد الحميد لا يترك جرأته بلا حساب . فخرج من الآستانة طالبا نجاته . فنزل بمصر وأصدر فيها جريدته (ميزان) التركية التى كان يصدرها بدار السلطنة قبل دخوله فى خدمة الحكومة وكان السلطان أمر اذ ذاك بتعطيلها لما نشر فيها من الرثاء لكمال بك الأعظم شهيد الأدب والوطن . وكان لمراد منزلة كبرى فى قلوب كثيرين من تلامذة المكتب الملكى لأنه كان معلما لهم فى التاريخ . ففازت جريدة (ميزان) من الشهرة والارهاب بما أفزع عبد الحميد على سريره . ثم قضت الصروف على مراد بالخروج من مصر فسافر الى (جنيف) وأعاد اصدار ميزانه هنالك وألف جمعية لمكافحة الدولة الظالمة وجعل نفسه رئيساً لها . واذ ابتلى الله العثمانيين بالحسد وحب الرئاسة فى مثل تلك الاوقات نشأ الخلف بين مراد وبين أحمد رضا . كل رأى نفسه أولى من صاحبه بان يستقل بالاثرة ويتفرد بالسيادة وكل رأى فى مناوأة الظلم رأيا لا يشاكل رأى صاحبه . فأخذا يتراجحان ويتباريان حتى استرجع مراد الى الآستانة بعد ما ترك لاسمه دويا فى أرجاء أوروبا والممالك العثمانية ملأ الأسماع وكاد يستولى على القلوب . وتفرقت من بعده جمعيته ولم تقم لها قائمة منذ ذلك .

ورأى عبد الحميد فى رعيته أمارات الضجر واستشعر من أذكياء الأمة انتباههم فعمد الى قوته يضرب بها ضعفهم وغفله الله عن اصطناعهم بالجميل واخضاعهم بالعدل وسياستهم بالحكمة ، وزين له البغى أعوانه وقربوا منه أشباهه. فضاعف عدد الجواسيس واستبد على الناس فداخلهم حتى فى وليماتهم ومناحاتهم. ففنى صبر المتحالمين وخاف العقلاء عاقبة هذا الجور. فاجتمع فريق من الفضلاء وألفوا (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) في نحو سنة ١٨٨٩ . وجعلوا مركزها الاعظم بسلانيك . ومركزها المعظم بمناستر ؛ ونهض أنور ونيازى يتقدمان صفوف المجاهدين فى سبيل الحق ويستصرخان بكل صادق الود ثابت العزم من كبار الأمة وأهل نجدتها حتى كان هذا الانقلاب .

نعم وفت الجمعية وأبطالها بعهدهم فوفى الله بعهده . وانما قرب لهم الأسباب وسهل لهم ادراك الطلبة افراط عبد الحميد فى الظلم ومبالغته فى الاساءة . وقد آنس ذلك قبولا فى طبيعة الرعية للخير واستعداداً للمجد واستحقاقا للفخر فقويت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

واذا لم يشأ رجال الجمعية المقدسة وبطل الحرية نيازى الكبير أن يقولوا شيئاً فى تاريخ الجمعية وكيفية تألفها واعتذروا بأن هذه أسرار لا يمكن افشاؤها فاولى برجال التدوين امساك القلم عن الخوض فى هذا العباب تفاديا من الشطط واجتنابا للوم الأصدقاء .

(مذابح شهداء الحرية من اخواننا الأرمن)

مثل هـذا الفصل يحتاج الى أنامل (روبنس) مصور اللوح الشهير الذى سماه (مذبحة الأبرار) . فان أنامل الشاعر المجيد والكاتب المبدع لاتفى بغرض ولا تأتى بفائدة فى وصفه . الكلام على مذابح والمذابح فيها جثث والجثث معصفرة بالدماء والدماء تجرى على بطاح والبطاح بها حجارة صلدة وهشيم يابس ونهر دافق ومشهد العين غير خيال الفكر والفكر يستمد من العين فهى ينبوع العلم والفكر مجلى المعانى . فليكن الكلام على قدر الامكان لا على قدر الواجب .

البلاد العثمانية تعمرها أمم شتى ، متباينة الأجناس ومختلفة المذاهب . جمعت بينهم القوة وفرقهم العدوان . فهم اخوة يسكنون داراً واحدة ويستظلون بسماء واحدة وينهلون ويعلون من مياه متجانسة منذ سبعة أعصر ، ولكنهم مع ذلك متنافرون . يسقيهم وطنهم بكل صاف نمير ويسقونه بالدم المسفوك . أهم على مقربة من الموضع الذى يزعم أهل القصص أن قابيل قتل هابيل فيه فعدتهم الحال بمرض أحد الآباء ، قتل الأخ لاخيه ؟ أم اختاروا سبيل الجناية حباً فى الجناية ؟

السلف أخطأ الحكمة ولم يحسن السياسة . كذا قال التاريخ ولا بد من تصديق التاريخ . هم أحبوا الأنبياء وشاؤا أن يكونوا كالأنبياء ألسناً لا قلوبا وحالا لا ذاتا . فما اختاروا من قصة موسى الا عبادة العجل ولا من تاريخ

عيسى الا الصلب ولا من وقائع المدنانى الا حال أبي لهب . تشاغلهم بأنفسهم لم يدعهم يرون غيرهم وصيحاتهم منعتهم عن سماع أصوات الأمم . حتى اذا تضاءلت شمس الشرق ولم يكف شعاعها لانارة ربوعها وطلعت بآفاق الغرب شموس كثيرة وقفوا وقفة المجهود ينظرون الى بعض. فاذا بهم دامية اظفارهم دامية أنيابهم دامية لهواتهم بادية أجسامهم تعلوها أطمار بالية رثة . حسبوها بقايا ثياب فاذا هى قطع اكفان !!!

قال قائلهم هلموا نطلب علما . صدق القائل . لله در القائل . ما أكبر عقل القائل . وما هى أن أنشئت المكاتب وفتحت المدارس وألفت الكتب على النمط الجديد وقالوا مالنا وللاديان تلك أمور بين الخالق وخلقه . القلوب الواح محفوظة لا يقرأ مافيها الا الله . وما نحن الا اخوة . وحدة حال ووحدة مصير لا يتفقان . ففم ذلك الصفاء أهل الدين أولى التعصب ، من يعمرون المساجد ليستغنوا بها عن تكاليف المنازل فيتخذونها مساكن ويشيدون الزوايا والتكايا ليصيبوا فيها ما كلهم وأقواتهم . فهبوا يغالبون المخلوق باسم الخالق وأتت الدولة الحميدية وشيد صرحها الممرد (يلديز) . فوجدوا منه أكنافا موطأة للمزاحمين وآذانا سميعة للواشين قالوا . النبي يأمر . قال وأنا خليفته أفعل . قالوا : الدين يفرض . قال : وانا حاميه أقوم بما فرض . وماذا فعل لادر دره ؟ جعل بيوت الحكومة كالمساجد ترن على سلالمها أصوات المؤذنين وصير المكاتب كالمدارس الدينية تقام فيها الصلوات وتقرأ كتب الدين ويزرع التعصب فى قلوب الشباب فتنمو معه نفوسهم وترسخ عليه طبائعهم. فكان المفطر منهم فى رمضان يزج فى السجن والقاتل مطلق السراح يمشى

فى الأرض مختالا .

— ألا تخشى ياولى الدين أن تغضب المتدينين بهذا الكلام ؟

— كلا .

— ألا تجده سابق أوانه ؟

— كلا .

— أتجرأ بعدها أن تسكن البلاد العثمانية ؟

— نعم . لأكثر فيها من مثل هذا الكلام . ولست وحيداً فى انصافى. وأهل الانصاف عددهم كثير .

— اذن فأنت جدير بالرثاء .

— ربما رثيتنى اليوم وحسدتنى غداً . اذا سكت الكاتب الحر اثنى عشر عاما ثم لقى الحرية ينطق بمثل ماترى . فلا تقل سكت دهراً ثم نطق كفراً . ولكن قل

وذو الشجو القديم وان تسلى * محب حين يلقى العاشقينا

أرى حولى أحرار العثمانيين فأغنيهم بغنائنا . ولكل امرئ غناء يطربه . ثم الحروف التى توصف بها الدماء تكون حمراً . فلنرجع الى ما كنا بصدده . تعصب أكثر العلماء وجهل الرعية وظلم الحكومة أتى البلاد بثلاث مذابح مختلفة : أولاها مذبحة الشام . وقعت فى سنة ١٨٦٠ . أضرم جاحها وأجزل وقودها أحد الباشاوات بأمر من الباب العالى . فطلبت انكلترا وفرانسا من الحكومة العثمانية تحقيق الأمر وعقاب من تثبت عليه جريمة التحريض . فذهبت الى الشام هيئة محققة اشترت رضاء الباشا وسارت على

﴿ البطريرك نرسيس ﴾

ما أمرتها به الحكومة . غير أن انكلترا وفرانسا لم تقنعا بذلك وأصرتا على طلب التحقيق . فتبين ذنب الباشا . فطلبت هاتان الحكومتان اعدامه ليكون عبرة لغيره . وكان سفير انكلترا فى الآستانة اذ ذاك (أرل رسل) ومعتمدها فى بر الشام (اللورد دوفرين) . فزعمت الحكومة العثمانية أن قتل الباشا قد يستثير المسلمين ويدفعهم الى قتل المسيحيين عامة انتقاما وتشفياً وربما تعدى ذلك الى رعايا الدولتين . فكان جوابهما الاصرار بعقاب الباشا . فأعدمته الحكومة التى أوعزت اليه بالفتنة ولم تحدث هنالك أشياء مما ادعت تخوفها منها .

ثم وقعت مذبحة البلغاريين فى سنة ١٨٧٧ . وقد حمى الباب العالى زعماء الفتنة وذهبت مساعى (اللورد بكنسفيلد) غير مجدية نفعاً .

ثم جاءت المذابح الأرمنية ولا بد من اعادة النظر قليلا فى أسبابها لكى يتسنى لنا استخراج نتائجها .

أكثر الناس لا يعلمون ماحمل بعض اخواننا الأكراد على مباغضة اخواننا الأرمن فهم يلتمسون الأسباب ولا يجدونها . وان من تلك الاسباب التى خفيت عنهم أن قبائل من الأكراد كانت فيما مضى من الزمان أرمنية ثم آثرت التدين بدين الاسلام ابقاء على حريتها وتوكيداً لنيل رغائبها . فبزت قديمها ورفلت فى جديدها . الا أنها ظلت محقرة عند أخواتها مرزأة فى غلوائها . فمن هذه القبائل المتغيرة قبيلة (ماميقون) الكردية . كانت من امارة (ماميقونيان) الأرمنية وقبيلة (بكران) الكردية . كانت من امارة (باقرادونيق) الأرمنية وقبيلة (ريشقون) الكردية . كانت من امارة (روشتونيق) الأرمنية . والمتأمل فى توافق الأسماء لا يرى مناصاً من التسليم بصحة ماروواه التاريخ .

ولم تزل الأضغان تتزايد بين هذه القبائل واخواتها الأرمنية حتى أدت الى التقاضى الى السلاح . واذ لم يكن عند الاكراد ماعندهم اليوم من السلاح الجيد والعدة الوافية كانوا يهزمون أعداءهم تارة وينهزمون أمامهم تارة أخرى ولكن عقلاء الأرمن أوجسوا من دوام هذه المعارك شراً . فأحبوا أن يحلوا الوفاق محل الشقاق وأن يستعيضوا بالاتحاد عن الخلاف . وأول من انتبه منهم لهذا الرأى الصواب هو البطريرك الشهير (نرسيس) وبين سنة ١٨٧٨

وسنة ١٨٧٩ قام وفد من بيكوات الأكراد يريد القدوم الى الآستانة للمذاكرة مع البطريرك في هذا الباب . فلما أحس بذلك عبد الحميد أكمن للبيكوات من اغتالهم فى طريقهم وأحل بهم الردى . وهكذا خابت آمال (نرسيس) الحكيم .

ثم عنّ لعبد الحميد أن يتخذ سذاجة الأكراد وعداوتهم للأرمن ذريعة للايقاع بالارمن وليجعل للرعية مايصرفها عن الاشتغال بأعماله ويستزيد لنفسه قوة يركن اليها عند الفزع الأكبر . فاستحدث الآلايات (الحميدية) من أخلاط وزمر . فمنها الكردية وهى الاكثر ومنها العربية ومنها الجركسية . وجهزهم بالسلاح الجديد وأمدهم بالميرة وكل مايحتاجون اليه جما وافرا . وحين فاز الأكراد بهذه الأهبات وباتوا مدججين سلاحا والأرمن معازيل ، رجحت كفة الأكراد فى الضراب وخفت كفة الأرمن وعليهم دارت الدائرة . هذا مايتعلق بالأرمن مع الأكراد .

ولكن يجب أيضا النظر الى المذابح الأرمنية من جهة أخرى.

الأرمن كابدوا من ظلم المسلمين والحكومة المستبدة لاسيما فى طريق بر الأناطولى مالا تصبر عليه القلوب وحملوا من الضيم ماتكل عنه المتون. ولكنهم أبناء الشرق ، وأبناء الشرق نفوسهم أبية . فنشطوا الى العمل فى جد متواصل طلبا لما يستخلصهم من اذلال اخوانهم اياهم . فما وجدوا سبيلا هو أقرب الى المراد وأنفذ الى النجاة من طلب العلم والصناعة والاستفادة من معجزات العصر الجديد. فكان منهم المهاجرون الى أقاصى البلاد والمتزاحمون على أبواب المكاتب والمتنافسون فى تشييد مكاتب أرمنية . وما

برحوا يترا كضون الى الاستنارة بأنوار المعرفة حتى توافوا الى مشرق نورها ومطلع نيراتها وهم كلما زادوا توغلا فى العلم زادوا معرفة بأساليب الحياة فغيروا ماراًوه غير صالح من قديم العادة واستبقوا ما كان صالحا . فما مضت اعوام قلائل على نهضتهم هذه الا برزوا على مواطنيهم من المسلمين . أما المسلمون فلم يريدوا النزوع عن ميراث السلف الا قليلهم وعدوا الاستفادة من علوم الغرب واقتفاءه فى ترقيه شائناً لكرامة الدين . وعند التفاضل ظهر فرق الامتين وأحرز الأرمن قصب السبق . فكان هذا داعياً الى حسد المسلمين لهم وامتعاضهم منهم : والأرمن عرفوا حد ماعليهم للحكومة ومالهم عليها. فرضوا أن يهبوها حقها وأن يطالبوها بحقهم وكبر هذا على الحكومة لانها كانت لاتحب النصفة وكبر على المسلمين لأنهم لم يكونوا يعلمون أن للأرمن حقاً على الحكومة وهم يعلمون أن الحق لايكون الا للمسلمين دون سواهم . نعم كان فى جماعات المسلمين رجال رزقوا العلم واشربوا حب الوطن اعترفوا لاخوانهم المسيحيين بالحق وأرادوا انصافهم وودوا مشاركتهم فى مطالبهم. غير أن قلة العدد خذلتهم فى مناوأة الحكومة والسلطان الظالم وظلوا فى أعين الجهلاء بمنزلة الأعداء .

وكانت بمدينة (وان) شركة اسمها (مياتسيال أنكرجون) ومعناها الشركه المتحدة . أسست لاستحضار ماتحتاجه المدارس الأرمنية من كتب ودفاتر وأقلام وقراطيس وغيرها من الأدوات المكتبية وجعلت لهذه الشركة شعب في سائر الولايات العثمانيـة ونصب لها مديراً رجل من جلة الفضلاء اسمه (مغرديج بورتقاليان افندى) . ولما رأى تخلى المسلمين عما يرمى اليه

بنو جنسه واستحكم اليأس من فؤاده وأفئدة من هم على شاكلته من نجباء الأرمن أسس جمعية خفية فى (وان) سماها (جمعية آرمناقان) وذلك فى سنة ١٨٨٠ . وجعل أساس مقصدها حماية الحقوق الأرمنية من الضياع . وفي سنة ١٨٨٥ قبض عليه وعلى أحد رفاقه فى سعيه وهو البطريرك السابق المرحوم (خريميان) أفندى وأخذا الى الآستانة وكان وشى بهما البعض الى السلطان . ولما لم يجدوا مايرجح التهمة عليهما أخلوا سبيلهما فسافر (پورتقاليان) افندى الى (مرسيليا) وأصدر فيها جريدة باللغة الأرمنية سماها (أرمينيا) وهى لاتزال تنتشر الى اليوم وانتقل مركز الجمعية أيضاً الى (مرسيليا) وهو كائن هنالك الى يومنا هذا .

وفى سنة ١٨٨٥ حين كان البطريرك السابق (أورمانيان) مطراناً بأرضروم ، أحست الحكومة المنقلبة ان قد أسست هنالك جمعية أرمنية اسمها (خنجاق) . فأخذت الى الآستانة أناساً كثيرين لتستطلع منهم سر الجمعية وما يتعلق بوجودها . فلم تقف منها على عين ولا أثر . وسافر (أورمانيان) الى الآستانة وبقيت الحكومة بين الشك واليقين فى التصديق بوجودها . وانما أسست هذه الجمعية بباريس وولى رئاستها رجل من رعايا الدولة الروسية اسمه (نظريك) ثم جعل فرع تابع لها في أرضروم .

وقد الفت بعد هذه جمعية (طروشاغيان) أو (طاشناقساغان) فى (جنيف) . واذ كان أكثر أعضائها من الارمن التابعين لروسيا ، لم تكن محلا لثقة اخواننا من الارمن العثمانيين . وهذه الجمعية تميل أيضاً الى مذهب الاشتراكية . وهناك جمعيات أخرى لا أعلم من أحوالها ما أوثره بالذكر فلا

أرى مندوحة للخوض فى أعمالها .

الحرج يعلم الحيلة وتوالى العقاب يستولد البغضاء ولو كان عدلا . فكيف به اذا كان ظلما ودوام الاساءة يحول دون استعادة الصفاء . هذه ثلاث قضايا ضرورية فرغ العقلاء من التخالف فيها . لما حقت على اخواننا المظلومين ، عملت جمعياتهم بفحواها . وفى سنة ١٨٩٠ قامت جمعية (خنجاق) بواقعة (قوم قبو) وهى براعة الاستهلال فى النهضة الأرمنية . وفى سنة ١٨٩٦ قامت جمعية (طاشناقساغان) بواقعة البنك العثمانى . كلتا الواقعتين وقعت فى عاصمة الملك العثمانى لتكون بمشهد من أعين سفراء الدول وبحضرة عبد الحميد . أرادت الجمعيتان الأرمنيتان أن تعلما حكومة الاستبداد أن الشعب الأرمنى نفض عنه تراب الذل وأنه يأبى الاستمرار في طاعة كلما تكلف . فجاؤا لسائر اخوانهم العثمانيين بمثال من النخوة كان يجب أن يحذوا على منواله . غير أنه لم يقرعينا بذلك سوى فريق من رجال الحرية أضجرهم الظلم . أما الباقون من المتعصبين والجهلاء ومن أسعدهم الاستبداد وعلت أقدارهم فى دولته . فقد أغضبهم ذلك وأقبلوا بجموعهم يقتلون الأرمن . فكثرت المذابح وحمى الوطيس بين العنصرين المسلم والارمنى بعد أن كان الأمر بين الارمن والحكومة وذهب كثير منهم غدرا اذ لم يكونوا من جمعية من الجمعيات الثائرة ولا ممن شاركوهما فى أمر من الأمور .

فلما وقع القتال بين هذين العنصرين العثمانيين زاد اكلاهما بعداً عن صاحبه ونبتت بينهما الاحن . فعلم الأرمن أن لن يكون مقام رغد فى البلاد العثمانية وعدوا أنفسهم غرباء فيها . فكان منهم المطالب باحياء دولة (أرمينيا)

ليعيشوا فيها منفردين. وكان منهم من يؤثر الصبر ليرى ماسيكون من عاقبة البغي. وكان منهم من يحب الهجرة الى أمريكا وأوربا تاركا وراءه وطنه واخوانه، يأساً لاهجراناً وفراراً لاتحولا. فأدى ذلك وما تلاه من تعمم القتل والسبي فيمن هم بالاناطولى من الأرمن الى توسط الدول الاوروبية وطلبها من الحكومة المستبدة كف أذاها عن المسيحيين وانفاذ ماتعهدت به للدول من الاصلاحات. فلم يجد كل ذلك نفعاً. وجملة ماحتال به عبد الحميد على الحكومات المتمدينة حتى خدعها تنصيبه لبعض ولاة الاناطولى معاونين من مسيحيين ومسلمين وفتحه باب الهجرة لمن يريد (ترك التابعية) من الأرمن. وهو أمر يراد به ظاهره دون حقيقته. فكم رأيت جماعة من الأرمن يطرقون أبواب الحكومة طالبين الاذن بالسفر الى أمريكا، فيطالبهم رجال الحكومة بما يكون عليهم من جزية ومال. فاذا فعلوا ذلك كلفوهم اثبات براءتهم مما عساه يكون صدر عليهم من حكم وأعيق عن الانفاذ أو لم يكن انتهى من المحاكم. فاذا كان هذا طالبوهم بضمان على أن لايعودوا ثانية الى الأقطار العثمانية. فاذا جاؤا بذلك الضمان أمروهم أن لايدعوا ورآءهم مالا ولا عقاراً ولا أهل قرابة وأن يدعوا فى دائرة البوليس صورهم الفطوغرافية ليعرفوهم بها اذا عادوا. وبعد هذا العذاب الطويل يسمعون من وقاحة المأمورين وشتمهم وانتهارهم ماتندى له الجباه. ثم لاسبيل الى انجاز شيء مما سبق ذكره الا اذا جاء المهاجرون بالدراهم وبذروا فى الحباء تبذيرا.

ولربما خرجوا مسافرين ومعهم نساؤهم وبناتهم فتتلاحق بهم خيل اللصوص ويحيط بهم جماعة من السفل فيصيبهم من مكروههم مايعيقهم عن

الخلاص. وويل لهم ان رجعوا يومئذ مستصرخين بدل الحكومة أو طالبين خلاص من سبي منهم . اذن تقوم عليهم القيامة ويعظم الخطب . وقد صدق أحد شعراء الحماسة اذ يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذن لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لي بهم قوماً اذا ركبوا ... شدوا الاغارة فرساناً وركبانا

من الوقائع ما تروع القارىء وتستطير لبه . فكيف بكاتبها وهو يتكتم منها ما لا يقوى على تسطيره طوراً رحمة وطوراً حياء . والأنباء الآتية من الأقطار البعيدة يحسبها البعض مبالغاً فيها ويحسبها البعض مختزلة ، ولكن الذين يظنون بها المبالغة أكثر . فمن سمع في سائر البلاد ما نزل بالأرمن من المصائب قال هذه من مكر الأرمن ولم يشأ تصديقها . ثم هناك أناس يقولون لنا ان الأرمن أعداء لنا ويزعمون أنهم هم المعتدون دائماً وأن المسيحيين لا يخلصون للمسلمين وداً ولا يصفون لهم سريرة . وينعتونهم لنا بالكافرين وأهل النار وغير ذلك من كلام الجهل والجنون ، وبسطاؤنا يصدقون هذه الباطلات حسن ظن منهم بقائليها ولبعدهم عن مواضع العلم وفهم الحقائق .

فاذا ذكرت لهم تلك الفظائع لم تهز منهم موضعاً من قلب . ومنتهى انصافهم أن يقولوا ان الأرمن جنوا على أنفسهم .

هـذا كلام قد يعذر عليه الجاهلون من السوقة والمحرومون من نعمة العقل ولـكن ماعذر جماعة من المؤلفين وأصحاب الصحف ورجال الرأي اذا قالوا ذلك . أما والله وددت أن اطاوع القلم فى جماحه ولـكن أخاف مأثور القول .

المذابح الأرمنية التى كانت بالآستانة وبغيرها من أقطار الأناطولى ذكرت فى حينها . فمنها ما جاء مفصلا في الجرائد وطيرها البرق فى روايات مختلفة ومنها ما كتب فى رسائل خاصة بها . والتزام الايجاز فى هذا الكتاب يمنع استعادة ذكرها . غير أن هناك أشياء قد لاتكون ذكرت بل ربما كانت خافية عن كثيرين ممن يستقصون مثل هذه الوقائع ، أذكرها لتكون أمثلة لما كابده اخواننا المظلومون . وهـذه النوادر أرويها عمن شهدها ممن عرفتهم بسيواس .

لما اتصل بأهل سيواس ماجرى للأرمن . افترقوا فريقين . فأما فريق المسلمين فأخذ يتأهب لمحاربة الأرمن اذا بدر منهم اعتداء عليهم وأما فريق الأرمن فذهب خاصتهم الى جماعة من الأجانب يسألونهم ان كان هناك مايخيفهم . فذهب هؤلاء الأجانب الى خليل رشيد باشا والى سيواس اذ ذاك واستطلعوه جلية الأمر . فقال لهم ان الأمن معتدل فى نصابه وأن لاخوف من وقوع أمر جلل وأنه ساهر لتنام الرعية . ثم شاع بين المسلمين ان الأرمن على أهبة دائمة وزعم جماعة من الرعاع أن أرمنيين أبصروا أربع سيدات

مسلمات فى الطريق فاعترضاهن وقالا لهن غداً نقتل رجالكن ونتخذ بعضكن ساقيات وبعضكن ولائد . فزاد ذلك من حقد المسلمين والأرمن لا يعلمون شيئا مما يقال عنهم من هذا القبيل . غير أنهم باتوا يتوجسون خيفة حين بدت على المسلمين امارات الغضب والفتوا عنهم الوجوه . وما مضى بعد ذا طويل زمن حتى قام المسلمون وأعملوا فى الأرمن القتل والفتك ودخلوا بيوت التجارة وأكثرها فى بناء عظيم اسمه (طاش خان) ، أبوابه من الحديد . فما زالوا يضربون تلك الأبواب بالمعاول ويرمونها بالرصاص حتى انفتحت لهم . فما تركوا هنالك شيئا . وتلاحق الجنود والوالى يصيح بدار الحكومة ليكفوا وهم لا يكفون . وبعد قتال دام يومين ، كفت المذابح . ومما تقشعر منه الابدان أن بعض أولئك الوحوش كانوا يذبحون من عثروا عليه من الأرمن بالمناشير . وقد رأى قوماندان الردیف الفريق محمد خلوصى باشا الذى توفى منذ عامين أناساً من المعتدين أحاطوا بأرمنى وكان يصنع له أحذيته وله قبله دين لم يوفه . فاستجار الأرمنى بالقوماندان وقال يامولاى عبدك يقتلونه ولا ذنب له . مرهم بحق مروءتك أن يهبوا حياتى لأولادى الصغار . قال القوماندان أنت كافر واولادك كفرة وأشار الى من أحاطوا بذلك المسكين ان يجهزوا عليه ففعلوا . وقد انتهز السفل هذه الفرصة فاختطفوا البنات ونهبوا المال نهباً لماً .. فترى اليوم أكثر تجار الأرمن وقد أصبحوا لا يملكون قوت يومهم وأثرى بمالهم المنهوب غيرهم من اللصوص فأمسوا من التجار .

ولو كان المسلمون أنصفوا إخوانهم المسيحيين بل أنصفوا أنفسهم

واتحدوا فى القيام يداً واحدة على الحكومة المستبدة لنالوا حريتهم منذ أعوام مديدة ولاستبقوا محبة اخوانهم .

نعم غضب الأرمن من المسلمين عامة ومنا معشر الترك خاصة ولا يبعد عن العقل أن يكونوا اتفقوا بينهم ان يتخذونا أعداء . فاذا صح ذلك فهو أمر حادث ولكنهم لم يكونوا كذلك . فياطالما بكوا لبكائنا وشاركونا فى ضرائنا ومنعناهم أن يشاركونا في سرائنا . وكانوا يظنون أننا شركاؤهم فى التشكى من استبداد المستبدين فرأونا صاغرين لا تأتى حراكا ولا ننطق بلوم . ثم لم نبت أن خضبنا الأكف بدماء نحن أحوج الناس الى حقنها .

كثير من الأرمن تركوا جمعياتهم وشاركوا أحرارنا وقالوا نحن عثمانيون فلتكن رغائبنا عثمانية وخالفوا بعض القائلين من أبناء جلدتهم باحياء (ارمينيا الجديدة) وقالوا هذا محال ولو كان لما أفاد .

فمن فضلائهم الذين فقد منهم العثمانيون دعام مجد رفيع وسيف نجدة ماضى الغرارين ، الشاعر الاديب الفاضل المرحوم (ناربى لوسينيان). مات فى سنة ١٨٩٤ مسموماً . هذا النابغة هو من رجال الرهبانية وله آثار تفتخر بها الأوطان . كان صادق النية حر النزعة عثمانياً جسما وروحا . ولكن استكثره عبد الحميد على العثمانيين كما استكثر غيره فسقاه الردى وأسكت يراعا نحن أحوج العباد الى صريره .

كفى كفى . ولنختم هذه الصحيفة السوداء وليكفنا منها أن ستشهد بها علينا الايام . فاذا قرأها العثمانى الصادق فليتخذها ذكرى وعبرة واذا قرأها غير العثمانى فليثق ان هنالك ناقمين كثيرين مثل كاتبها . واذا التقى حر يتيم

من أيتام هذه المذابح وقال انا ابن من ذبح بالمنشار ، أو رأى فتاة فى أسرة لابسة سواداً كنجم الثريا يبدو فى الظلام وقالت أنا بنت من طعن فى فؤاده ، أو قرب مجلسه من سيدة أيم وكان محباً لزوجها وقال لها أين صديقى فلان فاغرورقت عيناها وقالت له قتله ابن عمك فلان ، فليطاطىء الرأس وليقل لابسن معكم ثياب الحداد ولأحمين عرضكم ولأكونن لكم أخاً ومعيناً مادمت حياً . واذا وقف على قبر قفر الجوانب في بلقع يغلى هجيره وتسفى الرياح عليه المور فليقل عليك السلام أيها الاخ الشهيد ، الأرمنى المظلوم ، نعم ماطلّ حيث كنت ولا وتر لك دم فلان جار عليك المتعصبون فلينصفنّ من بعدك الاحرار .

﴿ جرائد العثمانيين الأحرار بمصر وغيرها ﴾

عشق الحرية أضنى أفئدة العثمانيين وفى الغرب ناس كادوا يسأمون وصالها والعشق يصقل الفكر ويبرى اللسان ويسير الأقلام. وعلى قدر امتناع الشىء تكون الصبوة اليه (أعز شىء على الانسان مامنعا) . ولا غرو ، ان ابن ورقاء على فننه ، والريح فى هزيزها والماء فى خريره والشجر في حفيفه نعم والرعد فى زجله والليث فى زئيره كل ينشد الحرية . فكيف ابن حواء وفيه من كل مخلوق خلق مودع فى باطنه باد فى ظاهره .

عرفنا (هوميروس) فى (الياذته) وسمعنا (دانتى) يندب (بياترى) وفهمنا (شكسبير) من (روميو وجوليت) وقرأنا (غوطا) فى (فوست)

وسمعنا (هوغو) وهو يجهر (بالاصوات الباطنية) وتلونا ماجاء به (نامق كمال) فى (سلستره) وانشدنا مع (شوقى) قوله

صونى جمالك عنا اننا بشر * من التراب وهذا الحسن روحانى

فاذا كل يغنى الحرية وكل يناديها . وهل فى العشق مايستدر عبرة أو يصعد زفرة لولا امتناع الحرية .

مازالت الحرية ، منذ كانت ، تطرق باب كل فؤاد فيفتح لها ، حتى طرقت باب فؤاد عبد الحميد اكثر من ستين عاما فلم تقدر على فتحه .

الحرية طافت بلاد الله ، فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها . فلما طرقت تركيا اعتقلت فى سجنها (بيلديز) .

الاستبداد استنجد (فالاريس) و (نيرون) و (الحجاج) و (جنكيز) و (هلاكو) و (تيمور لنك) على الحرية . فهزمتهم معه وقهرته معهم . ولكنه حين استنجد عبد الحميد دام نصره عليها ثلاثا وثلاثين سنة .

لو لم يكن على وجه الارض أمم أخذوا الحرية من ملوكهم قسرا وان هذه الأمم تشارك عبد الحميد فى استنشاق الهواء لكان غير فان . فأما وقد نالت رعيته الحرية وأنفه راغم فلن تطول أيامه .

كريهان يؤذيهما طيبان . الجعل يؤذيه ريح الورد وعبد الحميد يؤذيه نسيم الحرية .

ولقد حكم عبد الحميد الأجساد ولم يحكم القلوب . اشترى طاعة بعضها برهبة بطشه والرغبة فى دنانيره وأبى عليه بعض القلوب ، وبذا هان عليها سلطانه وحقر فيها ذهبه . فخرج قوم عليه بأقلامهم حين دخلوا حصونا لا تنالهم

﴿ الشاعر الحر الشهير المرحوم ناربى لوسينيان ﴾

فيها أسيافه فقالوا فيه مايخلد مع اسمه خلود الدهر وفتحوا عيون الغافلين الى عيوبه . وما سكنت العاصفة التى عصفت بأنفاس (كمال) ورجال عهده الاهاجت غيرها . ولا حاجة بنا الى ذكر كل صادح وباغم فيتسع لنا الميدان. وحسب القارىء الكريم أن يلم بالأهم فيكفيه طلب المهم .

كاتبان من كتاب العهد الجديد من عهدى الحرية عليهما السلام. أحدهما جاور ربه وآسفاه وهو خليل غانم وثانيهما لايزال حيـاً والحمد لله وهو محمد قدرى .

فاما غانم فهو أبو المقالات الرنانة فى جريدة مشورت الفرنساوية وغيرها. جاهد جهاد لا وان ولا متخاذل واشتدت وطأته على الظالمين فطلبوه بكل حيلة وحاربوه بكل شر فما فتنوا له لباً ولا زعزعوا له جأشاً.

وأما محمد قدرى فقد كان يكتب فى «المقطم» جريده العثمانيين ويذيل مقالاته بامضاء « محمد قدرى العثمانى » ثم كتب فى جريدة « قانون أساسى التركية » وجريدة « القانون الاساسى » العربية . وهو صاحب الكتاب التركى المشهور الذى سماه « استنصاف » . حاول عبد الحميد ارجاعه الى الاستانه أو اسكاته فأعياه ذلك. وقد قال بطل الحرية (نيازى) فى (خواطره) التى نقلها الى العربية مؤلف هذا الكتاب ان كتاب (استنصاف) وغيره من كتب الأحرار فتحت قلبه وشددت عزيمته لخلاص وطنه .

ولقد ظهرت جرائد كثيرة فى أوروبا ومصر وأمريكا ، واتحدت كلها فى الحملة على حكومة الاستبداد والمطالبة بما للأمة من حق مهضوم . وأسس هذه الجرائد واشتغل بتحبيرها وافاضة الحكم فيها جماعة من نجباء العثمانيين وأولى الرأى والمنزلة الرفيعة بين فضلائهم . فمنها التى دامت على ولائها للحق وواصلت جهادها في سبيل الحرية غير مستضعفة فى كفاح ولا محجمة فى مزدحم . ومنها التى انقطعت عنها وسائل البقاء فسكتت وتركت صيحاتها ترن فى آذان الدهور .

وانى لذاكر فى هذا الفصل كل جريدة لم أنس مبلغ جهادها وتارك مالا أذكر وقائعها وأرجو أن لا يحسب ذلك منى سوى زلة زللتها غير مختار وهذه الجرائد هى .

(مشورت) التركية والفرنساوية . صدرتا فى باريس ثم صدرتا فى جنيف أنشأهما احمد رضا رئيس مجلس المبعوثان الآن .

(المشير) العربية أنشأها بالقاهرة واختص بتحريرها صاحبها صديقى القديم سليم سركيس .

(عثمانلى) أنشأها فى (جنيف) صديقى الدوكتور عبد الله جودت واشترك فى تحريرها مع المرحوم اسحق سكوتى ونورى أحمد وطونه لى حلمى .

(لسان العرب) كان يحررها المرحوم الشيخ نجيب الحداد

(بنتى) وجريدة (قوقوماو) وهما بجماعة من الأحرار لم يذكروا أسماءهما . وكان عبد الحميد لا يغضبه شىء مثل كلمة (بنتى) ومعناها الابله الذليل .

(النبراس) كان يحررها الفاضل الجاويش

(بصير الشرق) انشأها رشيد بك وكان يحررها مع الدوكتور اسماعيل ابراهيم . وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية .

(ييلديرم) ومعناه الصاعقة كان صاحبها ابراهيم ادهم .

(جورجونه) كان يحررها الشاعر التركى الشهير اشرف .

(سنجق) كان اصدرها احمد صائب . ثم استبدل اسمها فصيره (شورای امت) .

(ميزان) كان يصدرها مراد الطاغستانى بالتركية بمصر ثم اصدرها فى (جنيف) .

(امل) كان يكتبها المرحوم حسن فهمي .

(اجتهاد) أصدرها صديقي الدكتور عبد الله جودت بعد ان ترك جريدته الأولى (عثمانلى) وجاء مصر . وكانت تقبل ان يكتب فيها بكل لغة وهى منتشرة الى الآن .

(ترك) كان يكتب فيها الدوكتوران نجم الدين عارف المناسترلى وشرف الدين مفمومى .

(قانون أساسى) التركية و (القانون الاساسى) العربية كان يكتب فيهما الخواجه محمد قدرى العثمانى ومؤلف هذا الكتاب .

(الانذار) كان يحررها يوسف حمدى يكن شقيق المؤلف أيضاً .

وقد ظهرت بأوروبا وأمريكا جرائد جليلة القدر عظيمة الخطر مثل (كشف النقاب) التى كان ينشرها بباريس الاميرأمين ارسلان و (كوكب أمريكا) و (الايام) وكلتاهما صدرت بامريكا .

كل هذه الجرائد طالبت حكومة الاستبداد بحرية الامة وشدت فى ذم ظلم عبد الحميد ودعته الى الانصاف وخاطبت العثمانيين فى الانتباه الى ماهم صائرون اليه . فطاردها الظالم مطاردة من لايعرف السأم وأكثر من اتخاذ الجواسيس وجعل المراقبة الشديدة على البريد وبالغ فى منع هذه الجرائد من الدخول فى البلاد العثمانية لكى لايقرأها أفراد الامة فيتنبهوا الى أعماله ويكونوا مع الاحرار يداً واحدة عليه . ثم حاول أن يستغوى من يكتبون الصحف وان يستجلبهم بالمال وتمكن من نيل مأربه مع البعض منهم ولم ينجح مع الآخرين .

أما (مشورت) فكانت من حزب الاصلاح الدينى ومثلها (ميزان) . فان صاحبيهما ما استعانا على عبد الحميد الا من الوجهة الدينية . و (القانون الاساسى) كذلك . وسبب اتخاذها هذه الخطة انه لم يمكن مخاطبة العثمانيين الا باسم الدين وآسفاه .

أما (عثمانلى) و(اجتهاد) و(المشير) فكانت جرائد من الطبقة الأولى . وقد سبقت لى مناظرات مع صاحب (المشير) قبل دخولى فى فريق المطالبين بالحرية ، أظهر فيها من قوة الحجة وحسن البيان وشدة النفس ما خيل لكثير من الناس أننا أعداء وما كانوا يعرفون اننا نقضى أكثر أوقاتنا معاً على أحسن مايكون من الاخاء . وسليم سركيس رجل يندر مثله فى رجال الصحافة . وكانت جريدته محبوبة عند أولى الذوق السليم مطلوبة من ذوى الادب والظرف . لان صاحب (المشير) كان يتخير الفصول ويجيد الكلام . فما ظهر عدد من جريدته الا رأيت فيه كل مايطيب للنفس ويخف على السمع . وانه لشهم جرىء اذا جاءه وعيد زاد اقداما وان سيم فى ذمته أعرض عن النفائس اعراض الكريم . فهو من أنصار الحرية الذين يفتخر بهم الوطن . هو صحافى منذ أكثر من عشرين سنة يشهد له (لسان الحال) و (المشير) و (المؤيد) و (مجلة سركيس) . ولقد عانى من طاردة الحكومة المستبده مالا يصبر عليه سواه . بعثت وراءه من يغتاله قتلا فسلمه الله من شره وطلبته من الحكومة المصرية فكانت قلامة ظفره أمنع من عقاب الجو . وقد سجن مرتين فلم يزده السجن الا رفعة في عيون الفضلاء

والسجن ان لم تغشه لدنيئه سوآء نعم المنزل المتودد

وأما (ميزان) فان صاحبها مراداً رجل له علم بالتاريخ وهو معدود من الطبقة الثانية من الكتاب . جاء مصر وللناس فيه ثقة وللحكومة العثمانية منه وجل. فكانت (ميزان) كالصاعقة المنقضة على رأس عبد الحميد ، منعته الكرى وكادت تفلح فيما تسعى اليه . دعا عبد الحميد ناظم باشا ناظر الضبطية . اذ ذاك الى قصر (يلديز) وقال له :

— ما أكبر ذنبك وما اصغر همتك . أمرتك أن تطارد كل من يقرأ (ميزان)، والتقارير تأتيني بانها تجيء الى فلان والى فلان . اكذا طاعتك لسلطانك؟

قال ناظم :

— يشهد الله والناس بما أجد في مطاردة (المفسدين) ولكني لا أدري ما أصنع . وكلما أمرت رجال الشرطة بالانتباه وادمان النظر في ذلك وجدت نسخ (ميزان) في جيوبهم وخرج ناظم وهو كاسف البال ضائع الرشد .

غير أن مراداً كان معجباً بنفسه متكبراً دائم الازدهاء لا يدين للحق فلم يحسن البداية ولا النهاية .

ومن الجرائد التي عوضت ماخسرته الامة بفشل (مشورت) التركية وخيبة صاحبتها ميزان. جريدة (عثمانلي) سابقة الذكر. وقد كان تأسيسها في سنة ١٨٩٧ . ثم تلتها اجتهاد ولغتها تركية وكانت تقبل كل مقالة تأتيها باية لغة كانت . وصديق الدكتور عبدالله جودت هو مؤسس (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) وسكرتيرها . وانه لمن الفضلاء الذين يزينون عقد الحرية. ماشئت من أدب رائع وخلق مطبوع ونفس صريحة وعقل راجح وضمير لم يتطرقه الرياء ولم تهتد اليه الاهواء . حرّ متناه في حريته. يقول الحق ويعلم

انه ضائره فلا يبالى عاقبة ولا يخشى حسابا .

و (القانون الاساسى) كان له شأن يذكر. ففيه سيرت هذا القلم مجاهداً وقلت لعبد الحميد (فلأهزن به أركان قصرك هزاً) فلم تدعنى الايام أصدق وعدى وأقوم بوعيدى وهزت (يلديز) وأمالت عماده قنابل الأحرار . فاذا كان دوى رعودها رجع ماصرت به الاقلام فالحمد لله ولا فخر . وان كانت منبعثة من أفئدة أمة أجملت الصبر حتى تنفست عن البارود فالفخر أعظم .

وجريدة (الانذار) التى كان يكتبها شقيق يوسف حمدى يكن كان لها دور وله شأن . فكم بالقصور من أعداده ، جمعت من (العتبة الخضراء) ورفعت الى العتبة العلياء . واذكر هنا منها هذه الابيات التى قالها صاحب الانذار فى العدد الرابع الصادر فى سنة ١٣١٧ وفيها اشارة لا تخفى على اللبيب قال :

اذا صحا النائم من نومه ... وهم ذو الهمة في يومه
عادت لنا أيامنا مثل ما ... نرجو وعاش المرء فى غنمه
ياقوم هبوا هذه رقدة ... طالت وذو الاثم على اثمه
حكم رشاد الدين مقصودنا ... وانما الاقبال فى حكمه
فليحتكم هـذا وظلامنا ... أراحنا الرحمن من ظلمه

كانت هذه الصحف حجة على الغرب تدحض ما يتهم به الشرق من خمول واستسلام للظلم . كان الشعب العثمانى يئن فتكذبه ملوك أوربا وساستها الذين اشترى قلوبهم عبد الحميد بمال الرعية . فيخطبون على منابر المتمدين بما

يعظمون به الظالم فى عيون من لا يعرفون ظلمه ، وهذه الجرائد تقول لا ولئك العظماء انتم غير صادقين وتبين لهم وجوه ظلاماتهم مستندة فى دعواها على الظاهر من الأعمال دون الخفى . ثم كان لأصحاب الصحف العثمانية الحرة احبة وأعوان يحتالون فى ادخال تلك الصحف فى الأقطار العثمانية بوسائل دقت عن افهام المراقبين والجواسيس . وكانوا يطلعون عليها كل من يأمنون جانبه ولا يخشون منه وشاية من خلطائهم فتحدث أقوالها الحقة فى نفوسهم مالا يحدث الغرام وتلعب بألبابهم كما تلعب بها بنت الكرم . وبذابات الأكثرون من عقلاء العثمانيين متحدين قلوبا وآمالا . متواطئين بلسان الحال على احتقار العصر الحميدى .

ويشهد الله وكل محب للحق أن اخواننا العرب ، لاسيما مسيحى السوريين منهم كانوا أشد الناس ضجراً وأعظمهم أنفة من احتمال الذل . فهم الذين تاقت نفوسهم الى الفضيلة العصرية من ورآء حجب الاستبداد ، فأقبلوا على مصر وعلموا اخوانهم المصريين انشاء الصحف واتخاذ المطابع واحتراف الأدب العصرى واصطفاء الحرية . هذا مع أنهم محرومون فى بلادهم من التمتع بمثل هذا النعيم . غير أن حب المعالى فى أكثر النفوس طبع لا تطبع والا فمن علم الطير ترجيعه ومن وهب البلبل حب الورد ؟ ولما طال عليهم احتمال الضيم هجروا أوطانهم وضربوا فى أقطار الأرض يجوبون قاصيها ودانيها ، يحلون من منازلها آهلها وخاليها ، أعوانهم عزائمهم وبضاعتهم عقولهم . فحيث عثرت جدودنا انتهضت جدودهم . فكان (المشير) وهو جريدة أسبوعية ، صاحبها غنى علما فقير كيساً ، منتشراً كجريدة يومية . فتذهب نسخه

البرازيل وفيلادلفيا وسائر أقطار أمريكا وأوروبا وآسيا . والبلاد العثمانية كان يدخلها في غفوة من أعين الرقباء . وكان يراسله بعض الأعالي من رجال القلم ورجال الرأي ممن لا أصرح باسمائهم اذ لم أستأذنهم في ذلك . وما لبث المشير أن أعاش صاحبه وعاش بفضل صاحبه .

وجرائدنا التركية لم تدم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس كثيرون يقرأون اللغة التركية والذين يقرأونها أو يفهمونها من الأتراك الذين استوطنوا مصر من الازمان السالفة لا يهمهم من السلطان الا كونه سلطانا . وهم يعتقدون أن لا حق للامة في مشاركة الملوك في أعمالهم وان الرعية عبيد للملوك أمروا بالطاعة لهم وان ظلموا والشكر وان أساؤا . يتحدثون بذلك في مجامعهم وبايديهم السبح وأمامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصونها حتى تستطلع حبابها . يؤتى لهم بالشاى منقوعا وبين يديهم جماعات من المشايخ منهم المدعون لعلوم الكيمياء القديمة ومنهم أولياء الله الناطقون بالغيب (بالسريانى) ومنهم المتصوفون من اتباع الرفاعى والكيلانى ومحي الدين العربى والبكطاشى والمولوى ومنهم أئمة الشرع ورواة الأحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يكفرون الأحرار ويدعون لعبد الحميد ويعدون أنامل أكلت أطرافها حبات السبح يجرون بها دراهم أعوانهم عدا بطلا وجشعاً ولؤماً كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الحاج السيد الشيخ زيد مثلا وهو لابس عمامة كأنها كيوان وفي يده عصاً كأنها عمود الصبح وعليه جبة خضراء كأنها ملاءة الربيع وفي رجله خفان أصفران كأنهما سفينتان

من النحاس الأصفر وفى عنقه سبحة هى أطول من ألفية ابن مالك ، ثم يصدق ما جاء به سليم سركيس وهو رجل مسيحى ما قرأ على شيخ ، أو يؤمن بما يقول به غيره من أحرار الترك والعرب وهم متعلمون فى أوروبا أو البلاد العثمانية على معلمين أتوا بهم من أوروبا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال أكثرهم متمسكين بتلك الآراء القديمة . فأحر بأولئك العثمانيين المقيمين وراء جبال الأناطولى أن لا يعرفوا من الدنيا الا مقدار ما يرون فى بلادهم . كل هذه المصائب كانت عوائق دون نجح المجاهدين من الأحرار .

قلت ان صحف المجاهدين كانت تنتهى الى من يقرأونها من أنصارهم فى غفلة من عيون الرقباء ولم يكن ذلك دائما . فكثيراً ما وقعت بأيدى قوم من الكاشحين تسابقوا بها الى قصر الملك وأسلموها الى حملة العرش وأسلموا من جاءت من أجله الى الزبانية الموكلين بتعذيب العباد . فألقى منهم فى البحر من القى وسجن من سجن ونفى من نفى . بلى ربما تذرع قوم الى نيل أمانيهم باتهام آخرين زوراً وبطلا وادعائهم عليهم بأنهم يراسلون أصحاب (الأوراق المضرّة) أى الصحف الحرّة . فباؤا بالهبات والوسامات والرتب . وقد فتح هذا الترغيب باب التنافس فى مصريين من يحبون الرتب والألقاب من سراتها وأغنيائها فتزاحموا بالمناكب عن ابتياع ما ينشره الأحرار من الجرائد والكتب ، يجعلونها فى صناديق عليها أقفال من الحديد يرسلونها الى القصر الحميدى أو يستصحبونها معهم ليتقدموا بها الى معبودهم الفانى . ورأى ذلك بعض السفل فتشبهوا بالأحرار فى انشاء الصحف وتأليف الكتب . ولقد

كان أكثرهم لا يعرف الكتابة فيستكتب غيره بأجر يسميه له . وعشاق الرتب يجزلون لهم العطاء ويكتبون الى القصر السلطانى أنهم ساعون فى اسكات المفسدين اعداء « أمير المؤمنين » وأنهم استرضوا فلاناً وسيرتضون فلانا .

ومما ينبغى ان يدمج فى كتابى هذا ليتلوه أخلافنا على ممر الدهور ، أن دار الامارة المصرية كان لها فى هذا المعترك راية القائد . فقد سال منها النضار حتى فاض عن الأكف وعلق بالأقدام . وكم من بريد بين مصر وفروق يروح واحد ويغتدى واحد وكم من رسائل وسفراء أحسنوا البلاغ وانقلبوا فائزين . يارب صندوق ترى ظاهره فتخال به ذخائر وتحفاً وهدايا مما يهدى به الملوك وما حشوه الا أوراق مشتراة غلب عليها كاتبوها أو أخذت ممن لا يحرص عليها لولا الخير المفاض .

ومن أجل هذا قامت الحرب عواناً بين الامارة والأحرار كما سيجىء خبره فى الفصول الآتية واشتد النزاع .

وبينما تدور هذه الأدوار اذا بأنور ونيازى بطلى الحرية وغيرهما من حماة حقيقتها وخلصانها يتدبرون ويفكرون . واذ كانوا تورثوا من نامق كمال وفضلاء زمانه قليل كتب وأخبار . بعثت نجدتهم وحشحشت نخوتهم جاءتهم هذه الصحف الحرة كالأدوية للمرضى . ولكنها شفتهم من داء الخمول وابتلتهم بداء العشق ، عشق الوطن وهو أقتل للأجساد وأحفظ للنفوس .

قد استشفيت من داء بداء وأقتل ماأعلك ماشفا كا

﴿ فرار مراد الطاغستانى ﴾

« من الآستانة الى مصر وسبب ذلك »

مراد رجل من أهالى طاغستان . هاجر من بلده قاصداً الى عاصمة السلطنة العثمانية وهو فى مقتبل عمره وعنفوان شبابه . لايملك من الدهر الا همومه ، يزجى راحلتى الفقر والأدب . وما كان الأديب صفة بل كان الأديب رغبة .

كان قدومه الآستانة فى صدارة المرحوم (محمد رشدى باشا المترجم المعروف بالشروانلى) فى نحو سنة ١٢٩٣ . فلاذ بركن هذا الصدر واحتمى بجاهه وأقام ببابه وأكب على طلب العلم ما استطاع له طلباً . فأصاب منه حظاً غير قليل ونظر فى التاريخ فأحاط به علما واشتغل بالأدب فأجاد الكتابة حتى أنه ليعد من رجال الطبقة الثالثة بل الطبقة الثانية أقرب اليه . وجملة مايجوز أن يقال فيه أنه بعد أن أبطل له عبد الحميد جريدته (ميزان) التى كان يصدرها بالاستانة بسبب رثائه للاديب الاعظم نامق كمال . أدخل فى نظارة المعارف ثم أخذ يتدرج فى الترقى حتى انتهى الى وظيفة (قوميسير الديون العمومية) براتب شهرى لايقل عن المائتى ليرة . ولم يكن بعاصمة السلطنة العثمانية من يجهل شهرة مراد ولا من لا يثنى على حريته ويعجب ببيانه . وألوف من تلامذة (المكتب الملكى) أقاموا على تمجيده واطرائه اذ قرأوا عليه التاريخ وعرفوا منه أحوال من سلف من الأمم وعرفوا من كتابه

الذى ألفه لهم فى هذا الباب مترجماً أكثره من اللغة الروسية ما أتاهم بأجزل الفوائد .

ولقد نال مراد من اقبال عبد الحميد عليه وعنايته بأمره مارفعه فوق كثير من نظرائه والراجحين عليه . حتى خال العامة من العظماء أن قد حان لمراد أن يولى الصدارة .

فلما كانت المذبحة الأرمنية التى وقعت فى سنة ١٨٩٤ نقمها مراد فيمن نقمها من العثمانيين الأحرار ورأى الملك العثمانى رهينة مهالك لا تسهل تفديته منها . فكتب لائحة مطولة أبان فيها ضجرة العقلاء وسخطهم ولام السلطان لوماً لا يجرأ عليه كل امرىء ورفعها اليه وتحتها توقيعه وخاتمه . وكان مراد حمل لائحته الى قصر عبد الحميد ولم ينفذها مع أحد . فدفعها الى من دفعها اليه وقال له اخبر مولانا السلطان أنى مقيم هنا ببابه على انتظار ماتقضى به ارادته ويروى البعض أنه مثل فى حضرة السلطان فلقى عتابا رقيقاً خاف على نفسه عاقبته وأيقن أن عبد الحميد لا يتركها له وأنه اذا عاتب انساناً عاتبه فى حياته وضربه فى عمره . فخرج من بين يديه وهو غير آمل أنه ملاق أهله فما انتهى الى باب القصر الا تنفس تنفساً كادت تتصدع له أضالعه . فأسرع الى بيته واشتغل ليلته بأتخاذ أهبته للسفر . فما أشرق الصباح الا ودع أهله وبنتيه وخرج متنكراً لائذاً بالهرب وسهل الله له أسبابه . فما أحس به أحد ولا علمت الحكومة المستبدة بهربه الا بعد أن أجاز ساحة سلطانها وبعد عن أيدى أعوانها .

ماخلت أن عبد الحميد وجد بفرار أحد من العظماء ماوجد بفرار مراد .

وذلك لأسباب منها مكان مراد بين رجال القلم وشهرته التي عرفه بها الخاصة والعامة وكثرة تلامذته وهم بلا ريبة على رأيه ووظيفته التي عرفه فيها كثيرون من الأجانب وأنها وظيفة ذات شأن في الدولة العثمانية ثم وقوع هربه في زمان اشتداد المشكلات بعد المذبحة الأرمنية . وقد قرأ عبد الحميد لائحته وعلم أن مراداً يعرف أشياء اذا هو وصفها ببيانه المألوف وأذاعها بين الناس أفسد على الظالم سياسة ظلمه . فانقد الجبار غيظه وسقط في يده .

أما العثمانيون فذهب كل جماعة منهم مذهباً واختلفوا في ذلك أقوالا وآراء حتى لقد كان فيهم من ظن أن عبد الحميد أنفذه سراً في حاجة يقضيها له في البلاد الأجنبية وأنه تواطأ مع مراد على أن يكون سفره هربا مبالغة منه في حفظ السر وكتمانه . الا أنهم عرفوا خطأ زعمهم بما رأوه من مطاردة السلطان حتى لمن كان يعرفه معرفة غير صميمية . فتفرقوا الى فريقين فريق يرى أن مراداً كافر نعمة وأنه خائن وأنه مدفوع الى عمله هذا بيد عدو في ثياب صديق . وفريق يرى أن مراداً قام بما يجب عليه نحو وطنه وأن مثله بعيد عن أن تستهوى لبه المطامع وأن تستغويه الأهواء.

وأما الأجانب فقد أعجبوا بمراد وواقعته أيما اعجاب واعترفوا أنهم كانوا أساؤا الظن بالعثمانيين حين وصفوهم بالاذلاء الاغبياء الذين تتهلل نواجذهم كلما وقعت سياط المتغلبين على ظهورهم . وكان أكثر الناس فرحا وابتهاجا أصدقاؤنا الانكليز . فان فيهم من وهبه المال الجزيل عن طيب نفس وذلك الواهب الجواد هو ادارة جريدة (التيمس) المشهورة على ما يقال.

﴿ حال الأحرار وجمعياتهم ﴾

« بعد هرب مراد من الآستانة »

ماوطئت قدم الطاغستاني أرض مصر الا ابتسمت ثغور الأحرار وانتعشت أرواحهم وتجددت آمالهم . فالتفوا حوله وحشدوا تحت رايته ورضوه لهم زعيما ولمذهبهم اماماً ولكتائبهم قائدا . وقالوا هو الصمصامة المضب لاتفل مضاربه ولا تقى دونه السابغات . ولما رام الكلام سكت لديه المتكلمون وأوسعوا له من مكان الأستاذ فظهر ولسان حاله يقول .

لقد علمت قيس بن غيلان أنني * اذا قلت (أما بعد) أني خطيبها

فصدر المدد الأول من (ميزان) باللغة التركية يقل معاني كالوحي في ألفاظ كالرسل، تتلى على الظالم فيخشع لها قلبه وتزور جوانبه . ونقلت بعض الصحف الكبيرة في مصر وغيرها فصولا كثيرة من فصوله وكاد يتعزى الاحرار بمراد عن كمال وبدا الخذلان في جانب من يعارضون الأحرار ويكذبونهم (وكنت أنا من الفريق المخذول) . وجاءت الرسائل برقية وغير برقية تطالب فيها الحكومة العثمانية الحكومة المصرية باعادة مراد الى الآستانة أو طرده من مصر أو عدم الاذن له باصدار جريدة فيها . فلم ينل عبد الحميد من لجاجه سوى الفشل وسوء المصير والفضل في ذلك للورد كرومر حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم .

وقد كان في ادارة جريدة (القانون الأساسي) خاتم منقوش عليه

باللغة التركية هذا الكلام: (عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى) ومعناه (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) . كان الأحرار يكتبون أوراقا فيها وعيد وانذار ينفذونها الى قصر عبد الحميد ليغيظوه وينغصوا عليه أيامه . وكم ورقة أرسلت مختومة بهذا الخاتم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت. انخلع لها فؤاده وقضى بليلة سليم لا تبرئ أوجاعه رقى ابى الهدى ولا تمائمه . وانما حفر هذا الخاتم ليكون للجمعية التى كان يراد انشاؤها بمصر تابعة لجمعية (الاتحاد والترقى العثمانية) المؤسسة اذ ذاك بباريس . فسافر مراد الى اوربا وبقى الخاتم مهملا بمصر . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان استنبط فى زمان الطاغستانى وأنه لم يكن لجمعية الاتحاد هيئة تابعة بمصر الا قبل اعلان الدستور ببعض السنين .

أسست جمعية تركيا الفتاة برئاسة مراد فلم تعمل عملاً يذكر . لأن مراداً كان قؤولاً ولم يكن فعولا . وانه ليبدو له الصواب فى رأى رآه غيره فلا يقره بل يجهد نفسه فى جرحه ورده أنفة منه أن يكون لآخر عليه حق التقدم في فضل . سجية تلك فيه لا يستطيع النزوع عنها . فلما انتظمت جمعيته أحب الاستبداد بالأمر ولم يرض أن يكون لغيره كلمة مسموعة . وكان اذا هم بعض الاعضاء ببيان رأى يراه فى عمل من الأعمال قاطعه وأومأ اليه بكفه يأمره بالسكوت . وبذا جانب كثير من الأحرار مراداً وشيعته ورابهم أمره وحذروا تقلبه . على أن الأحرار كبروا فى أعين الناس وبدت على أعمالهم بشائر الفوز واتخذهم عبد الحميد شغله الشاغل وهمه المبرح فسهر الليالى لكيدهم وتدبر الحيل للايقاع بهم وأحس من نفسه العجز عن الاستمرار على عداوتهم ولو دام لهم ذلك الصبر والجهاد لنالت الأمة العثمانية حريتها

من منذ ذلك العهد .

هذا والاجانب عن أعمال الأحرار كانوا يسمون حزبهم حزب (تركيا الفتاة) وكان العثمانيون يدعونهم بحزب (الژون ترك) أى الترك الفتيان . ولم يكن لاسم (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) شهرة ذائعة تستر عى الاسماع وتملأ القلوب الا فى أواخر أيام الاستبداد حين أخذت تخاطب الحكومات وتجهر بعداوتها للحكومة الحميدية .

على أن مراداً لم يحسن العمل الا فى انتقاد الحكومة المنقلبة . فقد أجاد فيما كتبه كل الاجادة وأخرس مناظريه . فكان الفضل فى كل عمل وان جل ودق راجعاً الى مراددون رجاله وأنصاره وكان عالم العثمانية مطوياً فى شخصه . فلما فاز هو فاز حزبه ولما هزم هزموا معه . وليس من الصواب أن أقول هزم فقد كان فى مأمن من الهزيمة ولكن غلبه اليأس بتمادى الاجتهاد وأضجره طول الاغتراب وتجدد حنينه الى الأهل والسكن ثم ربأ بكبره أن ينازعه فيه منازع . فقيل له فى العودة الى عاصمة الملك العثمانى وهو فى تلك الحال فأجاب بالرضى وأسلم نفسه وأنصاره وانقضى أمره .

﴿ وقع ما كتبه الأحرار ﴾

« على دوائر الظلم بالآستانة »

لم يهمل عبد الحميد شاردة ولا واردة مما كتبه الأحرار فى صحفهم وأسفارهم الا أحاط به خبراً وأحصاه عداً ونظر فيه وتأمل قريبه وبعيده وفكر في جليه وخفيه . فما رآه حجة عليه تلطف فى ازالته غير مظهر أنه أزاله خشية من هجاء الأحرار وما لم يكن كذلك تركه على أصله غير مبدل من حاله شيئاً . ولكن أمرين كانا شديدين على نفسه شهوة ولزوما : اعلان الدستور والتخلى عن الاستبداد . هذان أمران ماحدثته نفسه أن يرضى فيهما الله ولا عباده . وكان كلما ذكر له خصومه مثلبة من مثالبه غلت مراجله وهاج غضبه في خوف تبدو على وجهه آثاره وان بالغ فى تكتمه :

ولقد قال الأحرار فى صحفهم أنه منع الجرائد العثمانية عن ذكر اسم (محمد) عند الكلام على النبي (صلعم) وكان الأمر كذلك . ولكنه لما رآهم يكثرون من تعييره بهذا الأمر انتهى عنه وذكرت الجرائد بعد ذا اسم النبي صريحاً . وانما أراد بفعلته هذه تكذيبهم ليحدث الشك فى قلوب من يقرأون أقوال الأحرار .

وقالوا عنه انه يخاف أبا الهدى لأن عنده صورة فتوى بخلعه مختومة بخاتم شيخ الاسلام المرحوم الشهير (عريانى زاده) وأن أكثر الداخلين في

الطريق الرفاعي ينتصرون لأبي الهدى . فلما بلغه قولهم هذا أضمر الشر لشيخه المحبوب . وفي ذات يوم أمر به فجاءه وبين يديه بعض الوزراء والمقربين . فقال له عبد الحميد : بلغني عنك أنك تفهم الناس أني أخافك على نفسي وأنك تقدر على مناوأتي . هذا وأنت غرس نعمتي وان قدرك لأحط عن ان يسمو الى تراب قدمي . ثم بصق على وجهه وأخرجه من حضرته وبقي بعد ذلك أبو الهدى شهوراً لا يطرق له باب ولا يوطأ له بساط .

ومن هذا القبيل ما أورده هنا على سبيل الفكاهة وتتمة للفائدة. وهو أن عبد الحميد كان اتخذ (منيرا) سفير الدولة العلية في فرانسا سابقاً ، سيفاً يضرب به الأحرار . فكان سفيره وكان جاسوسه أيضاً . وكانت ظهرت في (جنيف) منذ عشرة سنين قبل الآن جريدة هزلية تصويرية باللغة التركية تدعى (به به روحي) . وصدر عدد من أعداد هذه الجريدة وفي الصحيفة الأولى منها صورة عبد الحميد وقد جلس على كرسيه وأمامه رجل من بطانته في يديه صندوق كبير عليه عدد كثير من طوابع البريد . وتحت الصورة هذه المحادثة :

حامل الصندوق — أرفع الى أعتاب مولاي الاعظم هذا الصندوق الذي أرسله عبده المخلص (منير بك) سفير الدولة بباريس . فقد أودعه كل ما استطاع جمعه من (الوريقات المضرة) التي ينشرها (الرثون ترك) اعداء الدين والدولة لتصدر ارادته الشاهانية باحراقها .

عبد الحميد — لا تزال التجارب تزيدني كل يوم اعجاباً بمنير وثقة بولائه. وليت لي كثيرين مثله يغالبون أعدائي ويتقدمون الي بصدق الحب والولاء ،

فأجزل لهم المكافأة وأحبوهم المزيد . هلمّ الى هذا الصندوق وافتحه لأنظر ما فيه من عجائب هؤلاء الأغرار .

وفى الصحيفة الثانية من ذلك المدد، عبد الحميد وقد استلقى على ظهره فوق كرسيه وفتح ذراعيه وقطب حاجبيه وامتقع لونه وبرزت مقلتاه وانقلب وجهه فكأنه اسفنجة مبتلة والصندوق مفتوح وقد خرج منه صاحب (به به روحى) وفى يمينه مسدس يصوبه الى صدر عبد الحميد ورجل بطانته باهت عاض بسبابته . وتحت الصورة علامة الاستفراب تتلوها اصفار كثيرة هكذا :

! . . . . . .

ولما وقعت هذه النسخة بيد عبد الحميد، كتب الى (منير) يأمره أن لا يرسل اليه صندوقا كما تقدم ذكره الا بعد أن يتحقق بنفسه مما فيه وأن يحكم قفله ويختم بخاتمه . ! ! ! . . . . .

وكان لما يكتبه الأحرار وقع آخر فى نفس عبد الحميد أدركه كل فطن عارف بأحواله ومختبر حقائقه . وذلك أن الأحرار كثيراً ما كانوا يشيعون فى جرائدهم أنه مريض وأنه يود أن يعتزل الملك . فكان يبادر الى تكذيبهم فى جرائده لأنه لم يكن يرضى أن يشاع عنه أنه مريض ولا انه على نية الاعتزال .

وكان الأحرار يختلقون أنباء لا أصل لها . فيكتبون فى صحفهم ان فئة منهم على أحسن أهبة وسلاح سيظهرون قريباً بالآستانة . فتذهب جماعة منهم لاستخلاص السلطان مراد ، وكان معتقلا بقصر (چراغان) ، وتذهب جماعة

الى خلع عبد الحميد وسجنه مكان مراد . فتصل هذه الصحف الاستانة فتقوم لها القيامة ويشتد الهول ويطفق رجال الشرطة يترا كضون يمنة ويسرة صعداً وصبباً يطلبون تلك الفئة التي أخبرت عن ظهورها الجرائد الحرة فما رأوا نفرا متجمعين الا انقضوا عليهم وأمسكوا بتلابيبهم وجروهم الى رؤساء الشرطة يستنطقونهم . فكان هذا وما ماثله من الفصول المضحكة في مرسح الادارة الحميدية .

وكان عبد الحميد وأعوانه يتسلون عن ادراك أمانيهم في جلب الاحرار والانتقام منهم بأن ينتقموا من اخوانهم الذين هم في قبضة أيديهم . فما انهم أحد من أولئك الساكين بمراسلة الأحرار أو أخذ صحفهم أو الكلام عنهم تلميحاً أو تصريحاً الا أخذوه الى دار التعذيب فاثقلوا قيوده وشدوا وثاقه وأروه من صنوف الأذى مايقضي به نحبه بين أيديهم . وانما كان يجرأ عبد الحميد على تلامذة المدارس ممن لا يتوسم فيهم القدرة على الكتابة ولا على الهرب وكذلك من لاشهرة لهم من صغار المأمورين . أما الذين يبلغه عنهم أنهم من رجال القلم ومشاهير الكتاب فيكفيه منهم أن يتوعدهم ويبث لهم من يراقبهم ويأتيه أخبارهم . وربما ضاقت الحال ببعض الأدباء ولم يجد سبيلا لاستزادة راتبه فيكتب الى عبد الحميد يقول له : ان اشتداد الأزمة عليه ومراقبة الجواسيس له وتكاثر الأعداء يضطره الى ترك وطنه واختيار الغربة . وأن مثله لايعاني كبير كد في الاسترزاق بعلمه وفضله اذا عم أرضاً يعيش في أكنافها أمثاله . فاذا اتصل هذا الوعيد المستطرف بالملك الأحمر بادر لوقته فاستدعى المتوعد الى قصره وأجزل عطاءه ورفع درجته ووعده خيراً .

كان فخري بك المصري متهماً عند السلطان بأنه من حزب تركيا الفتاة. ولقد سأل السلطان مراراً واستعطفه كثيراً ليأذن له بالسفر الى مصر ليصلح شؤونه ويتعهد أراضيه وأملاكه . فظن السلطان أن فخري بك يريد السفر ليتحد مع الأحرار في محاربته . واذ كان فخري من أهل الثراء والفضل أيقن عبد الحميد بصحة ظنه . فلما زار الآستانة سمو الخديو في سنة من السنين توسط في الاستئذان لفخري بك فنال الاذن وأحضره معه على يخت المحروسة فانتبه لذلك أحد الادباء الفقراء ورأى فرصة لا تسنح كثيراً. فاستكتب أحد المصريين الذين كانوا هربوا من مصر الى الآستانة تقريراً يقول فيه للسلطان ان الكاتب المعروف فلاناً كتب كتاباً الى فخري بك المصري يعده فيه بالسفر ليلحق به . وأن قد جعل فخري راتب ذلك الكاتب عشرين جنيهاً شهرياً وأن الكاتب على أهبة السفر. وقال اذا كان أمير المؤمنين يشك في صدق عبده هذا فما عليه الا أن يصدر أمره الى ادارة البريد العثماني في (غلطة) ولا يلبث أن يؤتى له بذلك الكتاب . فأخذ المصري المتجسس تقريره ورفعه الى عبد الغني (اغا دار السعادة) اذ ذاك . فصدرت الارادة الى ادارة البريد وجيء بالكتاب وظهر صدق الجاسوس. فجاءه شكر من السلطان على اخلاصه ولم يحسن عليه بعطية أبداً . وجيء أيضاً بالأديب المتهم وسئل عن الأمر فاعترف معتذراً بشدة الحاجة وما يعانيه من ضيق ذات يده . فأمر له السلطان بعطية سنية قدرها خمسون جنيهاً وأدخله في ادارة الأملاك السنية براتب لا يقل عن العشرين جنيهاً . فلما بلغ الجاسوس ما جرى أسرع الى صاحبه فهنأه وطلب له المزيد ثم قال له :

كنت — وعدتني بأن تعطيني نصف ماتأخذه من السلطان. وقد أخذت خمسين جنيهاً . فهات لي النصف .

الكاتب — لم يجر بيننا كلام مثل هذا واني لأنهاك أن تعود الى مطالبتي بما ليس من حقك .

ففارقه الجاسوس ساخطاً ناقما وذهب من ساعته الى قصر عبد الحميد وأخبر عبد الغني أن ما أتاه به أول مرة كان تواطؤاً بينه وبين الكاتب وأن لا مخابرة بينه وبين فخزي بك . فلم يجده اعترافه هذا نفعاً ولم يلحق بالكاتب ضررا وخرج من القصر مطروداً وما بقي له الا اثم التجسس .

ولما استمر مراد الطاغستاني على اصدار (ميزان) بمصر ثم (جنيف) ونشر في جريدته أحاديث جرت في (يلديز) بين خاصة عبد الحميد وأخذ يسمو الى أن نشر أحاديث جرت بين عبد الحميد نفسه وبين مقربيه غير مضيع منها حرفاً، كبر الأمر على المستبد وعلى رجاله فداخله الريب حتى في أمنائه وشك المقربون بعضهم في بعض وزادت الوشايات عن ذي قبل . فلا الصديق يثق بصديقه ولا الوالد يأمن على سره ولده وعظم الوجل واشتد الحرص في القلوب .فلما كثرت الظنون وتنوعت أخذ البعض يذهب الى أن لمراد رجالا حتى في قصر السلطان يوافونه باخباره. وزعم بعضهم أن بالآستانة بل بقصر الملك جمعية خفية تتآمر على اغتيال عبد الحميد. فمن قائل ان ولي العهد هو رئيس تلك الجمعية لا بل رئيسها هو المشير فلان أو الوزير فلان وكثرت تقارير الجواسيس على عبد الحميد الى أن عجز عن استيفاء قراءتها كلها

وقد طمحت نفس الاستبداد الى اكثر مما تقدم. وذلك ان عبد الحميد

كان اشترى بعض الصحف الأوروبية والعثمانية وخصص لأصحابها رواتب لتدافع عنه وتحارب له الأحرار. وهذه الجرائد المشتراة بدماء العثمانيين لتكذب على العثمانيين وتمتهن العثمانيين موجودة الى اليوم لم تحتجب منها الا قليلات كانت تبدو بمصر. وكان أصحاب هذه الجرائد يذهبون الى الآستانة كل عام فيقضون بها أياماً وشهوراً يحتالون على عبد الحميد فيسرقون دراهمه ويحتال هو عليهم فيسرق قلوبهم وكل يظن أنه يغش صاحبه وكل صادق وكل كاذب نفسه. الا أن عبد الحميد انتصر على الأحرار بهذه الجرائد. فلقد احتقرها أكثر الناس استخفافاً بأربابها ورموها تحت أقدامهم. ولكن الذين فعلوا ذلك هم العارفون بمن يصدرونها، الواقفون على أحوالهم وسيرهم. اما القاطنون فى البلاد البعيدة ممن كانت ترسل اليهم ولم يعرفوا عن أصحابها الا مايرونها على رأس الجريدة كقولهم (صاحب الامتياز هو سعادة فلان) أو (يقوم بتحرير هذه الجريدة هيئة من مشاهير الكتاب ورجال السياسة الخ الخ ...) فلا عجب اذا انخدعوا بهذه الالقاب والجمل الساحرة. والعثمانيون القاطنون صميم الاناطولى أقرب خلق الله الى الانخداع.

اضطر عبد الحميد وأعوانه الى ركوب هذا الشطط تخوفه من جرائد الأحرار ثم تأمله مما كان يكتب فيها عنه.

وقد شاهد المنقطعون الى تحقيق الأمور أن أكثر المأمورين العثمانيين كانوا يستحون مما يكتبه فيهم الأحرار وما يصفونهم به من الخمول والجهل والتذلف الى الرؤساء وعدم المعرفة بما عهد. فكان منهم عمالٌ الا اليهم من

صاحب القانون الاساسى العثمانى وشهيد الحرية

﴿ مدحت باشا ﴾

من يجهد نفسه لكى لايصدق فيه مايقوله الأحرار وكان منهم من يقول هؤلاء أعداء الخليفة والمسلمين . هم أنصار الفرنجة يريدون أن نصبح كلنا مجردين من الدين . فيجب ان لانلتفت الى أقوالهم ولا الى مفترياتهم .

ولما بدت على وجوه المأمورين وكبار رجال الدولة آثار الخوف والوجل

مما يكتبه مراد فى (ميزانه) ويكتبه غيره من الأحرار فى جرائدهم انتبه لذلك بعض الشبان ممن زاد نصيبهم من التعلم وأوتوا الذكاء ففر كثير منهم الى الأقطار الأجنبية والى مصر التى كانت مهبط ملائكة الحرية وشاركوا اخوانهم المجاهدين فى جهادهم وبقى غيرهم بالآستانة ليوافوهم بما يتجدد فيها من النبإ اليقين . فكان هؤلاء المجاهدون مقيمين فى وسط النار تحرق ما حولهم ولا يصيبهم منها سوى حرق تبقى أياما ثم تزول . وقد يذهب منهم وفوداً لها من يذهب . وبهؤلاء ملئت السجون ومواطن النفى ولقبهم العاتون المتعصبون ألقابا وسموهم أسماء ونعتوهم نعوتاً : فقالوا المتفرنجون والكافرون وأعداء الدولة والدين وأضحى شقاؤهم فى الولايات أشد . فكان الولاة وأكثر رجال الحكومة يضربونهم ويحبسونهم . وقد يهدرون دماءهم ويبيحون للناس نهبهم ويذلونهم اذلالا . وفى ظلم انيس باشا أحد ولاة (قسطمونى) سابقاً واعتدائه على المنفيين عبرة للسائلين .

أبو الهدى

بالآستانة ومصر

رجل نشأ فى (خان شيخون) وهو اسم قرية من قرى حلب . مجهول النسب والحسب . فقيراً من المال والعلم . لا نصير له الا عقل ما تجلى شعاعه على داجية معضلة الا أنارها ، وسيم المحيا طلقه ، فتى العزيمة ماضيها ؛ طموح النفس الى كل سؤدد ، صبور على المكاره ، اذا نال جشع واذا حرم شبع ، لطيف ظريف . لا يمل مجلسه ، شمائله أندى من الزهر ، وهيبته أعظم من هيبة السبع ، اذا تقاعس تحالم واذا قدر بطش غير راحم ، يبدى على صفحته مايريد ويكن فى ضميره مايريد ، لا يخذله تلون ولا تلجلج ، لجام نفسه بيده يصرفها كيف يشاء وأنى يشاء . ذاك هو أبو الهدى المعروف عند العثمانيين والمصريين .

ادعى النسب وربط أسلافه ببيوتات وبطون كثيرة . فهو رفاعى خالدى قرشى هاشمى علوى . ثم غسانى تبعى . ثم عالم فقيه نحوى لغوى أديب مؤرخ متصوف فيلسوف فلكى طبيب عرّاف ولىّ شاعر كاتب سياسى ادارى مالى عسكرى بحرى برى . ثم هو مستبد جاسوس وحر دستورى فاسق تقى مبذر ممسك جبان شجاع قوى ضعيف حبيب عدو خائن وفىّ يتقلب فى هذه النعوت والصفات ، مابين غمضة عين وانتباهتها . ولولا خوف الهجر

لقلنا انه كل يوم فى شأن .

أحرز أشرف الألقاب فقيل له (صاحب السماحة والسيادة) وكنى بأجمل الكنى. فدعى (مستشار الملك . حامى العثمانيين سيد العرب .) ولكن غلبت سورة الحق على كل هذه الأباطيل وسمى (أبا الضلال) فبقى له هذا الاسم صفة حتى لقى به ربه .

وليس ببعيد أن يكون أبو الهدى ولد مطبوعا على الخير راغبا في المعالى فسلك الطريق اليها كما أراد وكما أراه عقله. ولعله كان يظل مقيما على الانصاف لو وجد منهم الانصاف . ولكن كثر مزاحموه وجم حاسدوه فاضطر الى محاربتهم غيرة على أربه وحفظا لحياته . وهو فى دهائه ووفرة تجاربه عالم بأن نعم الملوك تتكنفها النقم . فنازل أعداءه منازلة لامشفق ولا آمن وأيقن أنه ان غفل عنهم برهة دبروا له من المكايد مايذهب بعزه ويقصيه عن سلطانه . فجعل كلما أتاه منهم شر أرسل عليهم مثله . دقة بدقة . وماتشمر لحربه الا كبار الرجال من أهل الحظوة عند السلطان. فما زال بهم حتى بزهم واحداً واحداً وبقى مكانه كالطود الراسخ لاتزعزع قواعده الصروف ولا تترقى اليه الهمم .

استمال فريقاً من الرجال. منهم الأمراء وأهل الثروة وذوو الحكم فى البلاد . فأظهر لهم الود واستعمل قدرتهم فى أغراضه . ووفد عليه العلماء والشعراء والكتاب يستعينون به على قضاء حوائجهم . فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم وأدنى منه مجلسهم . فكان منهم من يؤلفون الأسفار ويعزونها اليه ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه . فتناقلت الألسن مابدا من فضله المتزود

به وسهت الأفكار عن نقصه الكمين فيه . على أنى لا أقول نقصه . ومن أين لنا أنه كان ناقصاً ؟ وهل يقدم أكثر الناس على المكاره الا مضطرين وان كان منهم من يتشهاها ويستهتر بها ؟ على أن ضرورات الحياة أشقت أبا الهدى من حيث أسعدته وحطته من حيث رفعته فعاش وهو حبيب الناس عدوهم . وألف الحيل لما رأى حياته ونشبه لا يسلمان الا بها . وقلت ثقته بالناس وقلت رغبته فى مصافاتهم . فعاش وأشد الناس ملازمة له أشدهم خوفا منه .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدواً له ما من صداقته بد

أتى على أبى الهدى حين من الدهر يفزع اسمه الولاة على مقاعد ولاياتهم ويرهب الوزراء بل الصدور وهم على أرائك حكومتهم : ينفذ الى أحدهم وصاة فى أمر لا يجرأ عليه غيره ولا تجيزه قوانين الدولة ولا يرضى به عبد الحميد . فلا يستطيع أحد أن يظهر له مخالفة ولا أن يضمر فى نفسه مماطلة . وكم أمر السلطان أمراً وأبطله أبو الهدى وكم شكا الرجال كثرة ما يقترح لهم فما أفادهم ذلك ولا ضره . وكان عبد الحميد (يقول) عجبت لهؤلاء الخونة الذين يحسدون شيخي وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه . يكتب لى الواحد منهم كتاباً يطلب من فيه بدرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر وهو مع ذلك يتعسف الحيل ولا يهتدى اليها سبيلا . أما أبو الهدى فان سألنى سألنى عن ثقة وظرف ولا يتدنى بقدره الى طلب ما يكون مشاعا يمكن أن ينازعه فيه غيره بل يطلب منى ما يفتخر الشريف بنيله . فهو الأمير وأولئك هم الصعاليك .)

وما زال أبو الهدى مجدا فى طلب خصومه وهو كلما أدرك واحدا جلد به الأرض ودامه بقدميه ، فلا يقوم بعدها أبدا . حتى سخر الله له عزت العابد فثبت أمامه وناوأه فى وجهه . فكانا ككفتى الميزان اذا رجح أحدهما خف صاحبه . اشتدت وطأة كل منهما على الآخر وضاعت بينهما مصالح الأمة والدولة . وانقسم عامة الناس الى حزبين أحدهما هدائى وثانيهما عزتى فما يبرم هذا أمراً الا ينقضه ذاك . ولا يفتح ذاك بابا الا يغلقه هذا . ولما رأى الناس من العابد ثبات قدمه فى مصاولة أبى الهدى جنحوا اليه بآمالهم ولاذوا بركنه عند فزعهم وسر بذلك عبد الحميد . فاتخذ كلا من المتفاضلين رقيباً على مفاضله . ورأى سائر أعداء أبى الهدى أن لا يختلفوا فى محاربته فاتحدوا عليه ورضوا بعزت العابد زعيما فساروا تحت رايته وعملوا برأيه حتى كادوا يغلبون الصيادى ويزيحونه من طريقهم .

أما أبو الهدى فقد قرع باب السعادة فى أول أمره داعياً باسم الدين وسار فى طريق حياته سالكا مسلك المتصوفين . فكان يأتى عبد الحميد كل يوم بعجيبة من العجائب . فآونة يبلغه سلام النبى وحيناً يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ثم يدعى لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها . وكان عبد الحميد محباً لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل الى استدامة حكمه . غير أن أبا الهدى تعدى ما كان رسم له . فأفهم سيده أن السالكين طريقة الرفاعي من دراويشه كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها وأنهم يجلونه ويتفانون في حبه وأنه اذا نابه أمر قاموا عن بكرة أبيهم انتصاراً له . فكان عبد الحميد يسمع ذلك فيصدقه أو يضطر عقله الى

تصديقه لأمر يعلمه هو . ولكن حيل أبي الهدى تمدت السلطان الى غيره فكان له رجال يبتدعون له الكرامات وينتحلون المعجزات لأبيه . ولقد روى لي الكاتب المصري الشهير المرحوم ابراهيم بك المويلحي نادرة منها قال : كنت ذات يوم عند أبي الهدى وقد غص مجلسه بقوم من أصحابه وشيعته وكلهم جلوس كان على رؤوسهم الطير . فأخذ أبو الهدى يحدثنا بأمر وقع لأبيه قال : رحمة الله على سيدي الوالد ما أظرف ما كانت تصدق به كراماته . خرج ذات يوم شديد الهاجرة في حلب يريد التنزه . فاشتد عليه القيظ وعلم أنه لم يصب في اختيار وقت النزهة . فانثنى راجعاً الى باب داره حتى اذا وافاه جلس على عتبته من فرط ما أصابه من التعب وأخرج منديلاله وجعل يمسح به عرقه المتصبب على جبينه . وانه لكذلك اذا برجل يقود حماراً له عليه زنبيلان مملوآن خياراً . فاشتهت نفس سيدي الوالد من ذلك الخيار وسأل البائع أن يزن له منه رطلين . والرطل الحلبي يساوي أقتين ونصفاً . ففعل الرجل ولما انتهى من وزن الخيار وأخذ ثمنه وهمّ بالانصراف ، التفت . فما راعه الا زنبيلاه وليس فيهما ولا خيارة واحدة . فأخذ الرجل ينوح وينتحب ويقول أين ذهب هذا الخيار ؟ لم يمرّ بنا أحد فنقول سرقه . فتبسم سيدي الوالد وقال كم كان بزنبيليك من الخيار . قال الرجل سبعون رطلا . فدفع اليه سيدي الوالد ثمنه وقال أنا أكلته . فنظر الرجل في وجه الوالد ملياً ثم صاح والله انك لقطب الزمان وغوثه وانكب على قدميه يقبلهما . فطيب الوالد الرجل وقال لا عليك بأس . ولكن عاهدني أن لا تبوح بما رأيت لأحد . فعاهده الرجل على ذلك ومضى في شأنه . قال المويلحي فما أتم أبو الهدى كلامه الا نهض رجل في

أخريات الجالسين وقال يامولاى عفواً انه لم يكن بالزنبيلين سبعون رطلا بل خمسة وتسعون كما أخبرنى به البائع نفسه قال أبو الهدى لله أنت. ما أحفظ قلبك ، والله لقد أنسانا الزمان ذلك . قلت للمويلحى يا ابراهيم بك هذه ليست بكرامة واذا صحت الرواية فأبو أبى الهدى جمل أو ثور وليس بغوث ولا شيطان .

وقد كتبت وأنا بالآستانة رسالة صغيرة طبعت بمصر سميتها (الخافق والبادى من فضائح الصيادى) ذكرت فيها أشياء كثيرة من هذا القبيل لا أرى بى حاجة الى استعادتها هنا .

وكما انتصر أبو الهدى على خصومه بالوشايات انتصر عليهم بالجرائد . فوجه الى مصر فى نحو سنة ١٨٩٢ رجلا من دراويشه اسمه السيد كمال الدين الدمشقى . فأتى هذا الرجل الى مصر محملا بالمال مصحوبا برعاية أبى الهدى وقوته . وكان خليعاً ظريفاً وسيم المحيا يمشى وكأنه مروحة فى يد الحسناء . فأصدر كمال الدين جريدة القاهرة التى أسسها سليم فارس ثم نشرها من بعده محمد عارف الكاتب الشهير . فكأن خيبة الجد استكثرت على (القاهرة) سابق (مجدها) فأرادت أن تنزلها بعد الرفعة الى أسفل الدركات . فاخذت تنشر جريدة القاهرة كل أسبوع بعد أن كانت تنشر كل يوم . وسودت صفحاتها بمقالات الدراويش وأهل المجون بعد أن كانت ترصعها باللآلىء اقلام مشاهير الكتاب فى عهد سليم فارس ومحمد عارف وأتتها قصائد الصوفية مطولة باردة مظلمة كليالى الشتاء .

وقد اشتغلت الدسائس بين مصر والآستانة . فأخذ كثير من الأغنياء

أشعر شعراء الترك وأكتب كتابهم الأديب الأعظم

نامق كمال بك الشهير

يحبون كمال الدين المال ويتخذونه شفيعاً الى أبي الهدى فى استجلاب رتبة أو وسام أو قضاء حاجة دخلت فيها المشكلات . وأخذت جماعة من رجال عزت العابد تنتصر بالمعية وأخذت المعية تطارد كمال الدين . وبذا عرف المصريون من مكانة أبي الهدى مالم يعرفوا من قبل . فأقبلوا على سفيره المعمم يمشون ورآءه . ودخل أبو الهدى أبواباً لم تكن تنفتح له لولا جريدته ودرويشه . فقصد اليه المتنازعون مع المعية فى أمر جزيرة طاشيوز وتحملوا اليه الدراهم ويممه أصحاب وقف العلماء في قضية الأزهر ثم تاجر بالرتب والنياشين

فربحت تجارته.

وكان المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني صديقاً لأبي الهدى . وكان كل يخاطب صاحبه بيا ابن العم ولا يصبر أحدهما على فراق الثاني يوماً واحداه فسعى بينهما بالنميمة عبدالله النديم حتى تنافرا و بلغت منهما العداوة والبغضاء أن بات كل يطلب موت بغيضه . ومن هنا بدأت الحروب الصيادية وتنازل القرنان . ولولا أن المنية تداركت الأفغاني لظلت الحرب الى يوم اعلان الدستور . وسيأتي الكلام على هذه الوقائع في فصل خاص بها.

ولقد نقم أبا الهدى كثرة حاسديه . فاتخذ فرط بغضهم له برهانا على اخلاصه لعبد الحميد وجعل يوهمه أنه لو كان خائنا مثلهم لما أبغضوه . وما أراح ذلك عبد الحميد ولكنه أظهر الارتياح . فصاحبه على ريبة من أمره ثم خافه على نفسه . فبات يدبر له مايرديه . غير أن أبا الهدى أحس بالشر وعلم أنه ان وقع مرة لن تقوم له بعدها قائمة . فأسر الى قوم يعلم أنهم لن يحفظوا له سرا ، أن عنده صورة فتوى بخلع عبد الحميد من شيخ الاسلام المرحوم عريانى زاده مكتوبة بخطه مذيلة بخاتمه وأنه لا ينشرها الا اذا أوجس على نفسه خيفة . فنقل هذا الكلام الى عبد الحميد . فهاج له وساوسه واستطال سهاده وحال بين أبي الهدى والهلاك . وكان أبو الهدى كثير الدالة على سيده . فكثيراً ماقاطعه أسابيع لا يطأ فيها بساطاً له. واذا كتب يسأله عن أمر لا يرد عليه جوابا حتي يسترضيه سيده بحاجة يقضيها له .

وكان أبو الهدى يركن فى الشدائد الى رأي ابنه حسن خالد بك .وهو شاب ظريف سهل الخلق ذكى الفؤاد حاضر البديهة يشبه أباه وجهاً لولا

لحية كثة كست عارضى أبيه ولم تنبت بعارضيه . جرت عادة هذا الشاب أن يذهب الى قصر يلديز ويطوف بدوائره ويتجسس على رجال القصر كلهم. وقد برع في استراق السمع واختلاس ما يكتب بنظرة ترتد اليه بعد ما ترود خلال كتب الغيب فيرجع الى أبيه وعنده النبأ اليقين بما كان وما يكون.

وكان لأبى الهدى جاسوس آخر اسمه جميل ، حلبي الاصل . زوجوه جارية من جوارى عبد الحميد واستخدموه بادارة الجمارك (امانة الرسومات) وجعلوا له راتباً للتجسس. فكان هذا الرجل لا يرفع وشاية الى عبد الحميد الا باستشارة الصيادى . فأمسى الصيادى وله جاسوسان أحدهما ابنه يأتيه بأنباء سيده وثانيهما جميل الحلبي ينقل عنه الى عبد الحميد ما يتفقان على نقله .

على أن أبا الهدى مع ما ذكرته عنه من تعدد موارد رزقه وتيسر الكسب له لم يكن ذا وفر . بل كان كثير الديون ، اذ اضطرته مواقفه مع خصومه الى الاستمرار على التبذير . ثم كلفه بالتشبه بأهل السماحة واظهار الأريحية والجرى على سنن الكبراء من السلف فى اجازة المادحين وفتح باب داره للقاصدين من الضيوف والدراويش كان يستنفد ما فى خزانته . فيقترض من رجل صيرفي اسمه توفيق افندى الداغستانى . هذا ولم ينل صلة من عبد الحميد الا فرقها على الخاصة من شيعته القائمين بأمر دعوته .

ماذا كان يريد أبو الهدى

ذهب كثير من الناس الى أن أبا الهدى كان يريد أن يجعل نفسه خليفة وأن يجعل الخلافة فى العرب كما كانت . وهذا افتراء محض . أجل كانت نفس

الصيادى طاعة لكل مايمليه كما أسلفت فى الفصل المتقدم ، ولكن نفسه لم تحدثه بشىء من ذلك . فقد عرف خطر هذا الأمر ومسافة بعده عن الامكان. وانما هاجه أعداؤه بمثل هذه الأقاويل طلباً للايقاع به واقصائه عن عبد الحميد . وما غاظ أبا الهدى أحد مثل كاتب هذا الكتاب . وقد قلت فيه مالم يقل غيرى وزعمت أنه كان يسعى فى قلب الخلافة والاستئثار بها . ولكنه زعم ليس بصحيح وانما أردت أن يبعد عن عبد الحميد ويخف ضرره عن الدولة.

وكان أحب الأشياء الى أبى الهدى أن يصير شيخ الاسلام . لأن صاحب هذا المقام له التصرف المطلق فى نصب القضاة وعزلهم وفيه من الوسائل لاستجلاب الدراهم مالا يتحصل فى مقام غيره . ولأبى الهدى دراويش ومادحون يحب أن يقلدهم مناصب رفيعة فى الولايات ليكسبوا فيها ويكسبوه معهم . ولكن عبد الحميد لم يسمح له هذا السماح ووقف وسواسه بينه وبين أمانى شيخه المحبوب . على أن أبا الهدى عاش ما عاش غير يائس من الفوز بمأربه .

ثم الخلافة ، وهى الملك فى عرف أهل البدعة والتعصب ، لا يحلم بها أبو الهدى ومن هم على شاكلته من رجال التصوف . فهم قوم يميلون الى اظهار النسك فى أنهارهم وادخار اللذات الى لياليهم . ولأحب اليهم أن يقال فيهم انهم أهل الله ومقربوه ومن لا يرد لهم دعاء ومن جعل الأكوان وما بها من حى وجامد طوع مشيئاتهم . والولى ينفع الخليفة ويضره ويرفع البلاد ويضعها وليس الخليفة كذلك . وأهل التصوف يبدون الورع ويسرون الطمع . فهم يأكلون ويشربون خفية . فاذا هم جلسوا الى طالبيهم ادعوا

obeikandi.com

الصوم وتنزهوا عن مشاركة الناس فى حالاتهم من ضرورة الأكل والشرب والنوم . وكيف كان يقنع أبو الهدى بأن يكون خليفة على العرب وهو يدعى أنه يفعل مايريد بالرغم من الخلفاء ودول الأرض كلها . أما طمعه فى أن يكون شيخ الاسلام فذلك لكى يقال انه رجل كلف بخدمة الدين ، ذو وجد بنصرة الشرع . فيزيد الناس فتنة بظاهر ورعه ويزيد الناس فتنة بجاهه وحبائه .

أكبر برهان على صدق ما أقول أن أبا الهدى لم يخاصم من الصدور ورجال الدولة الا من أبوا الانقياد الى رغائبه من استخدام تابعيه أو من بدأوا بعداوته . أما رجال التصوف والمنتحلون العلم فقد شن عليهم الغارات وأنزل بهم البلاء ، ولو لم يتعرضوا له بعدوان . وذلك بأن هؤلاء مشاركون له فى الصفات التى يحب التفرد بها .

كان الشيخ محمد ظافر المدنى رحمة الله عليه رجلا جاهلا . وانه لأشبه الناس برؤساء الصوفيين الذين نراهم فى القطر المصرى ويسمون أنفسهم مشائخ السجادة . وكان من رؤساء طريقة صوفية اسمها الشاذلية . عرف بالصلاح واجتناب الزخارف وحب التواضع . وقد اتصل بعبد الحميد فى ولاية عهده أيام كان عبد العزيز سلطانا على العثمانيين . فلما ولى الملك عبد الحميد زاد حبا للشيخ ظافر وأجزل عطاءه وشاد له تكية هى باقية الى اليوم على يسار الطريق الموصل الى قصر (يلديز) . وربما جاء ذكر الشيخ ظافر فى أحد الفصول الآتية . هذا الشيخ المسكين كابد من أبى الهدى مالا يدخل تحت الحصر . ولولا مكانته عند عبد الحميد وانتصار جماعة من أعداء أبى الهدى له لحل به من البلاء العظيم ماحل بغيره . وقد اتحد مصطفى ظافر بن الشيخ ظافر

وسائر اخوته وعمه المرحوم الشيخ حمزة مع عزت العابد فأمكن له أن يقاوم أبا الهدى ويقف أمامه طول أيام حياته .

وقد وقع لأبي الهدى مع الشيخ أسعد وكيل الفراشة رحمه الله أكثر مما وقع له مع الشيخ ظافر . فقد نال أسعد من الحظوة لدى عبد الحميد ما لم ينله أحد قبله وفاقه فيه أبو الهدى بعده . ولعل من سيقرأون كتابي هذا من المصريين لا يعرفون أسعد الذي أتى ذكره عرضاً في هذه السطور . ولولا أن ذكره خارج عما نحن بصدده لأجملته لهم في كلمات. ولكنني أقول لهم ان هذا الرجل يعرفه العرابي وبعض الخاصة من حزبه . فقد كان يكاتب العرابي ويعده بجعل الخديوية وقفا عليه ومن يتلوه من ذريته ويبلغه سلام عبد الحميد ورضاه . وقد أصاب أسعد جنون في عقله لم يعش بعده كثيراً ومات وأنا بالآستانة .

وكان الشيخ الجربي قصد الى الآستانة في احدى السنين . ويعرف المصريون ما اتصف به الجربي من حسن المنطق وجودة القريحة وبيان الأسلوب . فلما اتصل ذلك بأبي الهدى همه وأورثه القلق وخاف أن يطول بالآستانة مقامه فينال حظوة عند عبد الحميد ويتقلب عليه . فبادر من ساعته الى القصر السلطاني وما خرج منه الا وصدر الأمر باقصاء الجربي عن الآستانة .

ولان اشتغل أبو الهدى في كثير من أوقاته بمهام الملك فما ذلك الا ليقول عبد الحميد ان الله آتى هذا الرجل من علم كل شيء أوفر نصيب . وكان يقول لكثير من الناس لو شئت لكلمت الطيور وسامتها اذ تحلق في الجو

وخاطبت النمال ودعوت الوحوش فأجابت . كل هذا أراد به ادعاء الولاية والحظوة عند خلاق الكائنات . وكثيراً ماتباهى برجل يسميه سيدى القطب المهدى الرواس . يقول ان هذا القطب كان أستاذه وانه لقنه كل مايعلم واتخذه صاحباً لما رأى فيه من مخايل الذكاء . وذكر أن قطبه الرواس تفرس وجهه ذات يوم فقال على البديهة :

ان خافيك الذى غيبته * هو باد ظاهر فى حاضرك
اجعل قلباً فى حمانا اننا * نحن قمنا بالذى فى خاطرك

فقلت ماالذى أراد بقوله (قمنا بالذى فى خاطرك) ، قال أراد مالا ينبغى أن تعلمه لا أنت ولا أمثالك .

هذا الملك الروحانى المدعى هو أكبر عند جميع المحتالين من أهل التصوف من الملك الدنيوى . فقد قضوا على ملوك البلاد أن يمتثلوا لأشاراتهم وأن يرفعوا أقدارهم وأن يهابوا جانبهم وما خاطبوا ملوك الاسلام اذ خاطبوهم الا زعموا أن الله تعالى أوحى اليهم بذلك وعقلاء الشرق هم رجال الطبقة المتوسطة بين الملوك والسوقة . قليل مابقى بالشرق من علم هو مقسم بينهم . أما الملوك والسوقة فمتساوون علما وفهما . واذا امتاز الملوك عن اخوانهم السوقة فى أشياء من السياسة فذلك محمول على كثرة معاناتها وتجريبها والاضطرار الى ممارستها . وقد رأيت من جهلاء الناس غير المنقطعين الى العبادة كثيرين لا يصدقون أكاذيب مشايخ الصوفية .

ومما لا أرى بأساً من ذكره فى هذا الفصل أن أبا الهدى عثر فى مكتبة (آيا صوفيا) على شىء من الجفر المنظوم . ذكر فى أوله أنه كان من

محفوظات السلطان مراد الرابع . فطاب أبو الهدى بهذا الكتاب نفساً وأخذه من المكتبة واحتفظ عليه . فلما كانت المذبحة الأرمنية التي وقعت في سنة ١٨٩٤ رفع هذا الكتاب بنفسه الى عبد الحميد واذا فيه اشارة بالحمرة على بيت من الشعر هو هذا :

ويحترق الأرمني الخبيث * بما كان أضمره فاستمر

فكان هذا معواناً لعبد الحميد على الجهل . فقد شد به عزيمته وأمضى مضاربه وباء بحسن الجزاء من عدو الناس وجزارهم وظهر لمن اتبعه من الجاهلين ظهور الأولياء .

أجل تكلم أبو الهدى كثيراً في أمر الخلافة حين حفلت مجالسه وأقبل عليه بالسمع أشياعه . فقال إن الخلافة كانت عربية وينبغي أن تبقى عربية ولم يبال بمن ينقل عنه هذا الكلام الى عبد الحميد . وهذا غاية في المكر . ود أن يرتاب عبد الحميد في أمره ويتوهم أنه يعمل على غصب الخلافة منه ليزداد خوفا وليعيش معه على المسالمة . هذا وأبو الهدى أعلم الناس بأمر الخلافة وبعده عنها . ثم لم يكن كلفا بها كلفه بادعاء الكرامة .

وما كان أكثرني تعجباً من دراويشه حين يذكرون له كرامات لا يصح تصديقها في مثل هذا العصر ، زاعمين أنهم رأوها رأي العين . أخبرني كمال الدين الدمشقي أن العقارب في بيت أبي الهدى لا تؤذي أحداً وأنه نهى دراويشه عن قتلها . فقال دعوها لن يصيبكم منها أذى . وقال كثيراً ما ننام الليل وفي فراش الواحد منا واحدة او ثنتان من العقارب ولا يخطر لنا على بال أنها ستؤذينا . وحدثني أبو الخير وهو خليفة أبي الهدى قال بينا نحن مع

السيد فى أحد أذكاره اذ أخذته سكرة فمد الى حسام كان على الأرض فأغمده فى صدر أحد الدراويش حتى خرج النصل من ظهره شبرا . فأخذ منا الروع مأخذه . فما هو الا أن استل الحسام وبصق على موضع الجرح فالتأم لوقته ولم يترك له أثراً .

هذا الذى أراده أبو الهدى فى حياته وقد نال منه مانال . وبمثله كلف المتمهدى فى السودان ومن ظهر باليمن . ولو طالت أيام الاستبداد ومات أبو الهدى في دولته بعد سنين لكان قبره كقبر الولى يزار وتقام فيه الصلاة ولألف له من يسيرون على نهجه من بعده كتباً يذكرون فيها من كراماته مافاته في أيام حياته . على أن ما بناه الباطل يهدمه الحق وفى اقبال الحظ ورفعة الدولة مايسهى المرء عن الصواب. ومن رأى أبا الهدى فى أيام عزه وشهد مصرعه بعد اعلان الدستور علم أن الباطل مهما طال قصير . وليت هذه العظات تنفع أبناء الشرق فيقلعون عن الاستمساك بتلك الأضاليل التى خذلت السلف وأشقت الخلف ولا يعتمدون الا على الجد فى أمورهم .

﴿ اللورد كرومر وأحرار العثمانيين ﴾

خير ما يقال عن اللورد كرومر انه كان أبا مشفقاً للمصريين وظهيراً كبيراً لأحرار العثمانيين. قدم مصر زمان أشكلت أمورها وجمت مخاوفها. فشد أزرها وأنهضها وسط مخاوفها ووقف بها على حد التصافى . فكان لها كالطبيب النطاسى كلما شكت وجعاً بادرها بالدواء بما يزيله . وظل الى يوم فارقها يتحدث بفضله من عرفوا حسن مقاصده وأدركوا مبتدأ أمره . غير أنه بلى بقوم لا يشكرون صنيعة وان جلت ولا يحمدون حالا وان صفت . فنالوا منه وسفهوا عليه . فكان حظهم من ذلك كله أن قال الناس ان هؤلاء ليسوا أهلا للحكومة . ما أصاب مصلح مصر من كيدهم سوء بل زادت محبته تمكناً من قلوب محبيه وزاد أهل السداد اعجاباً بحلمه كما زادوا اعجاباً بحكمته .

ثم قضت الضرورة أن يسلك اللورد كرومر مع بعض الجهات المصرية طريق الخشونة ، رداً للشر بالشر . فلما جاء فرمان الخديوية لأمير البلاد أبى الاذن بتلاوته قبل الاطلاع عليه . ثم طلب تغيير بعض أحكامه فيما يتعلق بالحدود بين مصر والبلاد العثمانية . فأذعن لذلك الباب العالى بعد جدال طال أياماً . وأصر على طلب اخراج عبد الله النديم من القطر المصرى وأسقط الوزارة الرياضية الأخيرة ولم يشأ قبول الوزارة الفخرية . فسقطت بعد أن عاشت أربعاً وعشرين ساعة . هذه أشياء يؤآخذ عليها اللورد كرومر من لم يعرف

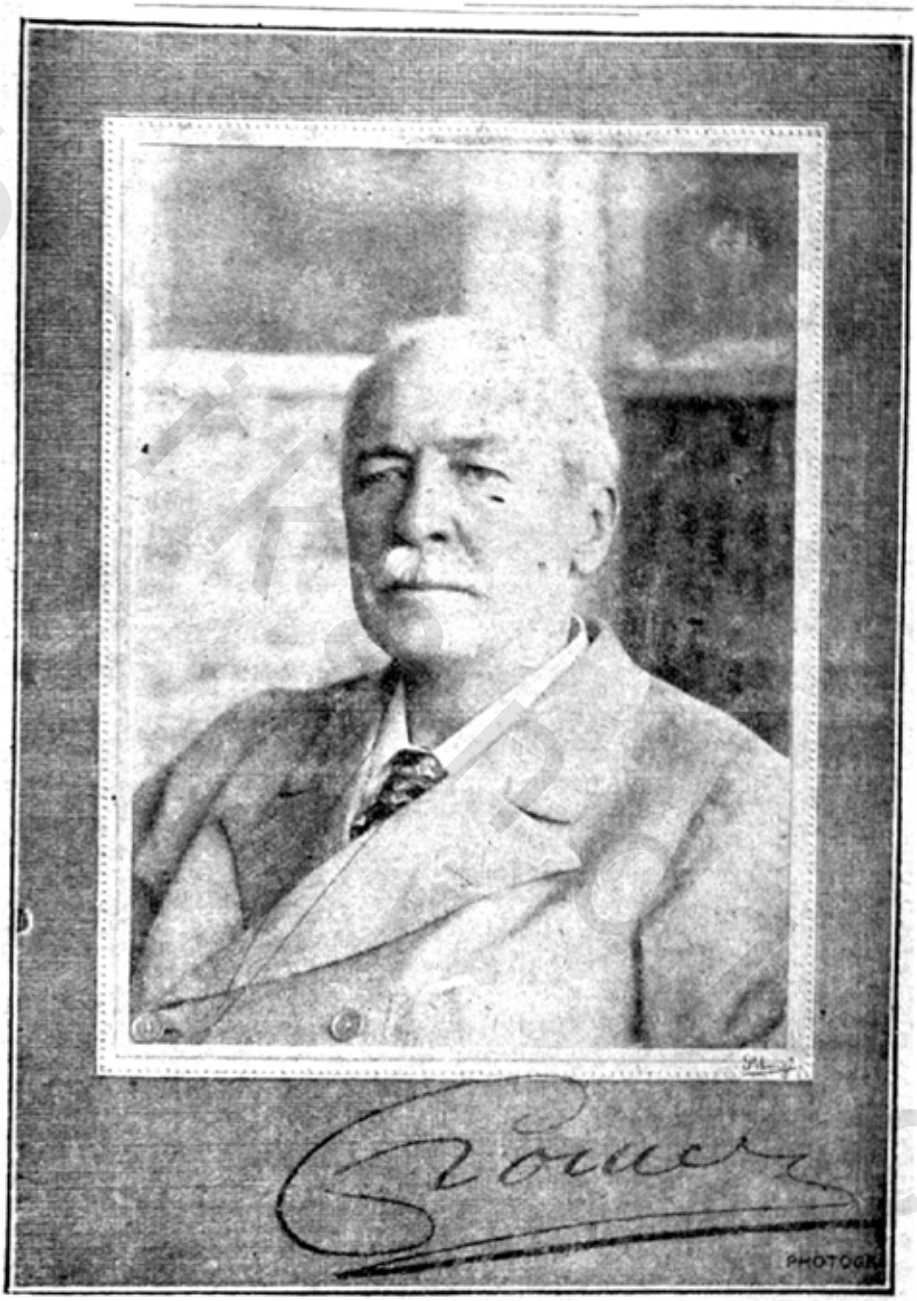

﴿ مصلح مصر ﴾

« اللورد كرومر »

كيف وقعت . أما الذين خبروا الأمور وعرفوا أنه أخرج فى حلمه واضطر الى ركوب هذا المركب الخشن ، يقولون انه لم يفعل الا بعض مايجب عليه. وأنا ذاكر هنا ماجربته بنفسى من كرم طباعه وما عرفته يقيناً من مؤازرته لأنصار الحق .

كانت بعض الجرائد الانكليزية كتبت فى وصف الجنس التركى فصلا هو غاية فى الذم . ثم ظهرت بعض الجرائد الحرة العربية فحذت حذوها. أما الجرائد الانكليزية فكانت ناطقة عما فى فؤاد المرحوم المستر غلادستون . فأرادت كشف الغطاء عن مساوىء الحكومة المستبدة التى انقلبت . غير أنها جعلت لومها خاصاً بالترك قياساً منها بأن الترك هم أولو الأمر فى تلك الحكومة . وأما الجرائد العربية الحرة فكان كلامها كلام من تجرع مرارة الظلم وعاش تحت أثقاله حتى عيل صبره . فهو كلام عثمانيين يشتكون عثمانيين . فآلمنى كلام الفريقين وأوهمنى اتفاقهما فى البيان أن هنالك قصداً آخر . فشببت الحرب يومئذ بينى وبين اخوانى أولئك وبالغت فى التعامل على أصدقائى الانكليز . ولما انشأ مراد الطاغستانى ميزانه وادعى الرئاسة على الأحرار زدت لهم بغضاً وذلك لأمور نقمتها على الطاغستانى لاأذكرها فى هذا الكتاب لكى لايشوبه شىء من أشياء لم تكن الا بين شخصين . وبذا خسرت ود كثير من اخوانى العثمانيين مثل الفضلاء أصحاب المقطم وخلانى النجباء وفى مقدمتهم الكاتب التركى الشهير على سعادبك وسليم سركيس افندى صاحب المشير وغيرهم . الا أن صاحب المشير لم يشأ أن يجعل خلاف الرأى خلافا قلبياً فكنا عدوين فى مناظراتنا وأخوين فى معاشراتنا . ولقد

حفظ غيبتي ووفى لى بوده . وأصاب اللورد كرومر من قلمى ما أصاب اخوانى العثمانيين .

هذه أشياء أذكرها مع ماأجد بذكرها من الألم لتكون عبرة لغيرى فلا يقع فى مثلها كما وقعت فيها . وانما يحزننى منها أنى أسأت الظن بقوم هجروا بلادهم لينقذوها من الظالم المستبد وأنى ظننت بالظالم خيراً فأخلصت له الود . كل ذلك أنفة أن يكون مثل الطاغستانى من حماة وطنى وثقة منى بان للطاغستانى آرابا يسرها بوطنيته الظاهرة . وشاء الله ان أزور وطن ميلادى الآستانة وأشهد مصارع الشهداء من اخوانى الأرمن وأقف على حقائق كانت عنى غامضة . ورجع مراد وترك زعامة الأحرار . فعدت الى مصر وكان عبد الحميد أصدر ارادته بجعلى مراقبا للجرائد مكان عبد الله النديم بعد موته فاستقلت بعد أن ذكرت الجرائد فى أقسامها الرسمية خبر تعيينى .

ويروق لى أن أذكر هنا واقعة حال جرت لى : ذلك أن المعية أنفذت الىّ أحد مستخدميها فى عصبة لا أعلم من رجالها الا نفراً قليلا . واناذ ذاك بالاسكندرية أريد السفر الى الآستانة لأرى عما لى كان هناك . فجاءنى الرسول فى عصابته ليلا وجعل يتوعدنى بالضرب والتحقير اذا انا لم أكتب له ورقة أقول فيها ان كل ما أدافع به عن عبد الحميد زور وبهتان . فكتبت له الورقة التى طلبها ودفعتها اليه . فلما كان الغد رجعت الى القاهرة وقصدت الى قصر الدوبارة ومعى اثنان من أصحابى فاستقبلنا المستر (بويل) وأظهر لنا من البشاشة والظرف مالا أنساه له الى اليوم وقام اللورد كرومر بمناصرتى خير قيام وبقيت الأمارة لاتدرى كيف تتحامى نبالى وكيف تخفض شماسى

ولو كان اللورد كرومر وسائر اخوانه الانكليز ممن يسرون الأحقاد لأغضى عن شكاتى ولأخرجنى من دار حكومته على أسوإ حال . هذا جميل لاأزال أذكره له وأشكره من أجله كلما هبت الشمال من بلاده تحمل أرج السلام ولاسجلن وده فى فؤاد لايكتم مايخجل صاحبه ولا يضيع بين مكنونه شئ من الجميل .

وما لاقاه المقطم من أعدائه أعظم. فكم تآمروا عليه جماعات وفصدوا الى ادارته ليضربوا أصحابه ويلحقوا بهم كل سوء فتعجلتهم الحكومة المصرية بحماة الأمن. ففرقوا المهاجمين ودفعوا عن المقطم شرهم . وكم حاولت حكومة الاستبداد كسر تلك الاقلام التى نمقت ديباجة المقطم والانتقام ممن صرت فى أناملهم فحال اللورد كرومر بينهم وبين مايشتهون .

ولما طاردت الحكومة المستبدة صاحب المشير وجدّت فى طلبه بما فى ذرعها من وسائل الشر وخاف ذاك العثمانى الحر على نفسه بغيها لم يجد أمامه من يستصرخ بعد له مثل اللورد كرومر. وانى لأقتبس من آخر عدد للمشير صدر بعد اعلان الدستور ماجاء بقلم صاحبه في حكاية واقعة قال :

دخلت ووقفت بحضرة الرجل الجليل فقال :

— ماهو مذهبك ؟

— بروتستانى .

من عادة البروتستانت أن يعلموا أولادهم الكتاب المقدس . فانت عارف حافظ لآياته .

— نعم .

ـ ألا تذكر قول الكتاب والأنبياء « لا تقل شيئاً فى رئيس شعبك. » و « يد الله على قلب الملك الخ ؟ »

ـ نعم أذكر ذلك .

ـ ولكنك تطعن على حكومتك طعناً جارحا . فانى قرأت بعض مقالاتك (وكان المشير يومئذ يصدر باللغتين العربية والانكليزية) .

— لو علم الرسل والأنبياء بمثل هذه الحكومة ما قالوا قولهم . فتبسم. فقلت .

— جنابك تقرأ عن مصائبنا في الجرائد ثم تنسى. وأما نحن فنشعر بها كل حين. وترقرقت الدموع فى عينى . فسكن روعى وصرفنى قائلا :

— اذا طلبوك فأنت لا تزايل مصر ان شاء الله :

فانصرفت مسروراً حتى اذا كان المساء دعيت ثانيـة وأنبأونى أن قد وردت تعليمات من انكلترا بعدم تسليم المجرمين السياسيين .

وما عضد اللورد كرومر أحرار العثمانيين وأخذ بناصرهم فى هـذه الواقعة وحدها ولا اكتفى من الجميل وتأييد الحق بمثل ولا مثلين . بل أخذ يواصل أعماله فيما هو ميسر له من المعروف . ولمَّا لجّت المعية فى ابادة الجماهير العثمانية الحرة وأبت فى ذلك بلاءها رأت أن تتم الفتح المبين بأخذ المطبعة العثمانية من صاحبها المرحوم صالح جمال . فدست له يومئذ من ساومه عليها عند أشد حاجته اليها . فلما أخذ ثمنها أو بعضه أقبل أناس من قبل المعية فعمدوا الى أبواب المطبعة فحموها والى دفاترها فختموها والى رسائلها فجمعوها . وبيناهم فى شغلهم بأعمالهم هذه اذا باللورد كرومر وقد طلع عليهم

طلوع البدر على ركب ضل عن الطريق. فاستخلص تلك الدفاتر والأوراق وأخذها الى دار الوكالة البريطانية وهى لا تزال محفوظة فيها الى يومنا هذا. وكان ممن شهد هذه الملحمة التى استعرت نارها بين الحق والباطل شقيق يوسف حمدى يكن أحد الذين جاهدوا مع الأحرار اذ ذاك.

ولو فازت المعية بتلك الدفاتر والكتب لاستخرجت منها أسماء كثيرين من المجاهدين العثمانيين القاطنين تحت سيطرة عبد الحميد. فمنهم من كان مشتركا فى جريدة القانون الأساسى التى كانت تطبع فى المطبعة العثمانية ومنهم من كان يوافيها بمقالاته وما يبلغه من أعمال الحكومة المستبدة. ولو عرف عبد الحميد أحداً من هؤلاء وهو يطاردهم فى ليله ونهاره لأنزل به نقمته ولأدلاه الى أسماك البوسفور أو كبله بالحديد حتى تفيض نفسه وخسرت الأمة العثمانية من أبنائها من هم عدتها ليوم شدتها.

وان بهذه الصنائع تمكن ود اللورد من قلوب المجاهدين العثمانيين وبها سيخلد له الثناء فى كتبهم كما خلد للأمة الانكليزية العظيمة التى منها نشأته ومنها أخلاقه. غير أن كثيراً من أهل المعرفة ومصطنعى الجميل بلوا بقوم بعادونهم حين لا داعية للعداء. كذا كان اللورد كرومر مع جماعة من المصريين حاولوا أن يكذبوا بأقوالهم فعاله وأن يغطوا بباطلهم على حقه. وما ذلك بضائره أبدا. غداً تشهد كتب التاريخ بفضله على من ينكرونه ويستغفر أبناء العصر الآتى لذنوب أبناء هذا العصر. وانما حدانى الى كتابة سطورى هذه ما يحدو بكل ذى كلف بالحق. وما باللورد من حاجة الى من يستنصف بكلامه. فقد استنصف لنفسه بكتابه الذى سماه (مصر الحديثة). فهو

الكتاب لا ينسيه القدم ولا تمحو سطوره الحقب . هكذا يظل منقوشاً على القلوب واذا لم تبلغ قصيدة من الشهرة مبلغ (قفا نبك) فلن يبلغ كتاب من الشهرة مبلغ (مصر الحديثة) . وكم كتاب وكم كاتب . ماقلت العظات ولا اقصرت الحوادث في الانذار ولكن بعض الأفئدة لا تهتدي الحكمة اليها السبيل .

﴿ بين التابع والمتبوع ﴾

هذا العنوان يذكرني قول شاعر الأمير في مطلع قصيدة له كان قالها بعد سنة ١٨٩٢ على وجه التقريب وهو قوله :

جددت عهد تواصل وتلاق * وعطفت مشتاقاً على مشتاق

لقد صدق الشاعر فيما قال وكم جرى القريض على لسان بغرض ولم يرده الضمير فوافق الواقع المقال : ثم مهجتان خفقتا معاً . وسكنتا معاً . فما استخف الشوق واحدتهما الى ركوب البحر الا أقلق الثانية حين أكرهها على الصبر . حتى اذا التقى البصر بالبصر أنشد لسان كل منهما قول ابن معمر العذري

ولما تلاقينا عرفت الذي بها * كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

وكأن فترة مابين عهد أبي الفداء وعهد فتاه سنة من نوم وكأن تلك الخلات تنوسيت على مرّ الأيام . فياله من يوم أغر محجل جلس فيه السلطان الخامس والثلاثون لاستقبال الأمير السابع من البيت العلوي وفتحت أبواب (يلديز) لمن ماشى ركاب الأمير من وفود المصريين وقيل لهم هذه جنة

الدکتور عبد الله بك جودت

ولی الدین بکه محبرزه

اخلاصی، علمی، قوت ایمانی الویریر:
انسانجه، قادر اولمادیغی طالب اولمادر؛
خلقک عمری، یا قاننه، یا دماغنه:
وارلغه جدالدر، یا شامه غالب اولمادر.
٧ سپتمبر ١٩٠٩ مصر
دوقتور
عبد الله جودت

obeikandl.com

الدنيا أزلفت لكم وتلك رياضها حصباؤها الدر وترابها المسك وتلك حياضها مترعة بصافي الخمر غير آجن ومدت الموائد وطاف عليهم مقربون يتلون عليهم بشائر من عند السلطان وانقلبوا بعد ذلك الى أهلهم فكهين .

ورأى بعد ذا جماعة من خلق الله أن يجعلوا بين التابع وبين المتبوع حرمة صهر ويجددوا لحمة نسب ألهمها الله الهامي باشا بن المرحوم عباس باشا الأول وزوج (منيره) سلطانة بنت السلطان الجليل عبد المجيد خان . وكاد يستدرجها الله بمدرجة النسيان . ولكن شتان مابين الصهرين . فما كان الهامي صاحب الأمر بمصر ولا من يرجى ليحكمها وقد أقام بعاصمة الملك العثماني وبقي عضواً بالمجلس الأعلى (مجلس والا) حتى جاوز ربه في سنة ١٢٧٧ بالغاً من العمر خمساً وعشرين سنة . أما غيره فليس كذلك . فهو صاحب بلد ووارث ملك ورب حكومة لايودع سريرها ليبدل به سرير نوم . وأميرات البيت العثماني لايزايلن عاصمة ملك هن كواكب سمائه . والى هذا نظر أبو الهدى وبه استمسك عند السلطان ولو كان بينه وبين خاطب ذلك المجد ود ووحدة قصد لاحتال له في نيل أربه ولكفاه أن يعود من الغنيمة بعد الكد بالقفل .

فلما باتت آمال المعية غير ذات نتاج وكبر عليها أن ينازعها أحد الدراويش حظوة القرب من عرش الملك بعد استنجادها بمثل جمال الدين وعبد الله النديم والشيخ ظافر وغيرهم وقفت النخوة العلوية بينها وبين (فروق) ودب الجفاء بين الأب وابنه . وفي سنة ١٨٩٤ قدم مراد الداغستاني الى مصر وأصدر بها (ميزانه) كما ذكرته في أحد الفصول المتقدمة فنزل بالمعية

على الرحب والسعة وأكرمت هي مثواه وانزلته منزل التكريم . وكانت استخدمت رشيد بك صاحب جريدة (بصير الشرق) معاونا بالخاصة الخديوية . فاتحد مراد ورشيد بك مع رجل بالمعية اسمه (ع) بك وبلغت الثقة بهؤلاء الثلاثة أن باتوا أصحاب الكلمة فى صرح الامارة ودانت لهم الرقاب وعنت لهم الوجوه . وبذا تباشر الناس وظن أكثرهم خيراً وأيقن المجاهدون فى سبيل الحرية ان سيرسل الله لهم ملائكة نصره .

واذ ضاق عبد الحميد ذرعا باستمرار الأحرار على مطالبته بالدستور ومقاضاته الى الرأى العام بما يكتبون من كتبهم وجرائدهم ورأى قومبسرية الدولة بمصر لاتبرم أمراً ولا تنقض رأياً وأنها شغلت عن أمورها بالصيد والقنص واقتناء الخيول ومواصلة الأسفار بين القاهرة والاسكندرية وأنها لاتتقدم صفوف المجاهدين فيتخذها عدوة له ولا تبدى له من دلائل الاخلاص مايحمله على الثقة بها والركون اليها . وبينا يصيح الظلم من داخل الفؤاد الحميدى: من لهذه المضلات يكشف غماءها ويجلو عن يقينها؟ اذا بهزت يناديه . أنا لها . والله لأنغمسن لك في نحيرها وأخوضن أهوالها ولأنفذن الى أعدائك نفوذ رمياتك الى قلوب شهدائك . وأرسل ابن هولو الى الامارة المصرية أن انفض ثيابك من غبار العار وأخلعى سرك وجهرك لسلطان البرين والبحرين ودعى قوما ينشدون ضالة أفقدها سوء المصير . فما استهلت سنة ١٨٩٧ الا استشعرت المعية بضرورة الاذعان . رأت نفسها نائية جانباً عن رضاء عبد الحميد مستهدفة لغضب الأنكليز وهى كلما عولت على ود امرىء خابت آمالها فيه حتى أصبحت كما قال الطغرائى :

فلا صديق اليه مشتكى حزنى ولا حبيب اليه منتهى جذلى

فاستخارت أولى مشورتها . فبذلت ألف جنيه اشترت بها ما عند الأحرار الذين بمصر من بقايا آثار وأوراق وكتب وجرائد وملأت بها صندوقا كبيراً وأنفذته مع (ع) بك الى الآستانه . وفى تلك الأوراق نسخ من رواية (كيوم تل) باللغة التركية ابتاعتها بمائة جنيه . وأرادت المية أن تجرى حينئذ على مصداق المثل التركى (رمى طائرين بحجر واحد) . فأوصت رسولها بالسعى فى حل المعضلة التى كانت استجدت فى وقف (فواله وطشيوز) فوقف أمام (يلديز) ولسان حاله يقول :

لى فى مماليك آمال أرجيها فهل سمحت بانشاد فأبديها .

وما لبث المعتمد ان طير رسالة برقية من (فروق) وقعت فى (المنتزه) مبشراً ونذيراً وعاد بعد ذلك يلتمع على صدره الوسام المجيدى الثالث وحق فيه قول القائل :

اذا كنت فى حاجه مرسلا فأرسل لبيباً ولا توصه

غير أن الأحرار لم يحملوا الود ولم يحفظوا الجميل بل انقلبوا على مدر المال ومفيض النضار وأصدروا جريدة (القانون الأساسى) بالعربية والتركية بعد أن كانوا يصدرونها بالتركية وحدها وأصدروا جريدة (عثمانلى) بالتركية والانكليزية . وقد أفادتهم الألف ليرة أكبر فائدة فأكملوا أهبتهم واتخذوا سلاحهم ونادوا الظالمين

ألا لا يحسب الأقوام أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا

ألا لا يجهلاً أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظروا الى (يلديز) ومن يتقربون اليها وأنشدوا ساخرين :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وبدل رضاء القصر الحميدي غضباً ونادى مناديه سيفاً ونطعاً. وخذلت المعية أحلافها وأنصارها وعاد الجفاء الى سابق عهده وكثرت الوشايات والسعايات. وبينا هي كذلك اذ حلت احدى النقم بحاميها وموئلها عزت العابد وكان أرسل أحد أبنائه الى مدرسة من مدارس باريس. فاتهم أحد أعدائه عند السلطان بأنه أرسل ابنه ليكون واسطة في مراسلته للأحرار. فبلغ ذلك ابن هولو. فبادر من وقته واسترجع ابنه وجعل يؤنبه على مخالطة الأحرار وقال لن ترجع الى باريس. ولكن الولد كان على علق لبه بتلك العاصمة الفاتنة وشجته شواطئ (السين) بجسورها العالية ومسارحها الحافلة. فأجاب اليها داعي الصبا وطار على أجنحة الشوق لا يلوي على من خلف وراءه من أب ولا غيره. فكم من وشاية يومئذ وكم من سعاية. لو أدرج ابن هولو في تلك الأوراق التي رفعها أعداؤه ليحطوه لكانت أكفانا له ولمن يلوذ به. فكان كالشاعر الذي يقول :

فصرت اذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ولقد أفلح الكاشحون وخر عزت على وجهه. فلزم بيته وانقطع عن (يلديز) وانقطع أصحابه عن طروق داره. وقال أبو الهدى وأحلافه ان ابن عزت لحق بأمير مصر ولجأ الى عابدين ورسل منها الى القبة فأفرد له مكان خاص به وبات ضيفا كريما بجوار مضيف كريم. فأشار على عبد الحميد جماعة من مقربيه أن ينفذ الى مصر جاسوساً ممن يثق بهم ليتنسم له الأخبار ويطلع

مولاه على مايدور بمابدين من الأعمال . فقدم مصر ذلك الرسول المتنكر مستصحباً معه آخرين جربهم وعرف حسن بلائهم . فكان هؤلاء الشياطين يرصدون قصر الامارة وجاسوسها (ز ...) يقتص أثر جماعة غيرهم ويواصل أسفاره من الرحمانية الى الفريبة الى الاسكندرية ولا يدرى ماقد رله فى الغيب .

ولما لاحت تباشير النجح على مادبره رجال عبدالحميد طلبوا المزيد . وقالوا اذا رميت فأجهز . فاستفزوا جمهوراً من أهالى جزيرة (طشيوز) واستقدموهم الى الآستانة مشتكين مما لحق بهم من الضر بقطع أشجارهم . طالبين نقلهم من الجزيرة الى موضع يكون بمعزل عن هذا الاعتداء . فكتبوا بذا عريضة وقالوا فى وقف (قواله) مالا أحب أن أقوله الآن . فوقعت العريضة موقع القبول عند خاقان البرين والبحرين وطيب نفوسهم ووعدهم النظر فى أمرهم والأخذ بناصرهم وبقى واحد من الجمهور بالآستانة ليأتيهم بما يتجدد من الأنباء .

وقد حدثت أمور فى دائرة الأميرة الجليلة الطيبة الذكر عصمت هانم بنت المرحوم الأمير طوسون باشا . وتلك الأمور هى فيما يتعلق بالأعمال الادارية . فقضت الحاجة بسفر الجنرال احمد جلال الدين باشا زوج الأميرة الى مصر للنظر فى مهام تلك الأمور . فظن رجال (يلديز) وخلصاء قصر الامارة أن سيقدم الجنرال مصر ليخاطب أحرار العثمانيين النازلين بها فى العودة الى الآستانة . ومنهم من أذاع بين الناس أن سيكون للجنرال موضع بالقوميسرية العثمانية ليرقب الغازى مختار باشا ويستطلع خفايا أعماله تخرصا وتلفيقاً . . فبادر (م . س .) باشا وأنفذ الى صديقه (م . ش) باشا كتابا يستبطئ فيه أعماله

ويذم سكوته وسكوت قصر الامارة ويظهر التعجب من تغافل صاحبه عن هذه الفرصة التي سنحت لاستعادة الصفاء بين التابع والمتبوع بعدما بلغ التجافي حده ويمده بالرتب العالية والهبات الجذلة . وما اتصل هذا الكتاب بيد (م . ش .) باشا الا ترك شواغله وانصرف عن همومه واستدعى الى داره صاحب (عثمانلي) وجعل يؤنبه على اصدار جريدته ويقول له ينبغي علينا أن نتكتم عيوبنا عن أعدائنا وأن نستر على زلات رجالنا . فما لكم تنشرون من مساوئنا ما انطوى . أتريدون أن نفتضح عند خصومنا فنمشي مذممين على ألسنتهم منتقصين في أعينهم . وعند سلطاننا لو شئتم ما يفرج المكروب ويحيي ميتة الآمال . فكان مخاطبه يسمعه ويتبسم ويقول ان مع العسر يسراً .

أما الجنرال أحمد جلال الدين باشا فلم يأذن له عبد الحميد بالسفر وقال له أنا أعرف أن الغازي مختار باشا حاسد لك وأعرف أنك صلب في عنادك وأخشى ان تذهب الى مصر فيقع بينكما مايستحدث أموراً عظيمة . فأخر سفرك في عامنا هذا وربما تدبرت لك في سبب جديد يؤدي الى مقصودك . فلم يجد الجنرال بداً من الرضاء .

وروى أن ابن هولو لما كثر مغالبوه وبدت لمنازليه مقاتله عمد إلى مصاولتهم بكل حيلة يتنبه لها ذهنه ولو كان فيها خراب الملك ودثور آثاره حتى عرف ذلك الأجانب قبل العثمانيين فقال له ذات يوم المسيو (كمبون) سفير فرانسا بالآستانة اذ ذاك . عجزت دول أوروبا عن حل المسألة الشرقية في أعوامها المديدة ويوشك أن تحلها أنت فيما دون العام . ونقل هذا الكلام ناقله الى عبد الحميد فحقدها عليه واستبقى الانتقام الى زمان يهون فيه الانتقام

وكان أعداء عزت والمعية المصرية واقفين لها بالمراصيد. فلما سافر البرنس عزيز الى نجد أقاموا (يلديز) وأقعدوها وبالغوا وفى صنف ماسيتلو ذلك من الفتن وقالوا هو أمر الخلافة آن لأعوانه آن يجاهروا به . ثم أظهروا القلق من ذهاب الأمارة الى جهة العريش وما برحوا بعبد الحميد حتى حملوه على أن يأمر بزيادة الجنود فى العقبة ليكونوا على أهبة اذا عاد الأمير مجتازا بالطور . فأيقن الحزب الهدائى أن النصر حالفهم وأن قد عقدت رايات المجد على سيدهم . وسخر الله للصيادى أمرين تذرع بهما الى الاثراء والايقاع بأعدائه . فقصد اليه أولياء وقف (طشيوز) وكالوا له المال كيلا . ولحقت بهم دائرة البرنس حليم طالبة مظاهرتها فى قضية العلماء والسيدة نزاكت هانم قبل أن نظرت بالمحكمة المختلطة بمصر فى ١٤ فبراير سنة ١٨٩٨ ووجد خليل الله هنالك صدراً رحيباً ومنزلا آهلا وحملت الهدايا البلورية من (كارلسباد) وكان الأمر مقضياً .

وبينا أبو الهدى وشيعته فى غرورهم يفرحون بما حل بعزت وأعوانه من خيبة وخسران اذ روعهم الله بالسفرة الشكيبية . فنزلت على رؤوسهم نزول القضاء المبرم . فبدلوا بأنس القرب وحشة النوى وبخفض العيش عناءه وطارت الرسائل البرقية بين السيد الصيادى وحبيبه بمصر : فانتعشت أرواح عزت وحزبه وأخذت الحظوة مأخذها الأول . فأصابت الأمارة المصرية حظها وقالت لست بتاركتك يا (يلديز) هذه المرة . واعتصمت بحبل منها لا يرث بتقادم الزمان وتقلب الحدثان . ولقد صدق المتنبي اذ قال :

بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ولا يطمعن القارئ الكريم فى بيان شئ من السفرة الشكيبية . فتلك

قصة تكفى فيها الاشارة ولا يحتمل الأدب من أمرها أكثر من الاشارة.

وقد رأى بعضهم همّ المعية ونصبها فى استرضاء أناس من الأحرار العثمانيين واسكاتهم والسعى فى ارجاعهم الى الظالمين ليجزّوا نواصيهم ويرتاحوا من صراخهم المستمر لايقاظ الأمة. فأجمعوا بينهم على أن يدعوا وجود جمعية سرية بمصر تسمى (جمعية شفق) وأن هذه الجمعية ذات شأن عظيم وأن لها من الأسرار مالو كشف عنه الغطاء لحارت فيه العقول فطربت المعية لهذا الخبر طرب الثمل وقالت فى نفسها: ألآن دار فلكى سعداً وأتانى الدهر مسالماً. غداً أستطلع هذه الخفايا وأبعث بها الى (يلديز) كعبة الآمال. وما كان الا مثل رجع الطرف واذا على أبوابها أقوام أكلت السنة المحلة غواربهم ومناسمهم. أقبلوا يدفع بعضهم بعضاً. فقيل لهم هاتوا ماعندكم من الأسرار. قالوا بل هاتوا أنتم ماعندكم من الدنانير وأسمعونا رنينها فى أكفنا وأرونا لمعانها بأعيننا فتلك المفاتيح لهذه الكنوز. فانفتحت لهم ميازيب الجوتهمى نضار خالص وما ناب المستخبرين من (شفق) الا احمرار بقى كالورس على وجوههم.

وقد كاد يفوتنى ذكر (الماركى) المشهور. الذى كان معتمد احدى الدول العظمى بمصر. فلقد كان مستشار الامارة باطناً وصديقها ظاهراً. وثقت بوده وأخذت برأيه حتى أحدث الجفاء بينها وبين اللورد كرومر. وكان (الماركى) يبشر الامارة بقرب خروج الانكليز من مصر ويمدها من لدن حكومته بالنصر والتأييد. فذاع بين الناس أن هذا المستشار أشار على الامارة بالسعى فى انتحال الخلافة، مظهراً لها مكان الدولة العثمانية من الخطر. مذكراً اياها بأن الخلافة أخذت من مصر وأنها ستعود الى مصر. زاعماً أن دولة أيدت محمد

على الأول حتى تبوأ سرير الامارة المصرية لجديرة بأن تتوج سليل مجده بتاج الخلافة . فوقعت هذه البشائر من القلب التقى وقع القبول ولكن عظم المطلب وقلة الأنصار ثنيا عنان الصبا . وهنالك لعبت أنامل الرقباء فجاءت الأنباء ساكن (يلديز) وفيها من الزيادات ماقدر على ايجاده أربابها . وكان من تلك الزيادات أن المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني والمرحوم عبد الله النديم المصري سبقا الناس الى اقرار البيعة بالخلافة الجديدة للخليفة الجديد .

وليس في قراء كتابي هذا من يكون نسي كيف كان غضب عبد الحميد وكيف حظر على الامارة المصرية أن تزور الاستانة . كما أنه ليس بينهم من نسي كيف ساء هذا الغضب المعية المصرية وكيف بذلت جهد طاقتها في استرجاع الرضاء الحميدي . لو شئت أن أستقصي تلك الأعمال لرأيت هذه الصحائف أضيق من أن تسع قليلها . غير أني لست تاركاً كل ما أعلم . ولا أريد أن أخرج من هذه الدنيا كاتماً حقاً أنا من شهوده . وتأبى ذمتي أن يعلن الدستور العثماني وينقرض أشياع الاستبداد فيظهر بعد ذلك بعضهم مغالطين قائلين : الآن نلنا المراد . هذا عيدنا ويوم فوزنا وماهو بعيدهم ولا بيوم فوزهم لو أنصفوا قليلا .

نعم ان المعية حاربت أحرار العثمانيين وحاربت حرية الأمة العثمانية بأسرها . هذا أمر ينبغي أن يسطر في تاريخها . فهي هي التي استعانت على جماعة من شبان العثمانيين بذهبها وحاجتهم وقد قطع عنهم المدد وامتنع عليهم الرزق . فلما غلبتهم على أمرهم وجهتهم الى الاستانة . وقد اتخذت ذلك عادة لها . فصارت كلما صفا ماينها وبين (يلديز) زادت في الاقتراح . فيوماً تطلب الفوز بوقف

ويوماً تطلب الانعام بقصر. وكلما تكدر ذلك الصفاء عمدت الى استفزاز أناس من أسرى الاغتراب ومطرودي الحظ فقدمتهم على مذابح الظلم.

والى القراء أسماء اخوان لى عرفتهم بالآستانة وبمصر ثم التقيت بهم فى سيواس وقد نفوا اليها بعد أن توسطت المعية فى عودتهم الى الآستانة وضمنت لهم أن لا يمسهم بها سوء.

فائق افندى الملقب لقصره (بكوجك فائق) أى فائق الصغير. شوقى افندى. صلاح الدين افندى. فائق افندى. خالد افندى. توفيق افندى. وقد ارسل مع هؤلاء مصطفى وجدانى افندى ولكنه نفى الى جزيرة رودس ونفى أيضاً ستة آخرون الى جهات مختلفة وهؤلاء كلهم احياء يرزقون. أقاموا نحو العشرة أعوام فوق جبال سيواس يلاقون من مشاق الاغتراب وآلام الظلم مالا يصبر عليه غير المجاهدين. وما قيل فى المعية لهم أننا مشترون ذمكم ومساوموكم فى وطنكم بالمال. بل قيل لهم أنتم أنصار الحرية وجنودها المتطوعون. ونحن معجبون بما أنتم قائمون به من مناصرة الحق والذود عن الوطن. ولكن تعلمون أن مثل عملكم يحتاج مالا كافياً ورزقا موصولا. وأكفكم اليوم صفر من المال. واذا طال الأمر ربما كنتم عيالا على اخوانكم الآخرين. وعندنا الرأى الصواب أن ترجعوا الى بلادكم وتكفوا أنفسكم ذل الحاجة فى هذه البلاد التى لا تعرفون لغة أهلها ولا تجدون لكم فيها من الكسب مايقوم بأمر معاشكم. ولكم علينا ان نستعطف عليكم السلطان. فاذا جاء عفوه ذهبتم الى وطنكم وهنالك تتقاضون من الرواتب ماتجعلون بعضها اعانة لسائر اخوانكم المجاهدين. فاذا تأمل المنصف فى متكلم هذا الكلام ونظر

الى حال سامعيه وفيهم أناس لم يذوقوا طعاما منذ يومين — قد سخر منهم أهل مصر وقالوا هؤلاء الصماليك يريدون أن يصلحوا الدولة العثمانية — عرف كيف كان اضطرار اولئك الغرباء المجاهدين الى الرجوع وكيف كان فوز المعية عليهم .

وقد أوفدت المعية بعد ذلك بعض أبناء (بدر خان) باشا الشهير الى الآستانة وكان لهامع أحدهم واسمه صالح بك حرب عوان وشأن لا كالشؤون

وأين هذا من وافقتها مع المرحوم محمود باشا (الداماد) وولديه الأميرين الحرّين . فتلك لعمر الذمة احدى الكبر . رأت عبد الحميد يجتهد في استرجاع ذلك المجاهد العظيم الى الاستانة لينتقم منه ويصب عليه وعلى ذويه أسواط عذابه . وكان الداماد بباريس . فخفت المعية اليه واستقدمته الى مصر واعدة اياه بموآزرته وتخفيف حاجته ليواصل جهاده مكفيّ الحاجة مطمئن الفؤآد . فخدعته ظواهر المقال وأقبل مع ابنيه يؤم منزل الكرم وينزل بساحة المجد ثم أقام أياما لقي فيها من أقلام السفهاء وأحلاف الباطل ما استكت له مسامعه . وما راعه الا قائل من المعية يقول له ارجع الى الآستانة ولك عليّ أن أطلب لك العفو . فما بلغ هذا الكلام سمع الأمير صباح الدين أكبر أنجال الداماد الا تطاير الشرر من عينيه . وقال لأبيه اذا كنت تنوى الرجوع فأنا لا انوى الرجوع وخرج من عنده حنقاً وسافر من ساعته الى باريس مستصحبا معه أخاه واضطر والده الكريم أن يلحق به الى عاصمة الحرية وبقي يواصل فيها جهاده مع شبليه حتى قبضه الله اليه .

كذا كان ما كان بين التابع والمتبوع . يختلفان فيتذرعان الى الوفاق بكل

ذريعة ولو ذهبت بأرواح العباد . ويتوافقان فيتبادلان الهدايا والتحف. وهى اما قصور شيدت بدماء الأمة واما اوراق بالية مما حبره فحول كتاب الأحرار واما شبان هجروا أوطانهم واستخلفوا للفقر والذل أهلهم وعشيرتهم فى سبيل الوطن فتخرب تلك الدور ليعمر قصران أحدهما صرح الخليفة وثانيهما بيت الامارة .

ومالى لا أذكر في هذا الفصل ماوقع للمرحوم صالح جمال صاحب المطبعة العثمانية مع المعية من أجل مطبعته . فذلك مما يحلو ايثاره مع ماسبق بيانه من المكارم . فقد أتت المعية فى سياستها تلك بأساليب من الخدع الحربية تصفر لها الأنامل . وجهت من قبلها رجلا ليشترى المطبعة العثمانية حين جرى ماجرى بين صاحبها وجماعة من جمعية العثمانيين الأحرار فيما يرجع الى حساب المطبعة . فما برح هذا الرجل يغالى فى الثمن حتى وقف عليه البيع . فأراد أخذ المطبعة بما فيها من كتب وأوراق ودفاتر . ولما أبى ذلك رجال الحزب حجز رجل المعية على المطبعة بما فيها . وكانت المعية تريد أن تستخرج من تلك الدفاتر أسماء المشتركين فى جريدة القانون الأساسى وأن تأخذ رسائل من يراسلون الأحرار من اخوانهم المقيمين فى البلاد العثمانية لتبعث بذلك كله الى عبد الحميد . فينتقم هو منهم كما يريد . وقد كبر الأمر على أحرار العثمانيين فأرسلوا بعضهم الى اللورد كرومر يعلمونه بما هم صائرون اليه . فاخذ تلك الأوراق الى دار الوكالة البريطانية ولا تزال فيها الى اليوم. وبذا مكن الله عدله وخلص مئات بل ألوف من الأحرار كادوا يقعون فى مخالب المفترس الكاسر لولا اللورد كرومر . وقد أشرت الى هذا فى أحد

الفصول المتقدمة فى معرض الكلام عن مصلح مصر ونصير العثمانيين .

ولقائل أن يقول . كانت السياسة تقضى اذ ذاك بمثل هذه الأمور: ولو ان المعية شاركت الاحرار فى جهادهم لأدى ذلك الى مسائل قد لا يصل الى كنهها القادمون . فأقول هذا يجوز غير انه ليس فى الناس من طالب المعية بشىء هو فوق وسعها . ولقد كان في القدرة ان تتغاضى وتترك هؤلاء المجاهدين فى جهادهم غير متعرضة لهم بخير ولا بشر . فاذا عذلها عاذل من جراء ذلك فالجواب هو تقول : بلادنا حرة. وأنا لا أقبل لى بمخالفة النظام ولو أمكن لى منع هؤلاء لفعلت. واذا لم يكن للمعية بد من مطاردة الأحرار واسترضاء المستبد فيكفيها أن تكلف أحد رجالها مخاطبة الأحرار ظاهرا فى الكف عن الحروب القلمية وأن تدع ذلك يذكر لها فى صحف الأخبار فتسقط فى مجادلتها حجة الظالمين .

ولكن أمراء الشرق الا قليلهم ، يحبون الاستبداد طبعاً . ولهم فى ذلك فلسفة لا يفلح في تخطئتها برهان . فقد لقنوا منذ صباهم عقائد من قوم يفتون بتحريم الشىء فى يومهم ثم يفتون بتحليله فى غدهم والحال واحدة ومأخذ الحكم واحد . فأيقن هؤلاء المسيطرون المتألهون أن الله خلق العامة من أجل الخاصة وخلق الرعية لتؤنس الملوك فى وجوههم فكيف يطمع بعد ذا صاحب عقل أن يدخل ذرة من الانصاف فى تلك القلوب .

يسافرون الى أوروبا أم يؤتى لهم بأساتذة أوروبيين ليتعلموا منهم ما يتعلم أمراء أوروبا ، لا يفلحون . سواء عليهم علموا أم لم يعلموا . أنصفوا أم ظلموا . هم الملوك يجب أن يقدسوا . وأن يقرن ذكرهم الى ذكر الله

هذه صورة الرجل الحر . العثمانى، الصادق حسين بك طوسون أحد نخبة الضباط الذين يفتخر بهم الوطن وقد فاتنى ذكره سهواً في عداد اخوانه الذين خلصهم من الاسر غير مبال بما يقع فيه من الخطر وقد فر الى أوروبا ثم عاد مختفياً كما يراه القارئ فى صورته هذه وبقى سجيناً حتى اعلن الدستور فخرج من السجن بهذا الزى الجركسى الجميل

واذا لم يكن ذلك كذلك . فما لهؤلاء المؤرخين يذكرون لنا فى كتبهم عواقب ماصار اليه الباغون . أكانت بينهم وحدة مصلحة فتواطؤا على الكذب وافتروا اثما وبهتانا على ملوك زمانهم أم هذه زيادات تخرصها المتأخرون

وكان عبد الحميد رجلا جاهلا لم يتذوق لذة العلم ولم يتحلّ بشىء من الفضل . وكان يكاد يكون أميا ولقد بلغنى أنه لم يتمكن من قراءة اية ورقة من غير أن يساعده عليها مساعد . ولقد زار بعض العواصم الأوروبية مع عمه عبد العزيز . فشغل بتجسس أخيه المرحوم السلطان مراد عن أن يستفيد شيئا من آثار العلم والصناعة فى تلك الأقطار . وما نشأ الا فى قصر تضاحكه الولائد فى حرمه ويسجد له المماليك لدى بابه . فاذا جلس جلس اليه المتفيقهون الثرثارون وعلى رؤوسهم تلك العمائم التى لا أجد ما أشبهها به غير رؤوس البصل . فيفيضون له فى وصف الحور والغلمان وكيف تزوج بهرام جور بنات السبعة ملوك كما ذكر فى كتاب (هفت پيكر) وما كان من قبيله . غير أن صاحبنا ليس كذلك فهو أمير أدبه أبوه فأحسن تأديبه وراضت شبابه مدارس الملوك وأخذ ماعرف من علومه عن أساتذة من رجال الفضل ونخبة أهل البلاد المترقية فى العلم . أما لو كان عبد الحميد موزوراً فما صاحبه بمأجور .

وانى ممن لاحظتهم العناية وخطروا على باب الامارة . فقد سعت للايقاع بى وأنا بالآستانة ووشت بى الى عبد الحميد فاحلنى السجن ونفانى بعد ذلك الى سيواس كما سيأتى ذكره فى فصل خاص . فلها علىّ حق الكرامة ولن أبرح أشدو بتلك المنن حتى يذهب ربيع الحياة .

كل هذه الاحن كادت تنطوى صحائفها ويسدل عليها ظلام النسيان .

ورأيت قومايطرون الامارة بما لم يكن فى سوابق آلائها . فقلت ياسبحان الله!! أهذا مبلغ انصاف الناس ؟ أبسمة واحدة في آن واحد تنسى بكاء مئات من عباد الله طوال الليالى . ورسول كان جاسوساً يصبح الآن شفيعاً ويظل قبرك ياصالح جمال مهجوراً لا يزوره زائر ولا يحييه فى طريقه سائر . وتستقرين أيتها الأجسام الطاهرة فى أجداثك المجهولة حزينة أرواحك في آخرتها كما كانت حزينة فى دنياها . وتسير تلك المواكب خافقة أعلامها متسابقة بشائرها ويصف العثمانيون اجلالا لمن حارب اخوانهم تحت رايات عبد الحميد . ياويل تلك الضمائر ما أصبرها على الأذى وما أغراها بهوى النضار!!!

روحى أيتها الأرواح المستطارة من أقفاص الفناء الى فضاء الأبد لا تتحاومى على مزدحم الآمال . ارجعى الى بارئك مستصحبة غيرك من أرواح الشهداء فى خالية العصور . قولى يارب تبكى الشيعة على شهيد كربلاء وتبكى كل أمة على شهدائها . وهالك أهلنا باتوا غارقين فى الحداد . سرقومنا بمجدكنا سلالمه وداسوا بعد ذلك قبورنا ونسوا بلادنا وأكرموا أعداءنا . فخذ بحقنا ما لنا سواك من نصير .

أخليتمادارى أيها القصران وأخليتما دور اخوانى وأقصيتمانى سبعة أعوام طوال أتت علىّ فى ريق الشباب وزالت عنى وقد بلى الجسم . وحكمتما على هذا الخاطر بالجمد وقد عودته على جولات طالما اعجب بها المتأدبون ورفعتما السدود بينى وبين آمال تخذتها ذرائع الى مكافحة الحوادث فى ذودى عن وطن أنا من أبنائه . وما رجعت اذ رجعت الا وقد ابدل البيان حصرا والشباب كبرة والبأس وهنا والأمل يأسا ورأيت منكما المقال ورأيت منكما المودود .

فايه يادهر يا أبا العجائب . ما أعرفك بمواضع النقص من بنيك !!!

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

﴿ أنا فى حزب الأحرار ﴾

الوطن يشكو ظالمه

حتى م تبكى العين طال البكاء   أما لحزن بت فيه انقضاء
قد خنتنى يادهر قد خنتنى   ما كنت أحجولك قليل الوفاء
ان أبد ما بى يمينى سرده   أو أخفه يزدد بطول الخفاء
ماتت أمانىّ ولما أمت   أحيي اذن لليأس لا للرجاء
كيف أعزى القلب عما مضى   ويل لقلب ما له من عزاء
مازلت أدعو للهدى معشراً   ضلوا فلما يجد طول الدعاء
ضاع ندائى حين ناديتهم   لولم أضع ما ضاع ذاك النداء
هذى رسوم قد محاها البلى   وذى قصور قد علاها العفاء
فحيثما تسع تجد مأتما   باك ومبكى وآبى البكاء
ليس صباح بصباح لهم   ولا مساء لهم بالمساء
فى ذمة الله رجال قضوا   طال بهم تحت القبور الثواء
لا التاج ذاك التاج من بعدهم   ولا بهاء الملك ذاك البهاء
ياأرض ميدى انها دولة   مادت وأنت اضطربي ياسماء
تشق (جراغان) بسجنها   ويجتلى بيعته من يشاء

يارب هذى كعبة شيدت ... ركنا وهذا خاتم الأنبياء
أساءنى بينهما ظالمى ... وقد كفى بينهما أن أساء
عاش المدى أرضى وطاء له ... عيشا هنيئا وسمائى غطاء
أعدم قوما بت أرثيهم ... وآلهفى ماذا يفيد الرثاء
كانوا غيوثى بت لاغيث لى ... كانوا نمائى فمدانى النماء
أقول والظلم بآفاته ... يحتث للملك مطايا الفناء
لا ييأس المكروب من فرجة ... ولا عليل أبداً من شفاء
العدل سلطان شديد القوى ... ينصره الله بجند القضاء

هذه هى أبياتى التى استهللت بها كتابى الذى كنت سميته (مائة برهان وبرهان على ظلم عبد الحميد السلطان) . أذكرها هنا لا استدلالا بها على بلاغة معنى أو فصاحة لفظ فليس بها شيء من صناعة الكلام سوى الوزن والروى . وانما أريد ان أستعيد ذكر أيام خلت كان فيها هذا اليراع شاكيًا ولم يكن مثل يومه حاكيا.

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر دسمبر سنة ١٨٩٧ دخلت ادارة المقطم وولجت مكتب الاستاذ الدكتور فارس نمر . فنظر فى وجهى مليا يريد أن يتعرفنى جيداً. فقال هل من حاجة فأقضيها . وكان يحسبنى أتيت المقطم لعمل من أعمال الادارة. فدفعت اليه مقالة عنوانها (نرجع الى الجواسيس) فلما وقع نظره الى الامضاء مد نحوى يمينه مصافحا وقال أهنئك بتطوعك لخدمة الوطن وأهنىء الوطن بقلمك . وأسس الله المودة فى قلبينا منذ ذلك العهد.

ولقد قلت فى آخر تلك المقالة ما أنقله الى هذا الفصل بحرفه وهو :

(هذا قلم أرنّ القوس صائب الرمية عرفه من هنالك . فلأجرينه حتى لاتبقى من دار الظلم لبنة على لبنة وبياض على سواد ولأسيرن قوارعه شزبا فى كل قائم الاعماق شاسع الأطراف الى أن يقول نصير الحمية لبيك ونستريح واخواننا مما نحن فيه .)

على أننى لم أنل شرف الاستمرار على خدمتى وكان خلاص الوطن على يد قوم رآهم الله أجدر منى بهذا الفخار .

أجل قد طهر الله حزب الأحرار من مراد الداغستانى ولو بقى فيه لما سطرت فى مناصرة الأحرار حرفاً واحداً . فقد كان عبد الحميد ظالماً وكان مراد محتالا . وكان عبد الحميد يحب الواشين وكان مراد يود أن لا يكون له واش غيره . فلم ترض نفسى أن أجتمع معه ولا على خدمة الوطن وخلاصه . هذا عناد يؤاخذنى عليه كل ذى انصاف ولكننى لا أستطيع له انكارا . ولتبق لى هذه الجناية مسطورة في سجل آثامى بهذا القلم الذى أصبح غازيا فى حرب الاستبداد .

ولقد قضت عثمانيتى أن أقف الى جانب المجاهدين من أبناء وطنى حين خفتت أصوات كثيرة وخيل لى عجب الشباب أنى أستطيع أن أنفع بلادى . فشاركت يومئذ الاستاذ الفاضل محمد أفندى تدرى العثمانى في كتابة بعض الفصول بجريدة القانون الأساسى . فساء ذلك رجال الاستبداد . ورفعت القوميسرية العثمانية تقاريرها الى عبد الحميد حتى خيل له أن ولى الدين اذا استمر على الكتابة قامت القيامة . فقصد سكرتير القوميسرية محسن بك منزل المرحوم ابراهيم باشا يكن وطلب اليه أن يكون وسيطاً له فى اسكاتى . فكان

جوابي له جواب من لا يتزحزح عن موقفه وواصلت الاجتهاد بعزم أشد النهابا وأمضى نفوذاً .

ثم جاء مصر أحد وكلاء الدعاوى وخاطب في أمري كثيراً من الناس . فمنهم من تخلى عن مشاركته ومنهم من أراد مشاركته ولكن غير واثق بالنجاح . فقابلني ذات يوم رجل من رجال الصحافة وقال لي أرجوك أن تغدو عليّ غداً في داري . فان عندي رجاء اليك أريد أن أحملك قبوله. ولكن لا بد من التكلم معك كلاما طويلا حتى تعرف حقائقه . ولما كان الغد ذهبت في الميعاد المضروب الى دار ذلك الداعي . فاذا هو يتطلب المقدمات لمحادثتي في الأمر الذي دعاني من أجله . فتعرفت ذلك في وجهه . فقلت له هات ما عندك موجزاً فان وقتي لأضيق من أن أضيقه فيما لا يجدي . قال

— جاءني منذ يومين صديقي فلان. وهو من وكلاء الدعاوى بالآستانة. وقد أسلمني مقالة شديدة الطعن يزيف بها أقوالك في ذم السلطان ورجاله وفيها من الأدلة على بطلان دعاواك مالا يدحض . وطلب مني نشر المقالة في جريدتي . وأنا استمهلته الى أن أراك وأخاطبك في ترك الخصام وأدعوك الى الهدون . فما رأيك في ذلك ؟

قلت : — اني ليحزنني أن تؤخر نشر مقالة ربما كانت لك من ورائها منافع. هذا وينبغي لرجال الصحف ان لا يحابوا فيما يظنون أنه الحق. وأنا أقرأ ماتكتبه. فاذا رأيتك مصيبا فيه اعترفت لك بالحق ورجعت عما يتبين لي أنه باطل . واذا رأيتك مخطئاً رددت عليك قولك أو تركتك واياه جانبا وآثرت السكوت . وليس من الانصاف أن تهمل نشر مقالة تعرف أنها ناطقة

بالصواب وتدع صاحبها ينتظرها بغير طائل .

قال — أنا لم أخدع صاحب المقالة . وكما أنك صديق هو أيضا صديق ولكني أردت أن أقرب بينكما وأن أجعل اتفاقكما بالحجة .

قلت — مالي وله . كل يعمل على شاكلته . واذا كان صاحبك يرى عبد الحميد بريئا مما يوصم به فليبق كذلك . لعل له عذراً ونحن نلوم . ألا ترى أنني أقمت زمنا أدافع دون عبد الحميد ولم يرجعني عن الاخلاص له جدال ولا دليل الا ما رأيته بعيني وجربته بنفسي . وعسى أن تعلم الأيام صاحبك من مثالب سلطانه مايقلل أنفته ويكسر من عزمه . ثم هممت أريد الانصراف . فأمسك مخاطبي بذراعي قائلا تمهل ريثما نتفق معك على أمر .

قلت — أراك غير تارك يومنا فماذا تريد ؟ دع الاشارات وهات ماعندك من الأمر الصراح .

قال — أما وقد أبيت الا البيان . فهاك ماعندي . يريدون أن يرجعوك الى الآستانة كما فعلوا بمراد وغيره . وهذه فرصة لايضيعها عاقل . وقد علمت أن مرادا مقيم هناك بحال يحسده عليها السعداء . ومن يمنعك اذا أنت أحرزت هنالك جاها منيعا أن تنصر الحق وتنفع اخوانك وبلادك . ولا أكتمك أن السلطان مل الاشتغال بامر الأحرار أو كاد . فاذا هو أهمل يوما أمرهم وأرسل حبل كل على غاربه وعما الله آية ظهورهم أخاف عليك أن تحشر يومئذ في زمرتهم وتلاقي من الاهوان مايلاقون . ومالي ولهذه الأحاديث في غير جدوى . أنا ضمنت للرجل بمالي عليك من الدالة أن ألاقيك به . فهل أنت واعدي بذلك ؟ فما دون الزيارة شيء لو أجبت اليها . تعال غداً

ولنذهب اليه معاً .

قلت : — لا ضير . وفارقته على أن أعود اليه فى الغد . فلما آن موعد اللقاء جئت داره فاذا هو فى انتظارى . فحملنى فى عربته وانتهينا الى منزل رحيب بجوار البنك العثمانى فى القاهرة . فاستقبلتنا سيدة علمت بعد ذلك أنها حليلة غريمى . فجلسنا اليها وأقبلت علينا تحادثنا . فاذا هى شرقية مقيمة على شرقيتها فى كل أطوارها . مع أدب غض وعقل راجح . وبينا نحن كذلك اذ وافانا الغريم . فرأيته قد تبادل مع صاحبى نظرتين فاجأهما منى لحظ شاعر يرمى الأغراض طائرة فيصيبها وتم بيننا التعارف . ثم أراد أن يبدأنى باللوم على ماجرى به قلمى . ولكنه وقف غير متقدم فى شوطه وأيقن أن مثله لايجادل مثلى . فاختار الصراحة غير تارك مكره وقال :

— سمعت عن ولى الدين من أصحابه أنه يجل عن أن يتهم فى ذمته . وأنه لايقاس بغيره ممن كشفت الأيام عن مكنونات ضمائرهم . وقد رأيت فى مقالاته مايؤيد قولهم . ولكننى مولع بمناظرة الفضلاء . وأرى أنه لو دخل فى خدمة الحكومة العثمانية وصدق فى خدمتها كما تقضى به عثمانيته أتى بلاده بالخير الجزيل . أجل ياولى الدين ان الحكومة العثمانية فى حاجة الى اصلاح مابها . فقد أشكلت أمورها واشتدت خطوبها وعظمت بلاياها وما دواؤها الا من كان مثلك ممن لا يخشى فى الحق لومة لائم .

قلت — ان بلاداً تبيت فى حاجة الى مثلى لجديرة بالرثاء . واقدرى أنا بين الرجال حتى أصلح ملكا كبيراً أريد فساده من يوم خلقه .

قال — أنت لا تستطيع أن تصنع وحدك شيئا . والجنرال أحمد

جلال الدين باشا لم يسع فى استرجاع الأحرار الا لأمرين . أولهما وعد السلطان له باعلان الدستور بعد رجوعهم . ثانيهما جعلهم في وظائف يساعدون بها اخوانهم على ذلك . ولست وحدك فتستعظم الخدمة . بل هنالك آخرون ولوهم أموراً لا يقدر على تدبيرها غيرهم . ونحن لا نختار للوطن الا من نثق بمضاء عزيمته وصدق نيته . ولو لم أكن سألت عنك الثقاة من أصحابى وأتبعتك نظرى على غير علم منك حتى وقفت على جلية أمرك لما سميت فى التوصل الى محادثتك . ولك الرأى فى القبول وفى الرد . ثم اعلم أنه جاءنى أناس ممن يدعون الانتصار للحرية وطالبونى بالاتفاق معهم على اسكاتهم وساومونى ذمهم . فكان حظهم منى الاغضاء عنهم . ولقد بلغت الجرأة من بعضهم أن توعدونى بذمى فى جرائدهم اذا أنا لم أجبهم الى مطالبهم . فلم ينالوا منى سوى الخذلان .

قلت — أفارقك الآن وأعود الى بيتى فأتدبر الأمر وأتبين دقائقه ولى من أثق بآرائهم ولا أستغنى عن مشورتهم . وأنا من أنصار الشورى فلا يجوز لى اهمالها في أمورى بعد ماقضيت بوجوبها فى أمور الناس . ولا أبث أن آتيك بما يقرّ عليه رأيى . ثم ودعته وانصرفت مع صاحبى وفارقته هو أيضاً وعدت الى بيتى .

هذه الذكرى تبعث الشجون وتقف بالمرء موقف الشك حتى فى ذاته . فوالله ما أدرى أتعجيل مغنم أم حب وطنى استخفنى !!! ظلمات ليلتى مفكرا أطالع صحائف الماضى من تاريخ حياتى . فاذا بالأربع وعشرين سنة من أيام عمرى اذ ذاك لاتنى باستنتاج عبرة ولا بمعرفة صواب . شباب منشأه الشرق

وعجاله الشرق وأيام خلت بين الدفاتر والأقلام فى تصوير خيالات لا حقيقة وراءها . ومكتسب نزر من العلوم يكاد لا يعد شيئاً . أريد ولكننى لا أدرى ما أريد ولا كيف أريد. قلت أظل أخدم الحرية حتى ينصر الله جيشها وتحقق على بلادى رايتها. ولكن الرجل أخبرنى أن خدمتى تؤخر حصولها . وأن السلطان لا يضمن بها اذا اختار السكوت طالبوها . قلت أذهب الى الآستانة وأقيم فيها على مناصرة اخوانى المجاهدين وأعمل على خير وطنى . فلم يعدنى الشك وقلت من لى بمن يضمن لى صحة ذلك . ثم من هذا الرجل الذى سخره الله لى ليقف فى وجهى ويقيد يمينى حتى لا تخط فى سبيل الحق حرفا ويكمّ فمى فلا ينطق فى نصرة الحرية كلمة ! وماله علىّ من سلطان وأنا فى مأمن من كيده اذا شاء أن يكيدنى ! وهل هو صادق فيما يخاطبنى به أم يريد أن يسرق منى فؤادى . ولقد نظرت الى صور من جاهدوا فى سبيل الحرية وهى معلقة أمامى على الحائط . وفيها أبو الأحرار وحاميهم مصطفى فاضل العظيم وشاعر الوطن وعاشقه وشهيد هواه نامق كمال. فخيل لى أنهما يرميان الىّ بألحاظ ملؤها عتاب . كأنهما يريدان أن يقولا لى أكذا حبك لبلادك ؟ أنت لا أقال الله عزتك، جندى خائن . اعتقلت سلاحك وبرزت فى ميدان الحفاظ . ولما رأيت التماع النضار بأيدى الأعداء ملت اليهم وتركت من وراءك من أعوان نجدتك واخوان غزوتك غير متلفت نحوهم. ألهذا رجونا كم يا أعقاب السوء وعباد المال وحثالة رجال البأس . فأقف صامتاً واجماً لا أدرى ما أجيبهما به غير أنى قلت ليس بينى وبين الجماعة الى الساعة أمر مبرم فأوخذ به . وأنا لو شئت لألتهم من بغيتهم طول الحسرة

عليها . وعقدت العزم على أن أخاطب من أثق برأيه وأعرف بعد نظره .

ولما كان الغد بكرت نحو مستشارى فأطلعته على قصتى من أولها الى آخرها وقلت له . الآن لك حكمك .

قال — ياولىّ الدين سافر على حب الله ومن أحب الوطن أحب الموت فى سبيله . فاذا صدق القوم فى وعدهم وأقرّ عبد الحميد الدستور . فحسبكم أن تكونوا يومئذ غارسى أعواده ومجتنى ثمراته وان نابكم من خطبه ماعساه يكون أضمره فتلك سبيل ان منكم الا واردها . وانه ليسليكم أنكم ذاهبون فى خلاص الوطن . ثم اعلم أن الجنرال جلال الدين لا يقاس بغيره من المقربين . أولئك يبيعون أولادهم ابقاء على حظوتهم . والجنرال لا يدخل فى مأزق يشك فى الخروج منه . وهو اذا استشعر تحت الأمر بشر يؤثر الموت على أن يعيش متهما فى ذمته .

قلت — غدا يذيع بعض المفسدين بين الناس أنى سافرت الى الاستانة طلباً للمال وأنى بعت وطنى بيعاً .

قال — دع الناس وما يقولون . ما سلم من ألسنتهم أحد قبلك فتسلم أنت . أنت فى شأنك وانفع وطنك اذا استطعت له نفعاً . فان كان فى الناس من يعرفك حق المعرفة فقد كفيت عنده شر الملامة وان كان فيهم من لا يعرفك فبينك وبينه الأيام . أنت رجل بغير نصير . ولو كان لك حزب يتحدث بصنائعك ويبلغك بالمدح عنان السماء لاستقام فى عليائه جدك وأقبلت دولتك . وبينا نحن نتحادث اذا بخادم مستشارى الجليل يستأذن لغريمى . فأذن له . فدخل علينا مسلما وأطلعه مستشارى على ما خاطبنى

به ولم نلبث أن تم بيننا التراضي على سفري .

ولقد رأيت كثيراً من رجال الحرية وأنصارها الذين لبوا دعوة عبد الحميد وتسابقوا اليه يرجون ثوابه يحاولون اليوم انكار ما كان من عودتهم ليقول الناس انهم كانوا معذورين . ومنهم من يقول أنا كنت آخر الراجعين ومنهم من يقول أنا لم أرجع . وكل هذا تضليل وبهتان . بلى هو أعظم من التضليل والبهتان . وياخجلة المرء عند نفسه أن يكون منافقا وأن يكون جباناً . ووالله ما أدري ماذا يرجون وماذا يتقون . فان كانوا يرجون أن يجازوا بالوظائف العالية وأن يسير خلفهم العامة هاتفين ليحيى أبطال العثمانية ليحيى حماة الدستور : فهذا فخر ابتذل حجابه وبات جديده خلقا . وان كانوا يتقون ماينزل بالخونة والجواسيس من العقاب وعلموا أنهم هم الخونة والجواسيس . فتعسا لهم أن جعلوا الخوف الى اللؤم . وفي خلة منهما مايغني عن أختها . لعمري لنعم المناط للعدل عقدة حبل تقضي بها للعدل حقه . وأنا امرؤ رجعت الى الآستانة رجوعا ليس فيه مايخجل الحر ومن أجل هذا أقول غير مستشعر خوفا ولا آمل نفعا . لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على أعيش عثمانياً وأموت عثمانيا

ولنرجع الى ما كنا بصدده :

كتب غريمي الى الجنرال أحمد جلال الدين يخبره بما كان من رضائي . فجاءه الجواب بسفري مع والدتي وأخي يوسف حمدي بك . فسافر غريمي معنا الى الاسكندرية وفيها نزلنا بنزل (أبات) ولقد رأيت على باب النزل فخري باشا ومحمود شكري باشا . أما الأول فلم يكن يعرفني الا اسما . واما

الثانى فكان يعرفنى جيداً ولكنه لم يكن محباً لى بعدماجرى بينى وبين المعية. فاشار غريمى الى الأميرين بيده واضطرنى الى السلام عليهما . فحييانى أجمل تحية وانصرفت . وقد قال محمود شكرى باشا لغريمى : أما وقد أخذت هذا فهات المدافع وارم بها أى (قصر) شئت.

ولما استقرت قدمى على ظهر الباخرة المسماة (توفيق ربانى) وأقلعت بنا تؤم (فروقا) بين آذى البحر وزبده وأخذت يد الفضاء ويد الماء تطبقان على البر جرت على لسانى هذه الأبيات التى أذكرها هنا لاشارات فيها لاتخفى على اللبيب . قلت :

قد دعانى داعى فروق اليها ... فاجبت الدعاء حين دعانى
أنا أهوى بين البلاد فروقا ... وهى أيضاً بين الورى تهوانى
وتمر الأيام لا أنساها ... وتمر الأعوام لاتنسانى
ياربوع الهوى بأية كأس ... قد سقانى فيك الهوى من سقانى
بلبل مشتك وورد سميع ... انظروا كيف يصنع العاشقان
خبر الناس أيها النيل عنى ... واشهدا معه أيها الهرمان
لم أودعكما ملالا ولكن ... وطنى فى خطوبه نادانى

كذلك انقضى ذياك العهد . وانطلقت بنا السابحة الهوجاء فى وخدها وخبها صافرة زافرة . حتى اذا كان أصيل اليوم الخامس بعد الرحيل ارتفع لنا دخان علمنا أنه الأرض ثم تعاقبت البيوت البيض بين الأشجار الخضر فاذا نحن بمدخل الخليج

سلام عليك أيها الوطن . ياأملى وجنتى . يا أيها البلد الذى لم تغيبك

عن روحي مرامي النوى . ولم تتغلب على تذكرى اياك ملاهى الصبا .
تفقدك ناظراى فى محاسن الأشياء فاذا بك تتمثل فى أشدها علاقة بالنفس .
وتطلبك خاطرى فى معانى الكمال فاذا أنت ديوانها المرتب . سممت
سويجع الأثلاث على مطاولة المذبات ففلبتني الغيرة عليك ووددت لو مزجك
الله بروحي مزجا . الآن أحس بالعجز عن ايفائك من الوصف حقك . ولو
كان كتابي كتاب رواية أو أدب لأطلت الكلام بما أقضى به بعض مايجب
علىّ نحوك . ولكن هل ذلك نافعي فى هواك . وبي من الشوق اليك مالو
كان بالبحر لفيض ماؤه . وبالأرض لسالت شعابها

﴿ مقامي بالاستانه فى جمعية الرسومات (الكمارك) ﴾

خرجت في الفصل المتقدم عن أسلوب المؤرخ الى أسلوب الشاعر .
ماحيلتي ! هاجت فؤادى ذكرى أيام مضت . وللطرب مقادير كما للأسف
مقادير . وحسبي ماتقدم قد تأدت وللقارىء الكريم من سجية العفو
مايستطرد قلمى على قرطاسى .

أنا ولدت بالآستانة وخرجت منها فى نحو الثالثة من عمرى . ثم زرتها
مابين سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ . فاقمت بها حولا كاملا وانثنيت الى مصر كما
أشرت الى ذلك فى أحد الفصول التى مرّت . وبقيت بمصر نحو الثمانية
أشهر وأخذت الى الآستانة . فكانت هذه هى المرة الثالثة التى قدّر لى أن أنشق
ريّا تلك الربا وأعلّ صافي مياهها وقد صدرت الارادة الحميدية بجعلى عضوا
بجمعية امانة الرسومات (مجلس ادارة الجمارك)

فدخل بي فى قاعة رحبة تدور بجوانبها مكتبة واحدة مصنوعة من

الخشب ، سوداء اللون ، مكسو اعلاها بالجوخ الأحمر وتدور معهامن جانب دون جانب كراسى مصفوفة مكسوة ايضا بالجوخ الأحمر . تلك مقاعد الأعضاء . وفى صدر المكان مما يلى الجهة اليسرى من مدخل القاعة مكان الرئيس الأول والى يمينه مكان الرئيس الثانى واسم كليهما رضا بك . وفى المكان مكتبة صغيرة امامها كرسى . ذلك مكان كاتب الجمعية يجلس فيه ويتلو على الاعضاء مايجب أن ينظروا فيه من المضبطات وغيرها .

فلما قدمت الى الرئيس الأول أو رضا الأول رحب بى قليلا وأكرمنى بسيجارة لم يمهلنى الى استكمالها وأشار بيده الى المكان الذى خصص لى (بعد أن علم أنى من أصحاب الرتبة الثانية من الصنف الثانى !!) فكان مكانى قريبا من باب القاعة من الجهة الواقعة على يمين الداخل . فما استقر بى الجلوس الا وارتفعت أيدى الأعضاء مشيرة بالتحية فاجبتهم بمثلها أو أحسن منها وظللت مكانى لاأدرى ماسيكون من أمرى . ولم ألبث أن جيء لى بقهوة يمانية فى فنجان مذهب كبير كأنه الدلو . فجعلت أعب فيها عبا ولا أمصها مصا وانى لأجيل طرفى يمنة و يسرة لأرى مايصنع أولئك الأعضاء رجال الدولة الذين شرفنى الله بأن حشرنى فى زمرتهم . فرأيت بعضهم يقرأون أوراقا متراكمة أمامهم ثم يجعلون تحتها توقيعهم ورأيت بعضهم يوقعون على الاوراق من غير أن يقرأوها ورأيت بعضهم يتسارون ويتغامزون ورأيت بعضهم يتسللون الى خارج القاعة الى حيث لا أدرى مايصنعون . ثم يرجعون . كل هذا وأنا فارغ اليد من العمل . جالس كالصنم غير المعبود . فعرانى السأم وكاد يتغشانى الكرى وقد استطال لبثى كأنى مجذوم بين صحاح .

فتقدم نحوى الرئيس وأشار الىّ ان اتبعنى. فتبعته الى حجرة معاون أمين الرسومات. وامين الرسومات بمنزلة الناظر والرسومات أمانة أى (مصلحة). والأمين رجل ممن أحرزوا رتبة الوزارة اسمه نظيف باشا. كان ناظر المالية. والمعاون رجل اسمه محمد على بك ممن نالوا رتبة البالا (تأتى دون الوزارة) وكانت كلمة المعاون أسرع أثرا وأمره أمضى نفوذا. لأنه كان متزوجا أخت امرأة الباشكاتب تحسين. فدخل رئيس الجمعية حجرة المعاون ودخلت أنا على أثره فرأيت مكانا ضيقا فى صدره مكتبة أمامها كرسى عليه رجل عظيم الجثة ذو لحية أوروبية سوداء الى اصفرار. كبير العينين وسيم الوجه فقدمنى اليه الرئيس وبعد ذلك سأله عما يجب فى أمر تحليفى.

فقال المعاون لا بد من انتظار الأمين وسيحضر غداً. فخرجنا من عنده، ولما كان الغد دعيت الى حجرة الأمين فرأيت فيها الرئيس ومكتوبجى الأمانة (السكرتير) والمعاون وكاتب الجمعية يتوسطهم الأمين. وهو رجل طويل القامة أسمر اللون يحسبه من يراه أول مرة أحد كتاب بيت المال. له لحية كالرغوة. ووجه كالصك العتيق. فسألنى الكاتب ان كنت توضأت. فقلت لا. قال لا بد من الوضوء. قلت لا أعرف كيف يتوضأ الناس. فنظر فى وجهى باهتا وسكت. فأقسمت للجماعة يميناً وهذا مضمونها. «أقسم بالله لأكونن صادقا للحضرة السلطانية والدولة العلية ولا أنحرفن عن الأمانة فى جباية أموال الدولة.» نطقت بهذه الكلمات واضعاً يمناى على المصحف. فلما انتهت اليمين هنأنى الحاضرون وعدت مع الرئيس الى قاعة الجمعية.

فما استقر بى الجلوس الا جاءنى الكاتب بأوراق بعضها فوق بعض فتركها

أمامي . قلت في نفسي . هنا يزل قدمك ياولى الدين . أين أنت من أعمال الكمارك . وهل هذه مثل أبياتك وفصولك . تنقش بها طروسك وتتلوها على مستمليك . فمددت يميني وأخذت ورقة من تلك الأوراق . فوالله للغة اليابان او اللغة الهيروغليفية أقرب الىّ منها فهما . لم أجد الا أرقاما بازائها كلمات ومصطلحات لاعلم لى بواحدة منها . فتركت هذه الورقة جانباً وأخذت أخرى غيرها لعلى أجد فيها شيئاً يصل اليه فهمى . فاذا هى اسوأ حالاً وأحكم عقدة . فظللت حائرا لاأدرى ما أصنع . وقد اشتد مابى . فبقيت أتناول ورقة وأطرح ورقة كأنى فى حانوت وراق وأنا كلما أوغلت فى الاختيار زدت عجزا عن الفهم . فرجعت الى التى أخذتها أولا . فوقعت عليها ثم أتبعتها بغيرها ولم أزل حتى أتيت على الجميع . وكان الرئيس يلحظنى شذرا ويعجب بى ظنا منه أنى أفهم هذه الأشياء . فلما آن أوان الانصراف دنا منى قائلا أكثر الله من أمثالك . ضقت والله ذرعا بهؤلاء الذين تراهم على مقاعدهم فليس فيهم من يدرى ماذا يعمل . وما للجمعية منهم الا هذا الغرور الذى تراه . وقد رأيتك تتأمل الأوراق تأمل من لا يدع لفكره شبهة فى عمله . وانى لأرجو أن تكون نافعا لنا .

قلت في نفسى بعد ماشكرته : اللهم هذا ثناء باطل وعبدك هذا مخطىء وأنا ابعد الناس عن معرفة مادعيت له . ولكننى سأجهد النفس فى معرفة ما أجهله ولو كلفنى ذلك أشد النصب .

فخرجت ولم انتظر خروج الرئيس . فمشى أمامى الحجاب يوسعون لى الطريق وأنا احيي من يقفون لى اجلالا . وانا جى الله فى ضميرى ان

يهب أصحاب المقطم من الضعف ما وهبني ليؤخذوا الى الاستانة ويكونوا أعضاء بالمجلس العلمي في باب مشيخة الاسلام وأن يكون سليم سركيس وكيلا لأمين الفتوى .

ثم مرت الأيام وأنا لا أنقطع عن مكان وظيفتي باذلا قصارى الهمة في نمو أمورها والمعرفة باساليبها. فكنت أسمع بأسماء بعض الأعضاء ولا أراهم . أولئك أبناء المقربين والمحتمون بجاههم . كانوا يتقاضون رواتبهم غير مكلفين أنفسهم تعب الحضور الى مقر وظائفهم لأخذها بل كانوا يرسلون من قبلهم أناسا يأخذونها لهم .

ولقد تعارفت في جمعية الرسومات ببعض أعضائها معارفة لم تزد على المحادثة في حجرة (الاستراحة) وتباطي السلام. وبقي آخرون لم أر وجوههم واني لأجهل الى اليوم أسماءهم. فقد كنا نحو الثمانية والأربعين عضوا. ما كان يحضر منهم الى وظيفته غير العشرين . فمن عرفتهم من أعضاء الجمعية رفعت بك هو حفيد فؤاد باشا الشهير الذي توفي في فرانسا. كان فر الى اوروبا ثم استرجعه السلطان حين استرجع مراد بك. وهو رجل حسن المحاضرة طيب الطباع ولكنه كان مولعا بشاربيه أكثر من ولعه بأعماله . فما جالسته يوما الا رأيته يبرمها ويرفع طرفيهما تشبها بامبراطور المانيا . ومنهم راسخ بك وهو ابن المرحوم عابدين باشا الشهير الذي كان واليا على جزائر الأرخبيل وذهب الى (يلديز) طالبا الاذن له في البقاء بالاستانة وجعله صدرا أعظم . فسقوه قهوة ما استقرت في جوفه ساعة حتى قضى نحبه في القصر وأخرج الى بيته ميتا . وراسخ بك هذا شاب مهذب الأخلاق طاهر السريرة. عرفته

قبل دخول الجمعية. غير أنى لا أجد بداً من الاعتراف بأنه كان من المتناهين في الكبر والغرور. ولا أنسى قوله لى يوماً وقد جلس قبلها الى جانبى ثلاث مرات من غير أن يكلمنى كلمة واحدة: كيف حالك ياسيدى البك وقولى له: كما ترانى منذ ثلاثة أيام. لم أتغير فيها أبدا. فلم يحر جوابا واختار الصمت.

ومن رفاق بالجمعية حكمت بك. غير الذى تقدم ذكره. وقد نفى الى سيواس بعد نفيى اليها. فصار رفيقى فى منفاى أيضا. هذا رجل أحبه كثيرا. وأنا أؤاخذه على خلات وددت لو نزهه الله عنها. رأيته يحسد بعض أصحابنا. ورأيته يتزلف فنهيته فانكر علىّ ذلك وكان يحب (الدوندرمه) كثيرا. أبصرته ذات يوم أكل منها ستة أطباق متتابعة. وكنت حين أمازحه بسيواس أذكره بذلك فنقوم بيننا القيامة. ومنهم رفعت بك وهو من أسرة كردية لها مكانة بين الأكراد. نعم الرجل هو لولا تنسكه وتورعه. كنت أرتاح الى محادثته لولا ما يدخل فيها من أحاديث العبادة والتقوى حتى لتكاد روحى تزهق ضجرة. ومنهم على ساجد باشا وهو من أحرار العثمانيين. شديد المضاء فى حريته. يكاد يكون كاتبا مجيداً. بلده ازمير. سافر منها الى الاستانه طالبا امتياز جريدة يصدرها بازمير. فوشى به بعض الجواسيس الى السلطان وقالوا يريد أن ينشىء هذه الجريدة ليبث فيها الأفكار الحرة شيئاً فشيئاً. فرأى عبد الحميد أن يجعله عضوا بجمعية الرسومات ووعده براتب قدره عشرون جنيها فى الشهر. ثم لم يخصصوا له سوى نصفها. ووعده الصدر الأعظم اذ ذاك وهو خليل رفعت باشا بأن سيزاد له باقى راتبه بعد زمان قليل. فأخذ على ساجد يكتب له الكتاب وراء الكتاب يذكره بوعده. متوعداً اياه بالخروج من الاستانة. ثم هبت عليه نفحة

من نفحات الشباب فأرسل الى الصدر الأعظم رسالة برقية قال له فيها : كنت أرجو أن تعرف قيمة وعد المظلوم ولكنك حمار . فأخذه من الجمعية وأرسل الى قسطموني منفيا وبقي هنالك الى أن أعلن الدستور . والله ما كابد هذا الشاب من الظلم وما ذاق من مضض العيش على عهد والي قسطموني المستبد خائن الوطن وعدو أبناء آدم أنيس باشا . تلك مصائب لا أعادها الله ولا أعاد أيامها . وكان علي ساجد يألف معاهد اللهو وينقطع الى لذاته . فلم يعجبني منه سوى اقدامه على المخاوف وجرأته على الظالمين .

أما رفاقي الذين لم أرهم على مقاعد وظائفهم ولا مرة واحدة . فمنهم حسن خالد الصيادي الرفاعي القرشي الهاشمي المدني الحلبي وهو ابن أبي الهدى وسبق الكلام عليه . ومنهم انجا زاده عبد الغني الطرابلسي . كان صفي أبي الهدى ثم تهاجرا . فلجأ عبد الغني الى عزت العابد وباح له من أسرار الشيخ بما لا تستقيم له هذه السطور . واضطر الهدى الى مصالحة أستاذه وطلب الاذن له بالذهاب الى الحج . فأذن له السيد ودس له من رماه برصاصة ذهبت بحياته . ومنهم كيلاني زاده ... باشا . أصابه من لؤم الصيادي ما كاد يقضي على حياته . وغير هؤلاء كثيرون نسيت أسماءهم ولا أذكر منها اليوم واحداً .

هكذا ذهبت أيامي بجمعية الرسومات تأتي الأوراق مكتبتي فتستقر عليها ما شاء الله ثم تنتقل الى غيري وليس لها مني سوى التوقيع .

ولشد ما كنت أضحك اذ يجس أحد الاعضاء الزر الكهربائي الكائن أمامه فيسرع اليه الحاجب في ثيابه المخملة ويقف أمامه مكتفاً يديه منتظراً اشارته فيرفع الفظ عند ذلك رأسه قائلا : هات قدحا من الشاي أو هات

obeikandi.com

طبقاً من (الدوندرمه) . فأقول : قاتلكم الله وأنا معكم . ياعيال الحكومة وطفيليتها . وملوك المقاعد وعبيد الرواتب . لو أنصف الدهر لنال هؤلاء الحجاب مكانكم ولأصبحتم أنتم مكانهم . فهم أصدق منكم خدمة وأنفع سعياً . آه ياعبد الحميد ما أبصرك بقلوب رعيتك . أخذت أنت مالا تملك ووهبت من لايستحق . وجعلت خزائن ملكك نهباً مقسماً بينك وبين اولى المطامع .

لم أشك تأخر راتب ولا طول كد . غير أن الذمة وقفت بيني وبين ذلك الخفض الذي كنت فيه رأيتني أنقد المال وليس لى فيه حق . بحبس القروى ويضرب لكل قرش من قروشه وأنا قاعد على الكرسى الفخيم يسير الحجاب بين يدى ليوسعوا لى الطريق . تلك لعمر الله سرقة سيعاقبنى فؤادى عليها ولو عفا الله عنها .

فقلت أبعد بذلك المال وأبعد بتلك المقاعد وكتبت الى السلطان رسالة برقية أسأله فيها نقلى الى وظيفة أحسن القيام بمهامها . فرأى أن ينقلنى عضوا الى المجلس الأعلى بنظارة المعارف مع زيادة مرتبى زيادة تبلغ حد الكفاية . فصدرت الارادة السلطانية بذلك . فأسرعت الى جمعية الرسومات وودعت من استطعت أن أراه من رفاقى وداع من لا يرجو التلاقى أبد الدهور وخرجت أيمم نظارة المعارف وأنا لا أدرى أفيها أحد يعرفنى أم ليس لى فيها أحد . فدخلتها خائفاً متردداً كمن يلج غابات لا يدرى ماوراءها .

﴿ أنا بنظارة المعارف ﴾

قلت أرى أن أذهب الى (المحاسبه جى) وهو بمنزلة مدير الحسابات

فى الحكومة المصرية . فأرسلت اليه بطاقتى مع الحاجب . فبادر الى استدعائى لعنده . فلما توسطت حجرته نهض واقفاً وتقدم نحوى خطوات ومد الىّ يمينه محيياً . وهذا المحاسبه جى رجل اسمه شكرى بك الحسبنى . ينمى الى بيت من بيوتات الحسب فى المقدس . قدم الآستانة فصاهر أحد الباشاوات المعروفين وبذا نال من الترقى ماجعله بالمكان الذى رأيته فيه . فلما جلست اليه أقبل علىّ يحادثنى . فأخبرنى أن زهدى باشا ناظر المعارف لم يحضر وسألنى الانتظار الى وقت حضوره ليدخل بى اليه ويعرفنى به . قلت ما فى الانتظار من بأس . ثم مالبثنا أن أخبرنا الحاجب بحضور الباشا . فتركنى شكرى بك مكانى وبعد دقائق قضاها عنده جاء فاخذنى معه وأدخلنى الى حضرته . فاذا هو رجل كهل بادن منتفخ الوجه ذو لحية بيضاء تبدو فى خلالها شعرات سود هى من بقايا ماترك الشباب فتقدمت مشيراً بالسلام . فرفع يمينه قليلا جواباً لسلامى وأومأ الىّ أن اجلس فجلست . ثم التفت نحوى ليكلمنى فقال :

— هل سبقت لك خدمة فى الحكومة ؟

قلت — نعم كنت من أعضاء جمعية الرسومات . بقيت فيها نحو العامين . والآن نقلت الى المعارف .

— هل حلفت اليمين القانونية ؟

— هل يبقى مستخدم فى خدمته عامين ينظر فى أعمال الحكومة من غير أن يحلفوه اليمين ؟

— حسن . وماذا تعرف ؟

— لاأعرف شيئاً .

وكيف يجعلونك عضواً بمجلس المعارف الأعلى اذا كنت لا تدرى شيئاً .
أمدرسة هذه جىء بك لتتعلم فيها ؟

فرأيت كلام الرجل غليظاً كطبعه فقلت فى نفسى : الرأى أن أكلمك بما تفهم فاللهم عفواً عما سيجرى على لسانى . لا أنطق به مختاراً بل مضطراً وقلت . اعافات انى لا أعرف شيئاً ، تأدباً . والا فانى من أكبر الراسخين فى اللغة العربية واللغة التركية . يشهد الملايين ممن قرأوا ما أكتب أنى من شعراء الطبقة الأولى ومن الكتاب الآخذين بنواصى الكلام . نظرت فى العلوم قديمها وحديثها قريبها وبعيدها فأصبت منها الحظ الأوفر . هذا وأنا أحسن الكتابة والكلام باللغة الفرنسوية وأخذت من فنون علمائها ما لم يفز بمثله غيرى . ولى مؤلفات بالعربية والتركية هى حجة العلم لنقض الجهل . فجعل الرجل يستمع حديثى ويتأمل وجهى كمن يريد أن يبلو محدثه . فعلمت أنى كبرت فى عينى هذا الناظر الغبى وأيقنت بعدها أن خير ما يحفظ للمرء كرامته فى عاصمة الملك العثمانى هو أن يكون مدعياً لما ليس فيه من المزايا . وكان شكرى بك جالساً أمام زهدى باشا غارقاً فى صمته يصغى الى حديثنا ولا يشاركنا فيه . فقال له الناظر مشيراً نحوى بيده : خذ هذا وادخل به الى المجلس . فسلمت وخرجت وأنا لا أدرى كيف أكتم ضحكاً يكاد يغلب على هنالك . فأمسك شكرى بك بيدى ونزل بى الى قاعة المجلس الأعلى .

فلما ولجنا الباب رأيت مكاناً رحباً فى وسطه مكتبة مستطيلة كالخوان على طرفها الكائن بصدر المكان رجل كالقبرة يكاد لا يجده متفقده لولا عمامة كقرص من الجبن الكريتى تشرف على مكانه . وعلى الجانب الأيمن

للداخل أعضاء كلهم معممون وعلى الجانب الأيسر آخرون على رؤسهم الطرابيش . فتقدم بي شكري بك الى الجالس بصدر المكان وغمز ذراعي قائلا : هذا هو الرئيس حيدر افندي . ولما صرنا أمامه قدمني اليه وتركنا وانصرف . فدار الرئيس بعينيه في الجلوس ثم التفت نحوي قائلا :

ما ثم مكان خال . الأعضاء أكثر من الكراسي عددا . فاجلس الى جانبي حتى يخرج أحد الجالسين فتجلس مكانه . وخاطب الحاضرين يعرفهم بي : فسماني لهم وبالغ في مدحي كما أسر اليه شكري بك قبل انصرافه . هنالك ارتفعت الأيدي بالسلام وابتسمت الثغور ترحيبا . ثم خرج بعض المعممين فجلست مكانه . واني لأجيل ناظري يمنة ويسرة لأنظر ما يصنع هذا الجمع . فرأيت في الموضع القريب من باب القاعة رجلا ربعة القامة . كث اللحية أسودها ممتلئ الجسم على ناظرتيه (نظارة) بيضاء يقرأ بها أوراقا أمامه ويوقع تحتها فدلتني هيأته وأطواره على أنه رب فضل . وعلمت بعدها أنه أمر الله بك الشهير . وكان في مواجهتي رجل نحيف الجسم ذو لحية سوداء أيضا اسمه راسخ افندي . حادثته قليلا فظهر لي من حديثه أنه أصاب حظا من العلوم الآلية وأنه يقول الشعر ويجيده بالتركية والفارسية على الأسلوب القديم . فقلت في نفسي هذا مجلس المعارف الأعلى . ولا بد أن يكون هؤلاء الرجال من جلة أهل الفضل والمتقدمين على كثير من علماء زمانهم . فخير لمثلي أن يختار السكوت لكي لا ينكشف جهله وتصاب مقاتله . فاذا تعودت الأعمال ووقفت على حقائق الأشياء أتيت لهم بما يتجدد لي من رأي تكون وراءه فائدة تستفاد .

وبينا نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لى انه أحد كتاب قلم المجلس . قد زرر (سترته) أدبا وأمسك أوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هى على يسار الرئيس فوضع عليها الأوراق ووقف ينتظر الأمر. فقال لى راسخ افندى :

ـ الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغى أن ننظر فيه من الأوراق . فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى . فاذا رآها على مايجب وافق عليها واذا رأى موضعاً للاعراض اعترض. فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وأنا أسمعه وأتأمل حال الأعضاء . فرأيت واحدا يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثا. وآخر يكتب كتابا . وثالثا يأكل الحمص . ورابعا أثقل النعاس هامته. وخامسا يقرأ جريدة فى يده . واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانىء :

كأن أرؤسهم والنوم واضعها على المناكب لم تخلق بأعناق

فهالنى مارأيت حتى خيل لى أنى بين جماعة من أبناء السبيل نزلوا بدار مطعم وأقاموا ينتظرون غداءهم . واستمعت مايتلو الكاتب . فاذا هو استئذان من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لاصلاح أنابيب المياه فى مدرسة من مدارس البنات لايحضرنى الآن اسمها . فلما انتهى الكاتب من التلاوة وشرح الرئيس للأعضاء مجمل ماتلاه . قال أحدهم :

— فليكن

آخر — لا . لايكون أبداً .

ثالث — ولم لايكون ؟

رابع — نعم . صدق فلان . هذا لايكون أبداً .

خامس — أنت لاتدرى من هذه الأمور شيئاً . تكلم فيما تدريه ولا تشغلنا بهذرك هذا .

سادس — أرجو أن لايطول هذا الجدال والا اضطررنا الى الدخول معكم فيما لانريد .

الرئيس — كفى كفى . يظهر لى أنكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش .

الجميع وفيهم المخالفون — نعم نعم . كلنا نوافق .

فوالله مارأيت مشهداً هو أنفى للصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناى . فيالك من مبرك ابل أنا أحد أذواده . فعاودنى هنالك شيطانى ونفخ فى أذنى نفخته . فقلت لمعمم كان باركا الى جانبى :

ـ ماقدر ميزانية المعارف ؟

ـ لاأدرى .

ـ كيف لاتدرى ثم توافق على احتساب مبلغ منها ؟

ـ وما يعنينا نحن من ذلك ؟ لينظر فى الأمر من هم فوقنا . وما جىء بنا هنا لنحاسب الناس على كل مايقولون . أنا أحب أن لاأتعدى مارسم لى وأنت جئت اليوم . فلا تدرى من أعمال المعارف شيئاً . فأولى لك أن لاتعجل فى الرأى وأن لاتكشف مقاتلك لحاسديك . قلت وهذه فائدة استفدتها . وقد ذهبت هيبة المجلس من عينى وأيقنت أن هذا البناء الذى يظل رجال العلم فى الامبراطورية العثمانية لايوآوى الا اناسا هم نخبة جهلائها . فأشفقت على وطنى وتمنيت أن لاأعيش حتى أشهد مصرعه .

فلما كان المساء وآن للمستخدمين أن يخرجوا من بيوت العمل الى مضاجع الراحة أو معاهد اللذات تلفع كل ذى عمامة عباءه ولبس كل ذى طربوش معطفه (بالطوه) . فدنا منى راسخ افندى وقال لى :

— كم جعلوا راتبك؟

— لاادرى .

— أنصحك لوجه الله الكريم. لاتتأن فى أمرلك نفعه وعليك ضرره. اذهب من ساعتك الى الناظر . فقل له كم جعلتم زيادة راتبى؟ أنت لاتعرف زهدى باشا . سل عنه مستخدمى المعارف يخبروك خبره : هذا رجل سوء . ماقدر على ضرر يضر به أحدا وتأخر عن تعمده . وربما أدى به حلمك الى الاقتصاد من راتبك وجعل ماقتصده من نصيب غيرك . ادخل عليه الآن قبل أن يخرج : ثم اياك والافراط فى التأدب والتحشم . هذا رجل جاهل يحسب الأدب خضوعا وتذللا . فلا تملكه ناصيتك فهى فى قبضته.

فما أتم راسخ كلامه الا هرولت نحو السلم وجعلت أصعد فوقه درجتين درجتين حتى بلغت أعلاه وأنا لاأجد نفسا أتنفسه : فدخلت حجرة الناظر بعد ما استأذنت . مخالفاً لما أشار به علىّ ناصحى من ترك الاستئذان : فرأيت شكرى بك الحسينى عنده . فسلمت ولم أمهله أن يسألنى عما أريد. بل وضعت يدى على جانب مكتبته معتمدا عليها وقلت له :

ـ جئت لأعلم مقدار راتبى .

هنالك ذوى عنى وجهه وقال :

— هذا ينظر فيه حين يجىء وقته . فتركته وخرجت . فاذا راسخ

فى انتظارى أمام باب النظارة. فلما رآنى أومأ بعينيه يسألنى عما كان. فقصصت عليه الخبر. فقال: — اذا رجعت الى بيتك ففكر فى أمرك علك تهتدى الى ما يريح خاطرك. ثم انه سلم علىّ وفارقنى.

ولا يفوتنّ القارىء الأريب أنى لم أنتقل طول أيام مقامى بالآستانة من نظارة المعارف الى نظارة غيرها. فحسبه قليل ماجاء فى هذا الفصل وسأعود الى الكلام على المعارف كلما أدى اليها سياق الحديث. ولنرجع الى ذكر أشياء تقدمت ذلك. وقعت قبل أن أفارق جمعية الرسومات. فان لها شؤونا لايخلو ذكرها من فائدة.

الأميرة الجليلة الفاضلة

نازلى هانم

« كريمة أبى الحرية والأحرار الأمير المرحوم مصطفى فاضل »

لا يسع نطاق كتابى ترجمة حياة الأميرة الفاضلة ولا نحن بصددها فأزين بها صحائفى. ولا أريد أن أستعيد هنا ماسبقنى اليه الكاتبون من بيان أعمالها التى يفتخر بها أهل الفضل. ولكننى ذاكر طرفاً مما وقع لها فى احدى زياراتها بالآستانة لوقوع ذلك بمقربة منى. وقد وددت أن أطبع صورتها فى طالعة هذا الفصل غير أن أهل الشرق عامة والعثمانيين خاصة لم يتعودوا هذا. وفى القلوب من التعصب مايجعل عملى مستهجناً ويستثير علىّ الأضغان. وبذا أحجمت عن مخاطبة الأميرة فيما كنت أتمناه. فلتبق صورتها بموضعها من

التكريم فى قلوب المعجبين بفضلها ولتتكلم آثارها اذا سكت مادحوها .

أجل . تجاسرت الأميرة الفاضلة على شخص الاستبداد فى حصنه المنيع وعلى رأسه تاج الخلافة وفى حركة شفتيه شقاء العباد وسعادتهم . فابهرتها (جلالته) ولا هالها بطشه وقدرته . فتراءت له في صورتها الجميلة ونفسها الجليلة مرأى الشمس تنير الأبصار ولا تحدق اليها الأبصار . وكأن روح أبيها كانت تصحبها كلما تمثلت بين يدى الملك الظالم وكأن روح أبيها كانت تشير اليها بما تخاطب به عدو أبيها وعدو أبنائه الأحرار .

انى ذاكر في هذا الفصل تعريب كتاب تركى كانت أنفذته الأميرة الفاضلة الى عبد الحميد : فنغصه وأسهده وسيبقى حجة عليه فى كتاب تاريخه الى آخر عهد الناس بالدنيا .

الكتاب كانت أنفذته الأميرة من القاهرة فى ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٦ وذلك حين جاءها أن عبد الحميد ناقم عليها لحضورها بعض اجتماعات مؤتمر تركيا الفتاة الذى التأم فى تلك الأيام بباريس . وقد تتابعت الوشايات يومئذ لعبد الحميد تحرضه كلها على الأميرة . وكانت حجة المستبدين فى تخطئة فاضلة الشرق أنه لا يجمل بعقائل الاسلام أن يسافرن الى بلاد النصارى ويخالطن أعداء الخليفة . ولو رزقهم الله أقل مايرزق عباده من عقل أو انصاف لفاخروا بها النساء من سالفات ولاحقات ولقالوا ان التى خطبت الناس يوم الجمل لم تأثم وقد أدى ذلك الى سفك الدماء فكيف تأثم من حضرت مؤتمراً ألف ليستخلص الوطن من يد قاتله .

صورة كتاب الأميرة الفاضلة الى عبد الحميد نقلا عن جريدة (حذام) التي كان يصدرها شقيق يوسف حمدي يكن :

القاهرة في ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٦

مليكي .

قرأت مع الأسف الشديد في جرائد اوروبا التي وردت في هذا الأسبوع أن مولاي الأعظم غاضب عليّ غضباً شديداً . وعلمت أن السبب في غضبه حضوري مؤتمر (تركيا الفتاة) الذي عقد بباريس . ولهذا أرجو الاذن لي ببيان مايدور بخلدي في هذا الباب :

ان استهدافي للغضب الملوكي ليس بالأمر الحادث . ولكنه مستمر منذ أربع سنوات . واذا وجب أن يميز من حل بهم ذلك الغضب سهل تعيين الفئة التي ينبغي أن أحشر في عدادها . غير أن حضوري مذاكرات هذا المؤتمر ليس تذرعا للشهرة . فهو اذن منزه عن كل غرض ذاتي .

يذكر مولاي الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف : « اني مغرم بكلمة الحق » . ولقد بشرني المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك أن لانحيد عن كلمة الحق .

قرأت ماينشره هذا المؤتمر من زمن مديد واطلعت على اللوائح التي رفعها الى الأعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق في وصف الدمار الذي بانت فيه الممالك المحروسة الشاهانية رأيت أن أحضر مذاكرته عند نزولي بباريس .

فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقامى الملوكى وللوطن والأمة ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذى بات على شفا الفناء .فهاجنى ذلك وتذكرت أن مولاى كان مغرما بكلمة الحق . فظننت وآسفاه أنه ربما تسلى عن ذلك الغرام . ولكن هز فؤادى ماعاهدت الله عليه وأيقنت أن العشق يزول والعهد يبقى .

لما زرت الآستانة منذ أربع سنوات أوصانى بعض المقربين بأن أرفع الى مولاى عريضة أستقيل بها من هفواتى . ولما لم يكن لى علم بهفوة تكون سبقت لى لم أقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاى مع الانكليز وذهب الرضاء الذى كان توسط لى فى نيله المرحوم السير هانرى لاير : وانى لأتلقى بكل ارتياح توسط الانكليز لى فى احراز رضاء مليكى . بلى أشكر اليوم ما أصابنى من الغضب الملوكى . وان فى بعدى عن مشاهدة ماوقع بالآستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر وماجرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الاضحية وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم مايسلينى وما أحمد الله على بعدى عنه . وسأستمر لذا على العمل بنص الأمر الملوكى الذى أبلغتنيه الحكومة المصرية غير رسمى مادامت لى الحياة .

على أنى لاأبرح داعية بطول عمر مولاى وبقاء دولته ولاأبرح داعية بان يعود له سالف غرامه بكلمة الحق . فاذا قدر الاله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة . فيصبح سعيداً مهنأ ويلفى رعيته فى رغد بالاتحاد والحرية . فان رعيته لاتريد منه الا ان يكون أباً مشفقاً . لعلى تجاوزت الحد وأسأت

البيان. فلست أدرى مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه . فليثق مولاى أن كلام أصدق عبيده فى زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمى . وليوقن مولاى أن ورقتى لم تسطر الا بخالص النية وصادق الولاء .

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصرى

خادمتك

نازلى

أميرة ورثت فضل أبيها كما ورثت مجده . تقيم أمثالها بظل شاهقات القصور . يسحبن ذيل الامارة مختالات فى حلل التيه . تسفر فى سماء معاليها على الوطن فتكسوه نوراً !! لعمرك لهى واحدة الشرق وسيدة السيدات المتحجبات .

وصل كتاب الأميرة الى يد عبد الحميد . وكم كتاب قبله لم يحرك له نخوة ولم يبعث له همة . لقد أسكن الله بين جنبيه روحا أعوذ بالله أن تكون من روح عبد المجيد . هى روح أجنبية عن المعالى . يزهقها الحق ويحرقها الحلم . هى وسواس يحرك جسداً لا يحلو على أديمه نعمة من نعم الله . فلما استقرأ الكتاب استشاط غضباً واربد وجهه وغلب عليه طبع أكلة البشر . فلو كانت الأميرة عنده ساعة رنت فى آذانه كلماتها لنشب فيها أظفاره وأنيابه ولكنه اكتفى من الانتقام بما خص الله به أهل العجز من المجبنين وحقد حقداً لا تزيله من صدره تقلبات الأيام . وما زال يتلطف فى استدعائها الى الآستانة واعداً اياها الخير والمزيد حتى أجابت دعوته بعد سنة ١٨٩٨ على وجه التقريب .

فتقدمت الأميرة الى الآستانة ونزلت فيها بمنزل الجنرال احمد جلال

الدين . ثم دعاها الى (يلديز) فأكرم وفادتها وأظهر لها مالا يكنه فؤاده . فلما عادت الى مصر ظنّ أن قد أصبحت فى عداد أعوانه وأنه اذا شاء حارب بها أعداءه دعاة الحرية. فخاب ظنه .وندم اذ أفلتها من يديه بعد أن حسبها وقعت فى حبائله فلم ينفع الندم . ولقد بلغ بغض عبد الحميد للأميرة الفاضلة ان خاف رجاله أن يذكروا لها اسماً فى القصر كلما أتى ذكرها فى جريدة من جرائد اوربا . ولقد كدت ألقى حتفى يوم كتبت للأميرة خطاباً أنفذته اليها من الآستانة بعد سفرها. فلا أدرى كيف علم به الجواسيس وأخبروا به عبد الحميد . وأحمد الله اذ لم يكن بذلك الخطاب شىء من السياسيات: ومنتهى مالقيت يومئذ أنى سئلت عما يدعونى الى مراسلة الأميرة . فقلت لمن سألونى . ان بيتى ينمى الى بيتها فهى الأصل وأنا الفرع : وقد دام اتصالنا بوالدها المرحوم ماعاش أبى وما عاش أعمامى ولم نبرح مخلصين لهذا البيت العالى ماشاء الله .

وأعجب مافى السياسة الحميدية أن أعوان عبد الحميد أنفسهم كانوا يسخرون منه ليستمطروا هباته . فكان أكثرهم يكذب فيما يشى به اليه. فيزعم له أن عنده أنباء الأميرة وأنه بث عليها الأرصاد ليستطلعوا له أسرارها وكان عبد الحميد يصدق ذلك.

ولولا أنفة وحكمة فطرت عليها بنت الأمير الفاضل وصدق ود من الجنرال أحمد جلال الدين لتمكنت مخالب الظالم من ذلك الفؤاد الكريم ولأصابه مايصيب كل ذى رأى من الهفوات التى لاينسيها توالى الأعصار . ولكنها نبذت كل وعد واستحقرت كل وعيد وجاءت تاركة عبد الحميد يندب خيبته فى سبيل التغلب عليها .

الجنرال احمد جلال الدين

كان ينبغي عليّ أن أذكر هذا الفصل في طالعة الكلام على رجوعي الى الآستانة . فان الجنرال احمد جلال الدين كان الوسيط بيني وبين عبدالحميد وهو الذي نزلت على داره حين قدومي الآستانة وهو أول رجل قابلته في تلك السفرة . غير أنني تجاوزت عن الأطالة وطويت ذكر أشياء لا فائدة تحتها . فليس لها شأن يستلفت نظراً أو يسترعي سمعاً .

اني رجعت الى الآستانة ثقة بوعد احمد جلال الدين أن لا يصيبني بها هوان . فقلت حسبي وعده . ولقد قال لي : اذا رأيتني لا أقدر أن أذود عنك مكروهاً تلطفت في خلاصك واخراجك من الآستانة . وكلام أهل النجدة ينبعث من الفؤاد وعلى قدر جرأة المرء يكون صدقه . واحمد جلال الدين جرىء الجنان لا يروعه مخوف وان جل ولا يملأ عينيه خطر وان عظم .

رأيت هذا الرجل بموضع لا يرومه المتطاولون . مشيع الحمى . مرهوب البطش . نافذ الكلمة . يقيم في بيت تزدحم على بابه الأفواج . فمن حله أمن غارات المطاردين وبات بموئل لا تطول اليه ولا يد عبد الحميد . هذا كلام ربما حسبه قوم مبالغاً فيه . كل من أقام بفروق شهراً واحداً عرف ذلك . وانما ثبت قدمي الرجل في موقفه احتقاره الموت وازدراؤه بما كان فيه من جاه رفيع . ولقد حلت به نكبة عبد الحميد قبل ذلك . فشد وثاقه وصاحت السلاسل على ساعديه وقدميه ونفي الى حلب وأقام بها ماشاء الله أن يقيم .

فنصره حقه وخذل أعداءه باطلهم .

هذا رجل رباه السلطان المستبد . أخذه صغيراً لا يميز الخير من الشر وأظله بظله وقيده بقيوده . فلو نشأ ظالماً مثله سفاكاً للدماء كذوباً حوّلا قلباً لمهد له العذر تعوده ذلك . ولكنه غلبت عليه البداوة الحرة وللبداوة حرية لا تطاولها حرية التمدين . فغلبت نفسه على وساوس الغرور ونزق الشباب وعاش صحيحاً بين جرب . وللدهر من العجائب مالا ترقى اليه الآمال غير أني آخذته على أمور وددت لو سلم منها . فقد رأيته مطواعا للمخادعين آمناً عواقب الفتنة من قوم كان واسطة عقدهم وملتقى أهوائهم . ورأيت ذكاءه في التمييز بين الناس دون ذكائه الذي يقدم به على المخاوف . وهذه خلال تؤذي الأحرار وتحرم أكثر الرجال أن يجتنوا ثمرات مساعيهم . على أن أصلها عدم المبالاة والاهوان بالحوادث .

ثم ان أحمد جلال الدين لم يتخرج من مدرسة ولم يتعلم من العلوم ما اذا أضيف الى ذكائه الفطري زاده رونقاً وحباه كمالا . كل ماعرفه عرفه تجربة وممارسة . وقد تعود الأناة وروض نفسه على مجانبة الطيش . فاذا جرى في مجلسه كلام على أمر لا يعرفه أمسك عن الخوض فيه ولم يتعسف الرأي كما يتعسفه أكثر الناس . واذا تكلم في أمر سبق اليه علمه أعجب به سامعوه اعجاباً .

ولما امتحن عبد الحميد صدق ريبه وجرب اصابة رأيه رمى به الدواهي ففرج له غماءها وأزاح مخاوفها . فكان يتكل عليه في شدائده ولا يحبه . وما أحب عبد الحميد أحداً من الناس ولا أبناءه الذين من صلبه . ولقد عرف

obeikandi.com

لدى العثمانيين باسم (سر خفية) ومعناه رئيس الجواسيس . وكان ذلك من حظ المظلومين . فكم أنصف منهم من حاق به الظلم . وكم أغضب عبدالحميد ليرضى فقيراً لا يملك قوت يومه . وما عهد الناس عليه تجسساً ولا عرفوا له مثلبة تشبه التجسس . والرجل لا يملك اليوم لنفسه ضراً ولا لغيره نفعاً . ولو افتريت عليه كذباً وبهتاناً لما لحقني منه سوء . غير أني أقول لامرء تقبل جزاء ولا طالباً شكوراً : لعمري لنعم الرجل الهمام أحمد جلال الدين .

ولا أنسى ماسمعت منه كثيراً بمحضر من حاشية عبدالحميد من الكلام الذي يتجاسر عليه حر من الأحرار . ولقد دعاني ذات يوم الى منزله وقال لي : بلغني أن قد جاء الآستانة شاب ممن كانوا في جنيف . ونزل متنكراً بمكان في (بيرا) لا أعلم أين هو . والأحرار لا يخفون عنك أنفسهم . فاذهب وفتش عليه حتى تجده . فقل له ان فلاناً يهديك سلامه ويقول لك انه اتصل به أن جماعة من الجواسيس يفتشون عنك فاذا وجدت سبيلا الى داري فلا تبطيء في الالتجاء اليها واذا تعذر عليك ذلك قل اني استدعاني أحمد جلال الدين وأنا لا أذهب الا مع رجاله . فقضيت يومي اسأل عن الشاب الذي ذكره لي فلم أجد له أثراً وأخبرته بذلك في المساء فغمه الخبر . وقال : سأبذل كل مرتخص وغال في معرفة مكانه لأجعله في مأمن من شر أعدائه .

وكانت العداوة بلغت مبلغ الكمال بيني وبين أبي الهدى . فجاءني منه الوعيد بعد الوعيد : وكنت كتبت في سيئاته فصولا نشرت بجريدة الرائد المصري الذي كان يصدرها بمصر صديقي القديم تقولا افندي شحاده . وانتحلت لنفسي امضاء زهير اذ لا يصح لموظف في الحكومة أن يراسل

الجرائد . وقد قلت قصيدة خاطبت بها عبد الحميد أذكرها هنا ايثاراً لواقعها :

ألا أقتل أمير المؤمنين أبا الهدى ... فقد جار فى الاسلام ماجار واعتدى
سعى مفسداً بين الرعية جاهلا ... فلم يستطع ثم استطاع فأفسدا
تظن به خير ولا خير عنده ... وما هو الا الشر فى جبة بدا
رفعت أمير المؤمنين مكانه ... ليرشد للحسنى وما كان مرشدا
فأكبره قوم ودانوا لأمره ... وأصبح يدعى فى البرية سيدا
يقول غداً يرجو خلافتى الورى ... ومن ذا الذى يرجو خلافته غدا
عفاء على العلياء ان رضيت به ... وويل على الأمجاد ان هو مجدا
يهددنى بالبطش لادر درّه ... ويعلم أنى لا أبالى مهددا
كأنى لم أنصب له أمس غارة ... أقام لها الدنيا بكاء وأقعدا
ولم أرم فيه من سهامى صائباً ... ولم أجر فيه من سيوفى مجردا
بلى رعت منه مهجة ذات مرّة ... وأوقدت فيها الغيظ حتى توقدا
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

فقصته هذه الأبيات فما ساغ له ريق وأقذته فما اغتمض له جفن . وأذكى على العيون والأرصاد وأتبعنى بجماعة من رجاله ليوقعوا بى فى غرة منى . فكلمت فى أمره أحمد جلال الدين . فاذا قلبه يتلظى عليه غيظة وحنقا . فقال لى هوّن عليك الأمر فالخطب أصغر مما تظن . ودعنى أنازله بالبأس

وناوله أنت بالقلم .

قلت : ـ هذا رجل شديد الوطأة على خصومه صعب الكريهة سابغ الدروع . تصرد سهام راميه وتصيب سهامه . فنظر أحمد جلال الدين الىّ نظرة ملؤها الأسف وقال : كنت أحسبك أعظم جرأة مما أرى .

قلت : ـ عندى رسالة صغيرة كتبتها . اسمها (الخافي والبادى فى فضائح الصيادى) وأريد أن أطبعها بمصر .

قال ـ نعم الرأى ولكن على أن تتعرض للسلطان . فانى أخاف أن يبطش بك . أما أبو الهدى فلك أن تقول فيه ما تريد على أن لا تذكر شيئا غير الحق . فانى رجل لا أحب النصر بالباطل . هنالك كتبت رسالتى وبعثت بها الى مصر مع أخى يوسف حمدى يكن . فطبعت . فباع الطابع رحمه الله نسخها وقد بيعت النسخة الواحدة منها بجنيه وبقى لى ولأخى من الكسب تعب الكتابة والطبع .

ولقد زرت الجنرال أحمد جلال الدين باشا يوما . فرأيت عنده المير آلاى الدوكتور عزت بك . وكان عالجنى فى سفرتى الأولى الى الاستانة : فلما رآنى أحمد جلال الدين قال للدوكتور . أعد على ولىّ الدين ما كنت تقول لى الساعة . فوجم الرجل . فقال له أحمد جلال الدين : ليس من الرأى أن تخاطبنى فى رجل وهو غائب وأن تسكت وهو حاضر . وأنت لا بأس عليك وما على الرسول الا البلاغ .

قال عزت بك ـ ان أبا الهدى أرسلنى اليك لتأذن لولىّ الدين فى الذهاب اليه وهو يقول لك : لا تخف عليه . انه بمنزلة ولدى ولا يصيبه عندى

سوء . وما أدعوه الا لأعاتبه عتاب الآباء الأبناء.

قال أحمد جلال الدين ـ أعدت الآن رسالتك بمسمع من غريمك وها أنا ذا أعيد جوابي لك بمسمع منه أيضاً . بلغ عني أبا الهدى أن يده لأقصر من أن تصل الى ولىّ الدين بشر . وأنا لا أمنع ولىّ الدين عن زيارته اذا هو شاءها ولكنني أمنعه بعد ذلك أن يدخل لي بيتاً . ثم التفت نحوي وقال : وأنت ماذا تريد ؟

قلت ـ أرى ماترى .

ولقد أظهر أحمد جلال الدين من النخوة ما أوثره له مع أجمل الثناء. أما عزت بك فرجع الى أبي الهدى وأخبره الخبر. فوقع على فؤاده كالسهم اذا أصاب صميمه . وسكنت عواصف الغضب في فؤاد عدوّ لو ظفر بي لأحرقني بالنار.

وكان بنفسي شيء في رجوع مراد الداغستاني الى الآستانة . وقد اختلفت الروايات فيها. فزعم جماعة أن عبد الحميد استرضاه وقال آخرون لا بل التمس هو الأسباب للرجوع حين نفدت دراهمه . واذ كان رجوع الداغستاني هو على يد جلال الدين سألته يوما أن يخبرني بما وقع . فأخبرني أن عبد الحميد استدعاه ذات يوم وقال له :

ـ رأيت أن أؤخر اعلان الدستور الى أجل غير محدود . وذلك لأن الأمة لم تكن متهيأة له . فأما وقد عرفت مزاياه وظهر من أبنائها من يهجرون أوطانهم ويستصغرون المهالك في طلبه . فقد آن لنا أن نهبهم طلبتهم . ولكن هذا لا يتم وفي أوروبا مثل مراد وغيره يملأون الصحف ويواصلون الجهاد .

ومثلى لا يرضى بأن يقول فيه الناس انه خاف جماعة من رعيته خرجوا عليه فأعلن الدستور مكرهاً لا راضياً . فاذهب الى هؤلاء الناس وقل لهم أن يرجعوا الى بلدهم وليمر على رجوعهم بعض الشهور وأنا أحلف لك بشرف المتقدمين من أجدادى أنى أعلن الدستور بعد ذلك .

قال أحمد جلال الدين ـ فخرجت من عند عبد الحميد وانا أكاد أطير فرحا وقلت في نفسى لا يوثق بكلام هذا الرجل ولكنه آلى يميناً لا يحنثها أبدا : فأدركنى الحاج على باشا رئيس قرناء السلطان اذ ذاك. وقال أمرنى مولانا أن أبلغك صدور الارادة الى البنك العثمانى باعتماد كل ماتطلبه من المال على حساب السلطان . فتبسمت له ابتسامة ازدراء عرف المراد منها . وخرجت ولم أجاوبه بشيء . ولما التقيت بمراد الداغستانى ورفاقه قبل مراد بغير شرط . الا أن رفاقه طلبوا المال وقالوا ان علينا ديونا ولا نستطيع أن نسافر قبل قضائها . ومنهم من رضى أن يكف عن الكتابة فى طلب الدستور على أن ينقد مالاً يعيش به فى أوروبا وأن لا يكره على العودة الى الاستانة . فأديت سفارتى وقلت انى لم أكلف بسماع اقتراح . وقلت لهم : أنا لا أحب الدخول فى أمور مالية ولكننى سأكتب الى السلطان مطالبكم ولا أدرى ان كان يرضاها أم يأباها . ولما جيء لى بالكتاب وقد كتب على ما يريدون أمسكت القلم بيدى وقلت . وددت لو انكسرت يمينى ولم أكتب مثل هذا الكتاب . أما مراد الداغستانى فلم يرض بالمال الذى أمر به السلطان ولكنه اقترض منى الفى فرنك ليشترى بها بعض الهدايا لبنتيه وتم الأمر ورجع مراد الى الاستانة.

وقد أنفق أحمد جلال الدين فى سفرته هذه من ماله الخاص نحو العشرين ألف جنيه : ولما سئل عن مقدار ما أنفق قال : لم أعده الى الآن ان هو الا قطرة من جود مولاى السلطان. ولم يستعض عن على ذلك كثيراً ولا قليلا :

واذ وفق الله أحمد جلال الدين الى استرجاع أكثر الاحرار واستراح عبد الحميد قليلا من سهر الليالى ومراقبة العباد وبقى جواسيسه لا يتهمون الا رجالا ممن لا يخرجون من أسوار الاستانة. راع ذلك حساد جلال الدين وقالوا : لقد فاز عند السلطان أيما فوز فلا تنفع فيه الوشاية ولا يضره الحسد ولكن الحاسدين لا يملون والأعداء لا يغفلون . وقد عرف ذلك أحمد جلال الدين قبل وقوعه . فقال للأحرار الذين خاطبهم فى ترك النضال . انى منذ اليوم من الهالكين . أسعى لأرجعكم وهذا السعى ينفعكم ولا يضركم ويشرح صدر السلطان . غير أن لى أعداء سيجعلون نجحى وبالا علىّ . وقد صدق فأله وجعلوا نجحه وبالا عليه وذكروا عند عبد الحميد أن أحمد جلال الدين لو لم يكن متواطئا مع الأحرار لما استطاع اسكاتهم . وكيف غاب غيرهم فى مخاطبتهم وأفلح هو ؟ ولم يثق الأحرار بكلامه ولا يثقون بكلام غيره ؟ فصدق عبد الحميد هذه الأكاذيب وقلب لأحمد جلال الدين صفحته لما رابه أمره . فأذكى له العيون والأرصاد وأقصاه عن حظوته وتخذه لنفسه محاربا ولسطوته مغالبا .

شهدت كل هذا بعينى وأنا اذ ذاك بالاستانة أزور منزل جلال الدين وأغشى مجالسه ولو بلى غيره بما بلى لنجا بنفسه من بين تلك الشدائد ولا طرح

عن كاهله أعباء ينوء بها كل قوى النفس صبور على المكاره .

رأيت قوما يطرقون باب هذا الشهم ويتهافتون على موائده ويتخاطفون هباته ثم يرمونه بسهام لا تخطىء . وقد رأيت أحمد جلال الدين قليل التفرس وأهل الجرأة لا تفرس لهم وانما يتحرى البواطن ويستقرى السرائر كل قلق الجأش مستطار الفؤاد . فاذا استرسل جلال الدين فى حديثه لم يبال بمن حضر مجلسه من الناس كراما كانوا أم لئاما . وقد يبلغ عبد الحميد أن جلال الدين قال فيه كذا وكذا وأنه نال منه بحضرة كثيرين . فيسر له الحقد ويضمر له الانتقام . ولقد انتقم منه بأن سلط عليه فيها المشهور . كان رجاله يطوفون بيت جلال الدين ليلا حذرين خائفين أن يحس بهم أحد ممن في البيت فيطول همهم .

﴿ الشيخ محمد ظافر المدنى ﴾

لعل قراء كتابى لا يجهلون الشيخ محمد ظافر ولا سيرته . غير أنى أكثر ما يقال عن الأخيار كما يقال عن الأشرار . كله غلو وجله بهتان . وقد سمعت الناس يتكلمون كثيرا عن هذا الرجل من قادح ومادح . فأما القادحون فأنصار أبى الهدى ولا يجوز الاعتماد على كلامهم . وأما المادحون فانصاره هو ولا يصح أيضا الوثوق بكلامهم . فكان الصواب أن أبلوه وأختبره بنفسى . أردت ذلك كثيراً ولم أتمكن منه اذ لم تأت الفرص بما يجمعنى وإياه . وأنا رجل قليل الجرأة على الناس . لا أقدم على غشيان منازلهم ان لم يسبق بيننا تعارف . وما زلت أسكن ما بقلبى من هذا الشوق حتى حان الحين . فجاءنى ذات يوم رجل من معارفى يخبرنى أن آل ظافر يودون التعارف

بي وأنهم معجبون بما هجوت به أبا الهدى . فسرني ما بلغني ولكن اعجابهم بهجائي أبا الهدى أحدث في قلبي الريب . فقلت لصاحبي : سأنظر في ذلك. على أني أخبرك منذ الآن أني لا أحب أن أكون البادىء بالزيارة . ان أولي الجاه والحظوة يزدرون بالمتطفلين عليهم . فاذا بدأوني ألفوني أهلاً لمودتهم . قال :

— لك علينا ذلك . ولولا ثقتي منهم بشدة الرغبة اليك لما فاوضتك في ملاقاتهم ولا حببت اليك مخاطبتهم . ثم فارقني الرجل غير ضارب ميعاداً لتلك الزيارة ولا لمودته الىّ . ومضت على ذلك أيام قلائل . وفي أصيل ذات يوم وقفت أمام باب داري عربة خرج منها ثلاثة رجال . فعرفت أحدهم وهو ذلك الرجل الذي كان عرض عليّ زيارة الظوافر . أما رفيقاه فلم أعرفهما بادىء بدء ولكنني فطنت أنهما أو أن أحدهما لا بد أن يكون من أبناء الشيخ محمد ظافر .

فلما أدخلوا عليّ قال دليلهم مشيراً الى النحيف منهما : هـذا عطوفة مصطفى بك ظافر . ثم أشار الى البادن وقال : هذا محمد افندي الاسير نجل العلامة الشهير الشيخ الأسير صاحب الأسفار الجمة التي عرفها العلماء . فكان مجلسنا مجلس صفاء . منزهاً عن الغيبة والمفاخرة والكبرياء ولم يشأ مصطفى ظافر أن يبادرني بذكر شيء عن أبي الهدى وتعمدت أنا أيضاً الصمت عن ذكره وجعلت أنشد لهم بعض قصائدي وأقص عليهم ما حضرني من الأخبار . فلم يطق محمد افندي الأسير صبراً ورأى أن يجسني بشيء من دهائه فقال :

— يزعم بعض الناس أن أبا الهدى ناقم عليك كثيراً وأنه لا يهنأ له عيش دون الايقاع بك . فلقد آلمه ما كتبت عنه فى الجرائد وأظنه الآن يتدبر لك مكيدة يكفى بها شرك .

قلت — له أن يصنع مايشاء ولى أن أصنع ما أشاء وأشقانا من اذا ظهر خافيه استعصى عليه الجدال . أنا لا أزاحم أبا الهدى على مقام . ولا يجوز أن يكون بيننا تنافس . فهو ولى السلطان وأمينه وأنا أحد أفراد الرعية . وهو درويش من الدراويش وأنا رجل من رجال القلم وموظف من موظفى الحكومة . على أنى أحاربه لا مختفياً ولا خائفاً . فان كان عنده مايبطل به كلامى فليأت به واذا لم تكن لديه حجة تدحض ما أقول فليربأ على ظلمه :

— ماتقول الا الحق . ولكن من لهذا الذى تنازله أن يدين للحق . ولو أنصف لاستراح وأراح . غير أنى سائلك عن شىء أود أن لاتبخل علىّ بجوابه . ولئن كان المهد بمعرفتك قريبا فليس المهد بمعرفة فضلك قريبا .

— هات مايمن لك . فاذا كان مما أعرفه أرضيتك بالجواب .

— يقولون ان عندك صكا بخاتم محمد قدرى العثمانى . كتبه على استلام مبلغ من الدراهم أنفذها اليه أبو الهدى وبتلك الدراهم أعيدت جريدة (القانون الاساسى العربية) بعد أن عطلها صاحبها لضيق ذات يده . فاذا كانت هذه الرواية صحيحة أرى أن تدفع هذا الصك الى سيدنا (يريد الشيخ محمد ظافر) وهو يرفعه بنفسه الى السلطان وتكون لك من وراء ذلك فائدة تجنى ثمراتها مادامت لك الحياة ويلقى أبو الهدى من العقاب ماهو أهله .

— نعم الرأي . ولكن الصك الذي تسألني عنه كان عندي ثم مزقته وأنا قادم الى الآستانة . قلت ربما فتشوني في الكمارك فوجدوا عليّ هذه الورقة فيحل بي من غضب السلطان ما لا أحب . ولو كان هذا الصك بيدي الآن لما رضيت الانتفاع به . نحن قوم لا نعرف التجسس ولا نحسن السعاية . ولأن يفوز علينا أعداؤنا خير لنا من أن نفوز عليهم بمثل هذه السعايات . وفيما أكتبه ويقرأه الناس مايغني عن تعسف الحيل ومغالبة الرجال بالدنايا . فقرأ مصطفى ظافر في وجهي الضجر . فأومأ الى صاحبه ليكف . ولما هم الثلاثة بالانصراف تقدم نحوي مصطفى ظافر مصافحاً مصافحة ود وقال :

— والدي مشتاق اليك . وهو شيخ كبير لا يفارق البيت كثيراً . فلو زرتنا يوما لزرت داراً تسعد بقدومك . ولنا مجالس طيبة لا نغتاب فيها أحداً ولا ننطق فيها بشر . فوعدته بذلك وجعلت الميعاد يوم الجمعة . وذهب القوم وبقيت وحدي . فقلت ياسبحان الله اذا كان الظوافر على مارأيت من محمد افندي الأسير فقد ساء فيهم ظني . نعم ان أبا الهدى رجل سوء وينبغي أن يحارب بكل سلاح ينفع في حربه . أما اللؤم فلا قبل لي به . واذا كنت أريد أن أحاربه بمثل سلاحه فخير لي أن أسالمه وأن أنتفع بجاهه وكلمته . على أنني لا آمن على نفسي الخطأ في الحكم اذا زعمت أن ما يقوله الأسير يقوله محمد ظافر نفسه . هذا الأسير صنيعتهم ويجب أن يتقرب اليهم باظهار الود والاخلاص وربما استوجب عليه كلامه هذا لوماً وتأنيبا حين يرجع مع ابن الشيخ .

فلما كان يوم الجمعة استصحبت الدليل الذي سبق ذكره وقصدت الى

تكية الظواهر الكائنة على يسار شارع (يلديز) بالآستانة. فاذا بناء شامخ الأركان رحب المكان تحيط به قضبان الحديد. فخم ظاهره عار عن الزخرف باطنه. فسعى بنا خدام التكية الى حجرة واسعة ولم يطل بنا الانتظار. واذا شيخ أبيض اللحية متوسط القامة أكحل الناظرتين وسيم المحيا يسنده في مشيه خادمان له. فاشار الىّ صاحبي بأن الداخل هو الشيخ ظافر. فدنونا منه فحيانا وحييناه وجلس وجلسنا اليه. فأقبل علينا بحديثه وقال انه سعيد برؤيتنا. وكان صاحبي عالما بما ينبغي أن يخاطب به حملة العرش والمقربون. فقال:

— كدنا والله نهب الأرض نهبا شوقا الى مولانا وما خاطبت ولي الدين في زيارته لمولاي الا ورأيت به من الشوق مالا يبالي به المرء الشدائد. فتبسم لنا الشيخ وقال:

— حفظكم الله.

وكان بعض الشياطين أخبرني أن أحد الدراويش قال ذات يوم للشيخ محمد ظافر اني رأيت مولاي في منامي جالسا على يمين الله والملائكة بين يديهما خشع الأبصار. فاعترض على كلامه أحد الحاضرين. فقال له الشيخ:

— دعه. انما ينطقه اخلاصه ويريه اخلاصه ومن صفت سريرته قرب عند الله مكانه. فقلت في نفسي: أمتحنه. فاذا كان كلام الراوي صحيحا علمت ذلك من حديثه واذا كان كذبا تبينته. ولكن الشيخ سبقني الى السؤال فقال لي:

— هل تأتيكم من مصر جرائد؟

— لا. فانى لا أطلب لأرباب الصحف أن يرسلوا الىّ صحفهم. فانى أخاف أن يتذرع بذلك بعض أعدائى الى ما يطيل همى .

— نحن أيضا لا نقرأ الجرائد ولكن بعضها يأتينا على سبيل البركة . وابنى مصطفى ظافر يحب المؤيد كثيراً . وهو يقول انه أكبر جريدة عربية بل أكبر جريدة شرقية . وكل من قرأ المؤيد شهد لصاحبه بالفضل . وقد بلغنى أنه من أكبر الشعراء وأن كلامه كله سجع لا تكلف فيه .

وقد كان المرحوم عبد الله النديم يمدح لنا المؤيد وأخبرنى عزت بك (عزت باشا العابد) أن جرائد مصر كلها تعترف للمؤيد بحق السبق . وقال لنا . لولا الشيخ على يوسف لأعلن الانكليز امتلاكهم مصر .

فجعلت أستمع هذا الكلام من الشيخ الجالس أمامى ولاحت منى التفاتة الى صاحبى الذى جاء بى الى التكية فرأيته مطرقا خجلا وقد ساد بيننا السكوت دقائق معدودة. وانا لكذلك واذا بمصطفى بك ظافر قد دخل علينا . فحيانا واستأذن والده فى الذهاب بنا الى حجرته . فأذن له . فدخلنا حجرة رأيت بها شيخاً آخر ينطق الشيب على مفرقه ولحيته . فتبادلنا السلام والمصافحة . ولما استقر بنا الجلوس أومأ مصطفى الى ذلك الشيخ وقال:

— الأستاذ العلامة الشيخ ابراهيم السنوسى من سادات المغرب. هو ضيفنا الكريم ومن المغرمين بشعرك : فأجبت مصطفى ظافر بما يوافق المقام. ثم دخل الحجرة رجل أسود اللحية معمم . فدنا منى وأمسك بيدى ووقف أمامى قائلا .

— أهلا وسهلا بعطوفة البك . حلت البركة . تشرفت التكية . أنا

والله محبكم المخلص . الله يطيل حياتكم ويحفظكم . الله ينصركم على أعدائكم الله لا يخيب لك رجاء . الله لا يسوءنا فيك . الله يعطيك البركة . الله يعلي قدرك الله يكفيك شر ما تخاف .

فكاد والله ينفد صبري من كلام الرجل ودعائه . فقد كان يرتجله ارتجالا غير ساعل ولا متوقف . فبادرني صاحبي قائلا :

— هذا ابراهيم بك ظافر نجل الاستاذ الكبير وأخو عطوفة مصطفى بك . فقلت أنعم وأكرم . وأخذنا نتحادث مع الشيخ السنوسي . فرأيت منه رجلا عالما متفقها كثير التعصب مصدقا لأضاليل الأولين . تمكنه من العلوم الشرعية أعلا قدره في نظري واستأنست به واستطبت حديثه . ثم خرجنا من التكية بعد ما لقينا فيها من الاكرام والترحيب ما لا أستطيع ذكره في هذا المرجز . ومحمد افندي الأسير كان يومئذ متغيبا عن التكية . وكثرت الزيارات منذ ذلك بين الظوافر وبيني . فأنس الي مصطفى ظافر وأخذ يفضي الي بأسراره ويشكو ما لاقاه من عداوة أبي الهدى له . وكان يقول لي :

— ان أبي رجل درويش فقير لا يريد من هذه الدنيا الا وقتا يعبد الله فيه ويصلي على نبيه . وقد بلغ من الحظوة عند السلطان ما لم يبلغه سواه فلا نال رتبة ولا رضي وساما ولا طمع في وظيفة يزاحم عليها أهل المطامع . بل عف عن كل لذة وانصرف الى الله عن كل جاه وآثر الآخرة على الأولى . فهو يحب الفقراء ويجلس اليهم ويستطيب مجالسهم ولا تمت به نفسه الى مخالطة الكبراء أولى المطامع . فوالله ما أدري ماذا يريد منه أبو الهدى وهو مع أبي على طرفي نقيض . تسمو نفسه الى المعالي ويحب

الألقاب ويتمشق الوسامات ويفتتن بحب المال . وهل ينال أبي شيئا يحرم هو منه ؟ حسبنا ما نحن فيه . هذه نعمة من الله لا نستطيع أن نوفيه عليها شكرا . فلا نريد أكثر منها ولا أحسن منها .

قلت — يخيل لي أن أبا الهدى شديد الوطأة عليكم وأنه لا يألوا في نكايتكم جهدا . ولكن هل تعلم لذلك سببا . فليس من العقل في شيء أن يناوئكم طلبا للمناوأة .

— السبب حسد أبي الهدى لأبي . يرى السلطان مقبلا علينا برضائه واضعا آلنا تحت حمايته . غير مانع عنا خيراً . فيسؤوه ذلك . وهو يريد أن لا يحب السلطان غيره وأن لا يقبل بدولته على سواه . وكثيراً ما وشى بأبي ودس له الشر ولكن نجانا الله من كيده . وكم قال له السلطان أنا واثق بود الشيخ محمد ظافر . معتمد على صدق ولائه فلا تخاطبني في أمره بما لا أحب . غير أن عادة الشر تغلب عليه فيسبق لسانه خاطره وينال منا ومن أعراضنا ويرمينا بكل نقيصة . وله رجال يدخلون بيتنا يطأون بساطنا ويصيبون من طعامنا ثم يذهبون اليه بأحاديث ملفقة يستزيدها هو من عنده ما شاء .

— وأنتم ألا تنازلونه كما ينازلكم ؟ أبوك له من الدالة على السلطان ما يمنع بها حماه ويكيل لعدوه مكيالا بصاع .

— لما كان المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم عبد الله النديم على قيد الحياة . كانا يغيظانه حتى تتبادر شؤونه من عينيه . ولقد أطالا سهاده وضاعفا همه . فما كنت تسمع له الا صخبا وعويلا متواصلا وشكايات اثر شكايات يطرق بها باب السلطان . ولما ألف فيه المرحوم النديم كتابه الذي سماه (المسام

نصبت له قيامته وجعل يهدر كما يهدر الفحل اذا هاج . ولو مد الله في أيامها لماجلاه بما يلتي به حتفه ولكن لكل أجل كتاب . وكان السيد جمال الدين اذا ذكره في مجلس السلطان لم يسمه الا أبا الضلال . ولقد استشاط عبد الله نديم غضبا ذات يوم وكان دعي الى قصر السلطان وسئل هنالك أن يكف عن هجاء أبي الهدى والسلطان مطل عليه من كوة يسمعه ويراه . فصاح النديم بأعلا صوته قائلا : لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال وسام الافتخار . فلألبسنه أنا وسام العار يلازمه في حياته ويصحبه الى قبره بعد مماته . فخاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون في اسكاته ولم يستطيعوا اذ ذاك الا بعد جهد أضناهم .

« عزت العابد »

قال لى مصطفى ظافر يوما :

هل لك في زيارة عزت بك العابد ؟ (لم ينل اذ ذاك رتبة الوزارة) فقد رأيته يثني عليك أجمل الثناء . وقال لى انه يحب أن يعرفك ذاتا كما عرفك اسما .

قلت — هذه فرصة لا تضيع . ومالى غنى عن معرفة أولئك الذين أحاطوا بسلطان العثمانيين وأضعوا سوراً بينه وبين رعيته .

قال اذن فانهض معى لنزوره . فخرجنا . فلما انتهينا الى يلديز ولجنا الباب الكبير الذى يدخل منه الى القصر . وأخذ يسير بى الى أن انتهينا الى دائرة عزت . فاذا هو رجل ربعة القامة نحيف الجسم أسود اللحية

باسم الوجه . فتلقى مصطفى ظافر بالترحاب وتقدمت نحوه فسمانى له صاحبى . فصافحنى وأجلسنى بقربه منه . ثم أراد أن يتمثل ببيت من الشعر فلم يحضره وجعل لسانه يتلجلج ولا ينطق به . فاختار ترك الانشاد ورضى بالحديث .

قال — قضى مرضى أن لا يهنأ لى عيش بأنس ولا بشىء من نعم الحياة. وقد أمر مولانا السلطان أن تخصص لى باخرة صغيرة أتنزه عليها فى الخليج . فاذا جاء ميعاد النزهة أرسل أعزه الله يخبرنى بالميعاد . فأنهض الى باخرتى وأرود بها البوسفور ثم أعود فأدخل الى حضرته . فأتمثل بتقبيل أذياله وأنصرف بعد ذلك الى بيتى . غير أن نزهتى هذه لا تسرنى كثيراً. فقد أظل بالباخرة وحيداً لا أجد من أحادثه . فرأيت أن أخاطب بعض الأحبة أن يزورونى ساعة خروجى لأستصحبهم معى وأخلص من ملل الوحدة . وقد خرجت الآن مع عبد الجليل أفندى فانشرح فؤادى وطابت نفسى . ويا ليتكما تذهبان معى يوما . هنالك ما يفجر ينابيع الشعر فى فؤاد ولى الدين .

قال مصطفى ظافر — ان ولى الدين لا يحب أن يبرح منزله الا مكرها . واذا تركت الأمر له فلا تنتظر زيارته الا نادراً . ولكننى سأحتال فى استصحابه يوما لنشاركك فى هذه النزهة .

هكذا قضينا نحو ساعة فى حديث لا فائدة فيه . والسبب فى ذلك أن مكاننا كان مكان خوف . وعلى عزت جواسيس وعلى غيره أيضاً جواسيس . وأنا لم أشأ أن أبادئه بذكر شىء تجنباً لما عساه يأتى من جرّاء كلامى ولكى لا يحسب العابد أنى أذم أبا الهدى تحبباً اليه فيتهمنى فى قلبه بالنفاق وسوء الأخلاق . غير أننا لما أردنا الخروج أمسك عزت بيدى وخاطب مصطفى

ظافر قائلا: أرجو أن تأتى مساء يوم مع ولى الدين الى منزلى لنتعشى معاً. فضمن صاحبى له ذلك. وفى مساء يوم من الايام زارنى مصطفى ظافر ومعه ورقة من العابد يدعوه بها الى العشاء ويرجوه أن لا يألو جهداً فى أخذى معه فذهبنا. فاذا بيت مدخله مفروش بالرخام الملون. فاخر الأثاث حسن الترتيب. فسار بى رفيقى حتى ولجنا حجرة واسعة ليس بها أحد والى يسار الداخل حجرة أخرى سمعنا بها أصوات اناس يتكلمون. فخرج منها رجل واذا هو عزت. فما وقعت عينه علينا الا بادر نحوى آخذاً بيمينى ثم قال:

— تعال أقاسمك مارزقنا الله. هذا جعل للشعراء. أما رفيقك فهو تقى وابن تقى. دعه وحده فى مراقبته. فتبسمت وانشدت قول الصفى الحلى:

يرنون بالألحاظ شزرا كلما صبغت أشعتها أكف سقاتها

فأخذ عزت بيدى ودخل بى الى الغرفة التى سمعنا منها حديثه مع أصحابه. فاذا رجلان أحدهما عبد الجليل افندى أحد الموظفين بادارة الريجى والثانى لا أعرفه: وفى أحد أركان المكان مائدة عليها مالذ وطاب من العرق الشامى وأنواع الأطعمة (المزة) فناولنا عزت كاساً وقال لى: قل فيها شعرا ثم اشربها.

قلت — لم أستصحب معى شيطانى ولا أدرى ان كان يهتدى الى موضعى فيأتينى أم يدعنى الليلة أخرس لا أنطق بشىء. ومجمل القصة أننا أصبنا راحتنا ونلنا طعامنا ثم خرجنا الى الحجرة التى دخلناها أولا. فأخرج

عزت من (جميه) ورقة بها قصيدة (أظنها للفاضل النبهاني) فأشار الينا أن أنصتوا وراح ينشدها علينا . فسمعت شعراً غير جيد ولكنني آثرت السكوت ولم أعب منه شيئا . فقال عزت :

— هذا رجل من رجال أبي الهدى . ولكنه صلى بناره . فلجأ الى ركني وأنا حميته إنكاية بأبي الضلال . آه ماذا أقول لكم أيها الاخوان . أقالني الله من خدمتك ياسلطان ياعبد الحميد . وأذهب الله عني كل عزلته على يديك . قولوا بالله آمين . فقال الحاضرون :

— حاش لله أن نجيبك الى طلبك . هذا دعاء لن يتقبله منك الله . وكم عند مولانا السلطان مثلك من صادق يحبه ويفتديه بحياته .

قال — هذا الذي سيجلب علي البلاء . أنا والله أحبه وأهابه وأعلم أن محبتي له مهلكتي . ثم أية لذة أجدها في حياة كلها خوف ونصب . الناس اذا أمسوا رجعوا الى بيوتهم . فعاشوا بين أهلهم وأحبابهم . وأنا كالضيف في بيتي . لقد أنزع عني ثيابي وأذهب الى فراشي فلا أمهل أن تأخذني سنة من نوم الا والرسل تتبع الرسل يتعجلون ذهابي معهم الى القصر . فأذهب وأنفي راغم . وكثيرا مايكون استدعائي لأمر غير ذي بال أو ليسألني سؤالا لا يفيده شيئا . فأظل هنالك ساعات طويلة . وحين أهم بالعودة الى داري أجد الليل وقد نزع حجابه ونصل اهابه فأبقى بالقصر ولا أعود الى مساء اليوم الثاني . والناس يحسبون عزت العابد رافلا في حلل السعادة بالغا من العز منتهاه . تعالوا انظروا وحدته في حجرته وكيف تجري مدامعه ثم احسدوه اذا شئتم .

قلت — ياسيدى هذه حالك من دون المقربين أم كلهم كذلك معذبون ؟

قال — الشكاية على قدر الأعباء . أما المصيبة فتوزعة بيننا على السواء . أنت تخرج من هنا وتذهب الى بيتك فتجلس الى أهلك أو صحبك واذا شئت خرجت الى معاهد اللهو وصنعت كل ماتشتهيه نفسك . لا يعارضك فى ذلك معارض . فمن من رجال القصر يقدر ان يذهب حيث تذهب ومن منهم يجد متسعا فى وقته ليأنس الى أهله أو من يحبهم ولو كان مرة واحدة فى الأسبوع ، هذا ما لا يحلم به أحد منا . ولولا مرضى لما وجدت الى هذه الراحة سبيلا . وقد أزف الوقت وبلغ السهر مداه . فاستأذنا من مضيفنا فى الذهاب وسلمنا عليه وخرجنا . ثم ودعت مصطفى ظافر ورجعت الى بيتى . فلما خلوت الى حجرتى أشعلت سيجارتى وجلست أدخن بها وأتفكر فيما رأت عيناى وسمعت أذناى .

فقلت : ويل لهذا السلطان . يقيم خاصته على أبوابه كرها لا رضاء . ولو أمنوا غدره لولوا من قصره طالبين نجاتهم : هذا عزت العابد . أهل الآستانة وسائر أهل الأقطار العثمانية يحسبونه فى نعمة ليس وراءها مطمع . كل يتمنى لو نال أقل مانال هو من عز باهر وسلطان قوى . وها هو الساعة أمامى تكاد عبرته تسبق كلامه . غير أن ما أشكل علىّ فهمه ولم أجد له اذ ذاك جوابا شافيا . هو المعرفة بحقيقة عزت . أهو خائن كما يزعم الناس أم غير خائن . فان كان مايزعمون صدقا فما هو الدليل على صدقه وان كان كذبا فما هو الدليل على كذبه ؟ كلا القولين بلا مرجح يرجحه . أما ما رأينا من

شكايته المرة فلا يعتد به . وربما اشتكى خوفا من عواقب خيانته وانكشاف أمره للناس وربما أشتكى أيضا أنفة من مشاركة عبد الحميد في آثامه وحياء من أن يكون من أبناء امة ويعمل مع عدوها على قتلها . ثم قال انه يحب عبد الحميد . وحاشية الرجل الظالم لا يستطيعون أن يقولوا غير ذلك . فهم يعرفون غضبه ويحذرون نقمته . ولقد قال أيضا ان حبه لعبد الحميد مهلكه يوما وهذا منتهى مايقدر أن يقوله قائل في مثل موضعه . فنمت وأنا أمني النفس باستجلاء تلك الغوامض يوماً وان أبت الا امتناعا .

الى هنا أكتفي بهذا القدر من الكلام على ظافر وعزت وسأرجع الحديث الى ذكرهما لاتصاله بذكر غيرهما .

شر جديد

لما أتم شقيقي يوسف حمدي بكن بعض أعماله التي جشمته السفر الى مصر وفرغ من طبع رسالتي المسماة (الخافي والبادي) عاد الى الآستانة فأقام معي نحو العام أو أكثر ثم أراد السفر الى مصر زاعماً أن طول مقامه بالآستانة أكسب فكره الخمول وأنه يريد أن يتنسم نسائم الحرية التي درج من عشها وعاش في ديارها . وانما أراد أن يصدر بمصر جريدة ينشر فيها ما رآه بالآستانة من آثار الظلم وطلائع الدمار . تبينت ذلك في حديثه وان كان بالغ في كتمانه ظنا منه أني ربما منعته عن اتمام بغيته . فسررت وأظهرت التغابي وتمثلت بقول القائل :

اذا مقدم منا ذرا حد نابه   تخمط منا ناب آخر مقدم

وقلت في نفسي ليس من العدل أن أقضي على هذا الشاب بما قضيت

obeikandl.com

به على نفسى . فليفن الوطن غناءه وليجاهد ما استطاع الى الجهاد سبيلا . ثم زودته عناقا وقلت سر يكلاؤك الله فان أتانى منك مايطل ذكرك والا فهذا فراق بينى وبينك . فوصل أخى الى مصر وأصدر بها جريدته التى سماها (الانذار) وارسل الىّ نسخة منها فى مظروف على يد رجل أجنبى يعلم مودته لى . فلما نظرت فى الجريدة وتأملت مايخاطب فيها عبد الحميد من الكلام أوجست فى نفسى خيفة وقلت : هذا باب من أبواب الشر أنا فتحته على نفسى . ولقد سبق السيف العذل وما بقى الا النظر فى جواب سديد ألجم به أفواه من يسألونى غداً . ثم زارنى فى ظهر الغد مصطفى ظافر وأخذنى معه الى تكيتهم . فقال لى ونحن فى الطريق :

ـ دعانى باشكاتب السلطان أمس الى القصر . فلما دخلت عليه وجدت بين يديه نسختين من جريدة اسمها (الانذار) فمد الى نسخة منهما وهو يقول :

ـ أنظر هذه الوريقة التى أصدرها أخو صاحبك واعجب لجرأة ولى الدين كيف يعيش بأنعم السلطان ثم يرسل أخاه الى مصر ليعتدى على مصدر نعمته . قال مصطفى ظافر :

ـ فلما أخذت الجريدة ورأيت عليها اسم شقيقك دهشت حتى لم أدر ماأقول . ولكننى تغلبت على ماعرانى من الدهش وقلت :

ـ يامولاى ان ولى الدين من أسرة كريمة . وهو رجل عاقل لايقدم على مثل هذه الأمور . وأخوه شاب صغير السن . ومصر الآن مزدحمة بالهاربين من عدل مولانا السلطان . فلا شك أن بعضهم أغواه واستهواه فتجاسر على عمله هذا وهو لايعلم مبلغ جرمه . وما يضر قدر الخليفة فى عليائه

أن يجهل عليه بعض الظمان ويجعلوا أنفسهم بمنزلة من يعرفون حقائق الأشياء. حسبه أن كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها يشدو بثنائه وأن المنابرق جوامع المسلمين تميل طربا عند ذكر اسمه واذا اشتم كلمت ولى الدين فى هذا الأمر ونصحت له النصح. وما اخاله الا غاضبا إذا اتصل به هذا الخبر. أما أنت ياولى الدين فينبغى عليك أن تكتب لأخيك كتابا يكون رادعا له عن غيه. فلا يغرك حلم السلطان. فانه والله اذا غضب لم يبال شيئا. وأخوك فى شبابه لايدرك هذه الأمور. فانظر ماأنت فاعل. أما أنا فقد وعدت الباشكاتب أن أعود اليه بجواب منك فيه مقنع وسأقول له كلاما يخفف غضبته ويبرئك لديه.

قلت — جزاك الله عنى خيراً. أما جريدة أخى فلا أعلم بها الا الساعة. ولا أكذبك انى أسفت لما فرط منه أشد الأسف. ولكن حيلتى فى الأمر قليلة. وفى غد ذلك اليوم جاءنى رسول من عند فائق بك ابن المرحوم لطفى أغا وكلاهما من قرناء السلطان (جمع قرين يراد به النديم الخاص) فلما أدخل بى اليه قال لى:

— بلغ ولى النعم أن لك أخا اسمه يوسف حمدى يكن وأنه ذهب الى مصر وأصدر بها جريدة اسمها (الانذار) ينتصر بها لأعداء الدولة وخائنى الوطن الذين يقيمون بمصر ويسمون أنفسهم (الرون ترك). ومولانا يأمرك أن تكتب الى أخيك تسأله عما يريد من وظيفة أو مال على أن يكون مايريده غير متعد حد الممكنات وأن يرجع عن معاداة السلطان. وهذه فرصه لا تسنح لكل الناس. فاكتب الى أخيك بذلك وقل له يرسل جوابه الىّ باللغة التركية

فوعدته بانجاز ماأراد ورجعت الى منزلي فقلت في نفسي : الشباب له سكرة تطول سنين عديدة. وربما أكتب مايريدون فيصادف من شقيقي ضعفاً في نفسه فيرضى فيحل به ربي مانخاف . واذا كتبت له كتاباً آخر أحذره من كتابي الأول فلا آمن أن يقع في يدمن لايرقب ذمة ولايخشى لها عتابا ويحل بنا يومئذ البلاء العميم . ومن لي بطريق في غفلة من أعين الواشين والرقباء. فلم أجد بعد كل تأمل وتدبر مخلصاً سوى الاذعان فكتبت الى شقيقي كتابا باللغة التركية أدعوه الى ترك الجدال والعودة الى الاستانة وأبشره بنيل مايريد وجعلت كتابي في مظروف أخذته معي مفتوحا وأسلمته الى فائق فأرسله من القصر السلطاني الى دار البريد .

وفي ذات يوم جاءني صديق الكاتب التركي الفاضل (س.ت) بك. وقد كان يحرر القسم التركي في بعض جرائد الاستانة . ثم عين بالخزينة الخاصة السلطانية. فأخذ يلتمس العبارات ليؤدي بنا الحديث الى سفرة أخي لمصر . فلما أعياه الطلب ورأى كثرة المقدمات تضل عن الصدد اقتضب الكلام اقتضابا فقال :

ـ أنا أعرف أنك لاتحب من أخيك أن يكتب شيئاً فيه ذم للسلطان. ولا يمكن أن يسافر أخوك من نفسه طلباً لاصدار جريدة في هذه السبيل. ولابد أن يكون أرسله قوم ممن لهم بمصر مقاصد يطاردونها وهذا مالا يفعله الا آل ظافر . فان قلت ان الشيخ الكبير لايعنيه من أمر الجرائد شيء وأنه بخيل لايجود بالدرهم ولو كان فيه طول عمره. قلت لك نعم ولكن ابنه مصطفى ليس كذلك . فهو أبو المشاكل وكل مايلاقيه أبوه هو منشاؤه . ولو سلك

مصطفى طريق أبيه وترك عداوات الرجال وأغضى عما يبادءه به أعداؤه لا تقلبوا له أصدقاء . والآن وقع ماوقع وقضى الأمر . فان كتموك ما دبروه بالأمس فما أحسبهم يكتمونك اليوم وهم يعرفون منك فرط الحياء والتمسك بالود . ولئن فعلوا فأنت قادر على استيضاح ماتريد بأن تتوعدهم . فاذا فعلت ذلك لم يجدوا بدا من بيان ماأغمض عليك .

قلت ـ يافلان هذا كلام حسن الاتساق ولكن الفائدة منه منعدمة . فاذا تريد أن تقول ؟ قل وأوجز ودع هذه الخطبة الى وقت آخر .

قال ـ ماأراني خاطبا . ومجمل الأمر أني موجه اليك من أحد المقربين ولا أستطيع أن أذكر لك اسمه جريا على ماا تفقنا عليه . وهو يريد أن يعلم آل ظافر شأن في سفر أخيك أم لغيرهم .

قلت ـ يافلان أراك رضيت لنفسك صناعة كنا نذمها معا . فان كنت بدلت برأيك السابق غيره فاني لا أزال على قديمي ولا أسديك نصحا في الرجوع الى سابقك . فذلك له أول وليس له آخر . ومن أوقعه سوء الحظ في مجاهله ضاقت عليه المسالك ولم يجد الى الهداية مهيعا . اذهب الى من زودك رأيه وأعارك لسانه فقل له اني أخو يوسف حمدي يكن . ولكنني لا أعرف من فؤاده الا مايبديه لي . أما آل ظافر فقد كان مصطفى معي . وهو أول من جاءني معاتبا وهو أول من طلب الي استرجاع أخي . فخرج صاحبي يجر فضول أذيال الخزي وكان ذلك آخر عهدي به .

والى هنا نفد الصبر . فرأيت أن لا أصبر على الضيم الطويل . فأقمت أتدبر فيما يفتح لي أبواب النجاة لأخرج من هذا الوطن . لعلي أجد في البلاد الحرة

من يسمع رثائي حين أرثيه . وما كابدته من آلام الاستبداد يكفر عن سيئاتي في المودة الى حيث دفن الحق وقامت مناحات الشهداء . فجرت هذه الأبيات على لساني ونمقها قلمي . فجعلت أرددها طول ليالي . واني لذاكرها في هذا الفصل عسى يكون في القراء من يحب كلام الشعراء حين تحترق قلوبهم وتمازج دخانها حسراتهم . قلت :

ألا مرشد لي بعد ما ضل من عقلي ⁂ أأندب أم لا يحسن الندب من مثلي
تندمت لا أني تورطت ذلة ⁂ ولكن لأني ماربيت على الذل
يعاتبني قلبي على ما فعلته ⁂ فأسكت علما بالذي كان من فعلي
وأحمل أعبائي على السخط والرضا ⁂ لعلي بعد اليوم أرتاح من حملي
ولو أحد قبلي بشقوته ارتضى ⁂ رضيت ولكن ما ارتضى أحد قبلي
فيامجد آبائي أثبني اقالة ⁂ تنقلت في عهدي من الصون للبذل

***

يهددني بالقتل من ليس فاعلا ⁂ ويا ليته يوما يمكن من قتلي
فأجتاز دهراً خيره مثل شره ⁂ وأخلص لا أبكي لهجر ولا وصل

***

عذولي لا يرتاح يوماً من العذل ⁂ وما بي من جهل فأعذل في الجهل
رأى رجلا لم ينتزع ثوب جده ⁂ فقال ألاقيه بشيء من الهزل
دنواً دنواً يا اماني فانني ⁂ سأملي بك الشكوى على الدهر ما أملي
يرى معشر فضلي فيرجوني به ⁂ وهيهات لا اقصى يفيه ولا فضلي

***

يخالنى لحظ الجميل فأنثنى عليه ومن أدرى من اللحظ بالخنل
وقد كنت عن شغل الهوى متفرغا فأصبحت من بعد التفرغ فى شغل
وعاد لى الليل الذى كنت ساهرا وعاودنى السهد الذى كنت أستحلى
أحب الحسان البيض وهى تحبنى كأن الحسان البيض أبدعن من أجلى
يصيب اذا ترمى فؤادى نبلها ويصرد اذ أرمى محاسنها نبلى
وما أنا بالمظلوم منها وانما جبلت على حب الزيادة فى العدل
لقد كدت أنهى النفس لولا اعتلاقها عن الوجنات الحمر والأعين النجل
وتلك لعمرى للأكارم سبة أبى لى يوما أن أقارفها أصلى

* * *

كلى ياليالى همتى لسكونها أجدك منها أنها أبدا تغلى
سئمت تكاليف المعالى ولا أرى لأهل النهى بين التكاليف مايعلى
بلى وازدهتنى كبرة عن طلابها غداة استوى فيها أخو المجد بالنذل
ولم يرض نبلى أن أرى متنبلا وقد علموا ليس التنبل كالنبل
رمى الله فى عينى زمانى بالقذى ولقاه تبلا لا يقصر عن تبلى
توائبنى منه الخطوب كمعشر أتت بعد قتلاها تطالب بالذحل
أرانى اما ناحيا قصد شرة واما مقيما فى جوار من المطل
لقد أكلتنى الحادثات ولم يكن لها كافيا لحمى فتشبع من أكلى

* * *

وما مسلم للموت بين عداته يقاد له قود الجنيبة بالحبل
غريب له أهل يرجون أوبه كما آب من نأى سواه الى الأهل

تواقوا به للنار أذكوا ضرامها وأوفوا لها بالرضف والحطب الجزل
بأعظم مني لوعة بعاشر هم أوقروا متني وهم قيدوا رجلي
مضى كل شيء كان للنفس سلوة وهذي البقايا لا تعزي ولا تسلي
أعيذك يا أرض الأساود أن يرى بك الماء غوراً غير ري ولا ضحل
وأن تنبتي ما ليس تجني ثماره وأن تتفشاك السحاب بلا وبل

وعرفت حينئذ أن مقامي في أرض مسبعة . فما راعني الا شيطان من أبي الهدى يحرق على البلاد ويأبى أن يراني ضارباً بين أضواحها وأجزاعها. وافاني مصطفى ظافر ليلا . فرأيت الفزع بادياً على وجهه . فقلت:

ـ ماوراءك ؟

قال ـ قامت القيامة علينا وعليك . أبو الهدى أوعز الى أحد الجواسيس واسمه (ضيا) فوشى الى السلطان بأن بالآستانة جمعية خفية تعمل على الفتك به والانتصار لأعدائه . وأن رئيس هذه الجمعية هو المشير فؤاد باشا وأني ورضا بك (هو الآن رضا باشا نزيل مصر) والشيخ أسعد شقير إمام أغا دار السعادة (هو الآن نائب انطاكية بمجلس المبعوثان) ومحمود افندي نديم (آخر وظيفة له هي متصرفية قره حصار التابعة لولاية سيواس) أعضاء هذه الجمعية وأنك أنت قلم الجمعية . تنشر بجرائد مصر مانحن نتفق عليه ثم تأتي هذه الجرائد باسمك الى ادارة البريد الفرنسوي فتوزعها علينا وعلى من يقول برأينا . وقد أخبر الجاسوس أن بادارة البريد طرداً من الجرائد جاء باسمك من مصر . فأنفذ السلطان أحد رجاله ليأخذ له ذلك الطرد فابى البريد أن يسلمه اياه . هنالك كلموا سفير فرانسا الموسيو فونستان .

فأمر البريد أن يسلم الطرد وأن يسلم أيضاً كل طرد ترتاب فيه حكومة السلطان . وقال : نحن لانريد أن يكون بريدنا واسطة فى دخول الدسائس الى البلاد العثمانية . ولما نظروا الطرد وجدوه مكتوباً باسمك . فظهر صدق الجاسوس . واليوم أخذوا الشيخ أسعد شقير الى نظارة الضبطية وتولى الناظر وقدرى بك رئيس الجواسيس استنطاقه . وقد بادر محمود نديم الى (يلديز) وأخبر عبد الغنى (أغا دار السعادة) وعبد الغنى بادر الى السلطان شاكياً باكياً وقال ان أعدائى يريدون احتقارى وقد أخذوا امامى وربما لحقه السوء ظلما وعدواناً . فصدرت ارادة السلطان باستدعاء الجميع الى (يلديز) والاستمرار على التحقيق هنالك :

وقد كان أبو النصر يحيى السلاوى عندنا فى يومنا هذا . فأخبرنا أن شفيق باشا ناظر الضبطية وقدرى بك رئيس الجواسيس دعياه الى النظارة وسألاه عما يعلم عنك . فقال لهم : انه يعرفك كما يعرفك سائر رفاقك الذين معك بنظارة المعارف . فقال له قدرى بك :

ـ وهل يكتب ولى الدين فصولا فى ذم السلطان ويبعث بها الى جرائد الأحرار بمصر ؟

فقال السلاوى ـ لا علم لى بذلك . واذا كان ولى الدين يكتب فصولا كما ذكرت أفلا يخاف على نفسه العقاب حتى يطلع الناس عليها ؟ وهل علمتم عليه شيئاً من هذا القبيل ؟

قال قدرى بك ـ كلا . وانما نسألك لنتعرف ذلك منك . فأما وقد ذكرت أنك لاتعرف شيئاً من أسراره فلا حاجة الى زيادة الأسئلة . ونحن

نوصيك أن لاتخبر ولى الدين بشيء مما جرى لك معنا . فأجابهم السلاوي الى طلبتهم وانصرف .

قلت لمصطفى ظافر — ومن ضيا هذا الذى تذكره وأين هو الآن !

قال — هو رجل أظنه من ازمير . وهو الآن في (يلديز) لايريدون أن يطلقوا سراحه حتى يتم التحقيق ويظهر صدقه من كذبه . وقد بادرت اليك مخبراً بما وقع فكن على حذر .

قلت — وما ينفع حذرى الآن . وهل تحسب القوم يغفلون عنا بعد أن بلغهم عنا مابلغهم . وما لى من حيلة سوى انتظار ماستجرى به الأقدار .

ثم مضى على هذه الواقعة نحو الأسبوع . فاتصل بى بعد ذلك أن الذين تولوا تحقيق القضية قالوا للجاسوس :

— من أين عرفت أن ولى الدين اتفق مع من سميتهم على أن يكتب الى الجرائد فى ذم السلطان ومن أين لك أن هذه الجرائد ستأتيه أو هى أتته وأنها محفوظة بادارة البريد الفرنسوى ؟

قال — كنت ذهبت الى الباب العالى . فرأيت الشيخ أسعد شقير ومحمود نديم وولى الدين خارجين من شورى الدولة . وكانوا عند مصطفى ظافر . فجعلت أمشى خلفهم وأستمع ما يقولون . فوعيت كلامهم كله ولم أضع منه حرفا واحداً .

قالوا له — صف لنا ولى الدين .

قال — هو رجل عظيم الجثة . له لحية شقراء وعينان زرقاوان . فلم يمهلوه الى أن يتم كلامه . وهنالك هدده أحد رجال القصر بالويل والثبور اذا لم

يعترف بالحقيقة . وتركوه وحده في حجرة ليتمعن فيما هو صائر اليه . فهاله الأمر وأحس بالشر وأيقن أن لا خلاص له مما وقع فيه . فطلب أن يعيدوه الى المحققين . فلما مثل بين يديهم قال :

ـ ان أبا الهدى عرض علىّ كتابة تقرير أتهم به من عرفتم أسماءهم وأعطاني ثلاث ورقات من أوراق البنك العثماني قيمة كل واحدة منها خمسة جنيهات وكل الذي سمعتم مني لقنني ايه أبو الهدى . وأنا رجل فقير ولي حاجة شديدة الى أقل من هذا المال . فغلبتني الحاجة فأنجزت ما أراد . فلما سمع المحققون كلام الرجل ورأوا أوراق البنك بأعينهم . أبلغوا السلطان ما وقع . فأمر بكتمان الأمر . كل هذا جرى ولم أعلم به الا بعد أن جرى .

ولما علم فؤاد باشا بالواقعة قصد الى (يلديز) وبينما هو يريد الصعود الى عند الباشكاتب التقى بأبي الهدى في طريقه . فتقدم نحوه وبادره بالشتم وكاد يرمي به تحت أقدامه لولا تضرعه وبكاؤه . فأمسك عنه فؤاد باشا وقال له :

أنا بمعزل عن هذا القصر وعن مطامعه وليس لي واياك شأن . فاذا أنت لم ترعو وحدثتك نفسك بالعودة الى مثل فعلتك هذه رميتك على الأرض ووطئت رأسك بأقدامي . ففارقه أبو الهدى وهو لا يصدق بالنجاة

فدلني مرة رجل من معارفنا على ما يستوقف دون نادهات أبي الضلال وكان من رأيه أن ننشيء بجنيف جريدة تنشر بالتركية والعربية والفرنسوية نذكر بها مثالب هذا العدو الغاشم ونبين مخازيه ليحذره السلطان بعد ذلك أو ليضطر الى حذره تنصلا منه أمام رعيته فكلمنا في ذلك رضا باشا وأسعد افندي شقير . غير أن رأى أسعد افندي كان موافقاً لرأيي في جعل الجريدة

جريدة حرة محضة . وقد صدق اذ كنا أقدر الناس على معرفة مايقع بيلديز ولو شئنا لنشرنا نص كل ارادة سلطانية من قبل أن تبلغ الى الباب العالى . ولكن مصطفى ظافر خاف على نفسه وأبيه غضب السلطان . وقال : اذا ظهر أمرنا يوما فاذا يصيبنا ؟ أما أنتم فتسجنون أو تنفون ولكننى أنفى وأسجن وأزيد عليكم بأن يحل بأبى فى كبره وباخوتى من بعده مايبدد شملنا ويفنى حتى أعقابنا . فلما رأينا هذا الخلاف عدلنا عن الأمر . وكان (ح ح) يريد السفر الى مصر . فقال لمصطفى ظافر انه سيتفق مع صاحب المؤيد على اصدار جريدة أسبوعية تكون لسان حالنا . ولما وصل مصر أتت كتبه وليس فيها شيء سوى الثناء على بدائع مصر وعلى صاحب المؤيد حامى مصر والمصريين !!!

بعض مامرّ علىّ بنظارة المعارف

« عاد الحديث »

ليت هذه البلايا التى داهمتنى خارج وظيفتى هادنتنى وأنا فيها . فأتسلى بماصفا من شطر الحياة عما كدر من شطرها الآخر . فمن يملأ اذن هذه الصحائف بهذه المخازى ؟ وماذا كان يتسنى لى من الشكاية لو تساوى الطيب والردى ، فى تناوبهما . هيهات ؟ ذاك زمان عبد الحميد الثانى . يظل الكاتبون يكتبون فتنفد المعانى وتمتنع الألفاظ ولا يحصى لتلك المساوىء عد ولا يمكن لقليلها شرح .

لما مرّ علىّ بعض الشهور بعد نقلى الى نظارة المعارف ووقفت على ماتيسر لى من أعمال المجلس الأعلى أخذت أعترض على ماأراه مخالفاً وأرشد الى ماأحسبه موافقاً . فساء ذلك رفاقى وجعلوا يؤاخذوننى على ماأجرى عليه من هذا المنهاج . وأبغضنى زهدى باشا ناظر المعارف وغضب علىّ أنصاره وشركاؤه فى النهب

فأنفذ الىّ على غالب بك مدير الأوراق حاجبه يدعونى الى حجرته . وكان راسخ افندى أحد الأعضاء الذين سبق ذكرهم فى أحد الفصول المتقدمة جالسا الى جانبي . فالتفت وسألته من هو غالب بك الذى يدعونى الى حجرته . فقال لى :

ـ هو مدير الأوراق بنظارة المعارف وهو ألبانى الأصل شرس الطباع لا يخاف أحداً ولا يكرم أحدا . فأرجع اليه حاجبه بكلام لين لا يهيج له غضباً . فقد ضرب يوما أحد أعضاء مجلس الأنجمن (مجلس مراقبة الكتب والمؤلفات الأخر) والمضروب رجل هرم اسمه طاهر أفندى . ضربه فى حجرته . بهذه النظارة . بمشهد من موظفى المعارف كلهم ولم يستطع أحد منهم أن يعارضه . ثم ذهب طاهر أفندى باكيا معولا ورفع شكواه الى السلطان فلم يغنه ذلك فتيلا وما سأل الضارب أحد . ولا أقول انه ربما ضربك ولكن من يضمن لنا أنكما لن تتضاربا .

قلت ـ ان مدير الأوراق لا يقدر أن يأمر أحد أعضاء المجلس الأعلى . ومن أجل هذا كنت أود أن لا أذهب اليه . ولكن لما كان الرجل ممن يتوعدون ويضربون ولا يسألون عما يفعلون فقد وجب علىّ أن أبادر اليه لأرى ما سيكون من أمره . ثم تبعت الحاجب الى حجرة على غالب . فدخلت عليه وهو جالس أمام مكتبته . يكاد يكون مضطجعاً عليها وخلفه سجادة على الحائط قد سمر عليها صولجان من الخشب وأشياء أخر لا أذكر الساعة ماهى . فسلمت عليه . فأجابنى على سلامى قاعداً . فقلت :

ـ أخبرنى الحاجب أنك تريد أن تكلمنى . وها أنا بين يديك لأسمع

ماتقول .

ـ تفضل بالجلوس .

ـ الوقت لايسمح اطالة الكلام . فقل مابدالك ولا حاجة بى الى الجلوس .

ـ أراك كثير الاعتراض على قرارات المجلس . وأنت تفعل ذلك لتظهر للناس أنك رب معرفة وأنك لاتخفى عليك خافية . ولكنك تخطىء فى كثير من اعتراضاتك .

ـ ان من حقى أن أعترض وأن أوافق . وما جعلت في المجلس الا من أجل ذلك . أما الخطأ فلا أسأل عنه . والمراد أن يبدى كل رأيه وليس بين الناس من تكون آراؤه كلها صوابا .

ـ نعم . ولكن الذين يكثرون من الاعتراض لايفلحون . وأنا من المخلصين لسماحة الأفندى (يريد أبا الهدى) ولعطوفة البك (يريد عمى المرحوم فائق بك وكان من أشد أصدقاء أبى الهدى) فرأيت أن أنصحك فى الرجوع عن جهل الشباب . فاذا قبلت نصيحتى شكرتنى عليها فى مستقبل زمانك وان أبيت الاتماديا ندمت حين لاينفع الندم .

ـ نحن الآن بنظارة المعارف ولسنا بتكية أبى الهدى ولا بمنزل عمى . وأنا لاأقبل رأى أحد في أعمالى . فان كان عندك رأى غير هذافهاته .

ـ ألا تريد أن تقلع عن اللجاج ؟

ـ أتريد أن تتوعدنى . اذن فاستمع : أنا رجل لاأبالى الوعيد وأعلم أنك من المسيطرين بهذه النظارة وكفى . فقد صبرت على كلامك طويلا

وكنت أريد أن لا أحضر اجابة لدعوتك لتعلم أن مدير الأوراق لا يصح له أن يدعو أحد أعضاء المجلس. ولكنني علمت أنك تتوعد الناس. فحضرت لأعلمك أني لست ممن يخافون وعيداً. واذا لم تبادر الى الترضية طائعاً أكرهتك عليها اكراهاً. فبهت الرجل من هذا الكلام وما سمع مثله من قبل. فجعل يتأملني من رأسي الى قدمي. وكنت أكلمه وأضرب بيدي على مكتبته. ولما وصلت الى آخر كلامي ضربت على تلك المكتبة ضربة قوية قلبت دواته. ثم قلت له: أنتم أناس لا تميزون بين الناس ويستوي عندكم طيب وخبيث. ولو اعترضكم ذو جأش رابط يكم أفواهكم ويخفض من شماسكم لما تمديتم أطواركم ولوقفتم عند حد الأدب. فلما أتممت كلامي مشيت خطوات الى الباب غير مسلم فسبقني الى الباب وقال:

ـ ما كنت أحب أن تخرج من عندي غاضباً وانما حدا بي الى هذا الكلام مودتي لك واعجابي بك.

قلت — من أين لنا هذه المودة وأنا لم أرك الا الساعة وليس بيننا سابق معرفة فتستوجبها علينا. ثم انصرفت. وفي الغد جاء على غالب الى الحجرة التي يستريح بها الأعضاء اذا فرغوا من المذاكرة واعتذر لي عما فرط منه بالأمس. غير أن الواقعة كانت باتفاق بينه وبين ناظر المعارف. فلما جرى مني ما جرى من الرد والاباء رأى الناظر أن يعاقبني عقابا يكون رادعا لغيري. فرأى أن يغيظني بتأخير صرف شهريتي. وقد فعل ولكنه خاب في ذلك أيضا. فلما أبصر الأعضاء ما جريت عليه شكروا اقدامي ودنا مني راسخ افندي. فقال لي اذا هممت بالخروج فانتظرني حتى نخرج معا. ففعلت. فسار بي الى حديقة بقرب

(آيا صوفيا) جلسنا بقهوة فيها فقال لى :

— رأيتك ذا جنان ثابت ونفس أبية . وقد أعجب الأعضاء بما جرى لك مع على غالب وناظر المعارف . ولكن هذا كله آخره العطب . نحن بالآستانة وهنا رجال لا يخافون آلها ولا يرقبون ذمة . فمن ترجو أن يكون نصيرك اذا تكاثر عليك الأعداء ووقعت بأيديهم ؟

ـ أرجو أن يكون نصيرى الحق .

ـ هذا كلام حسن ولكنه لا ينفع . وما دعوتك هنا لأجبنك وأرجمك عن اقدامك . بل دعوتك لاخلص لك النصيحة . فانى أكبر منك سنا وأكثر منك تجربة . وما أشابت الأيام فودى الا بعد أن انتابتنى حوادثها بما يذهل العقول . فيجب عليك أن تمسك بمحبة السلطان ودع كل امرىء سواه تعش آمنا ولا يكن لأحد اليك من سبيل . فاذا سمعت امرءاً يغتاب السلطان اكتب بذلك تقريرا وارفعه اليه . واذا جرى لك مثل الذى جرى بينك وبين على غالب بادر الى القصر واكتب بذلك الى السلطان . هذا سلاح لا يفل غربه ولا تنبو مضاربه . وكلنا متسلحون به . فاذا رضيت بنصيحتى نلت المرام وفزت حيث يخيب منازعوك .

ـ أراك تدعونى الى أمر لم أخلق له . وأنا أحب الىّ أن يفوز على خصومى من أن أفوز عليهم بالتجسس . فان كان هذا مبلغ رأيك فهو رأى لن أتبعه واذا كنت أنت ممن يتجسسون فلن يتقارب قلبانا ولن تحدث بيننا الفة مادامت الحياة .

ـ أنا لا أدعوك الى التجسس بأن تتبع الناس فى خطواتهم وتنصت

اليوم فى أحاديثهم بل أدعوك الى اخبار السلطان عمن يأخذون رواتبهم بفضله ثم يعملون على مايضره . والمخلص لدولته لايخفى عن سلطانه أمرا .

ـ هذه فلسفة لايمكن التغلب عليها . كل رجالنا يقولون مثل ماتقول وكلهم يتجسسون كما تتجسس أنت . أما أنا فلم أتعود ذلك . وصعب على الانسان مالم يتعود . وانى لأشكرك اذ عرفتنى نفسك فقد كنت أحسبك بمعزل عن هذه المسالك . والآن كشف لى الغطاء باعترافك . ولما فرغت من كلامى نهضت واقفا وحييته تحية المودع القالى . ولما رجعت الى بيتى وفكرت فيما جرى لى بالمعارف . رأيت ترك الآستانة والهجرة الى أوروبا أمرا لابد منه .

ثم سخر الله لى ما استوقفنى مضطرا . وذلك أن عبد الكريم بك أحد أحفاد الصدر الأعظم الشهير المعروف بالصقوللى بعث الىّ كتابا يقول فيه : ان نظارة المعارف قررت بناء معهد جديد تسميه دار الأيتام وستنفق عليه أربعة آلاف جنيه . وهو مبلغ كبير لو استبقته لغرض غير هذا كان أحسن . ولى أرض بالقرب من أبى أيوب الأنصارى بمكان يقال له (سودليجه) وهذه الأرض واسعة جدا وفيها من حجارة البناء مايكفى لما هو أعظم من دار الأيتام . وأنا أهب هاته الأرض هدية منى الى المعارف لا أطلب عليها ثمنا ولا عوضا . ولاأريد شكرا ولا اعلانا ولا شهرة . فأشرت عليه أن يكتب عريضة بذلك الى نظارة المعارف . فكتب . وأخذت العريضة معى وقدمتها باسم صاحبها على الوجه الرسمى وأقمت أياما أنتظر ماسيكون من جواب ناظر المعارف . فلم يجب بشىء . وكان ينبغى عليه أن يبعث بهذه العريضة الى المجلس الأعلى لينظر فيها ويكتب

بعد ذلك خطاب شكر لصاحبها . وكنت أطلعت الأعضاء على العريضة قبل تقديمها الى الناظر . فاتفقت مع جماعة منهم فى مخاطبة رئيس المجلس ولكنه تنصل عن تبعة المسألة وقال :

ـ نحن لانعلم هذه العريضة رسميا . ولا حق لنا فى طلب مالم يرسل الينا . فكان كلامه موافقا لنظام المعارف . وعلمنا أن زهدى باشا اتفق مع بعض الناس على ابتياع أرض بجهة اسمها (قزيل طوبراق) لتكون دار الايتام قريبة من داره ويتمكن من تفتيشها متى أراد . واتصل بنا أنه سينفق ألفى ليرة ثمنا للأرض وأنه سيحفظ الباقى لنفسه . فجعلت أعيب خطة الناظر بمحضر من الأعضاء وفيهم المخلصون له وأقول بصوت عال :

— ماهذا الاختلاس ! ! ! اذا كان زهدى باشا الذى سرق من نظارة المالية مائتي الف جنيه أيام كان ناظرا عليها نقل الى المعارف ليسرق منها دراهمها فنحن لانشاركه لا فى سرقته ولا فى عارها . فنقل هذا الكلام الى الناظر . فزاد علىّ حقداً وبات لايطيق ذكر اسمى بمجلسه . وقد انتصر له الأعضاء المخلصون . وشاء الله أن يفتضحوا فضيحة تكون عظة لغيرهم . وذلك أن عبد الرحمن بك ناظر المدرسة السلطانية كتب الى المعارف يبين لها أن قد ظهر عجز كبير فى واردات المدرسة فباتت دون مصاريفها وأشار على النظارة بالغاء القسم الثالث من درجات أجرة التعليم . فكتبت المضبطة بذلك وأرسلت الى المجلس للتصديق عليها . فالتزمت السكوت حتى وضع الأعضاء أختامهم ولم يبق أحد منهم مخالفاً . ثم أخذت المضبطة وكتبت على هامشها : أن نظام المدرسة السلطانية قبل بارادة سلطانية وليس للمجلس

أن ينسخ ارادة السلطان . فأخذ الأعضاء ينظر بعضهم الى بعض . فسألني الرئيس من أين لي ذلك . فقلت :

— ان نظام المدرسة السلطانية مطبوع . وقد وزعته النظارة على الأعضاء. فأخرج الرئيس من مكتبته نسخة ونظر في أولها فاذا مكتوب عليها هكذا : (صدرت الارادة السنية السلطانية بقبول هذا النظام واتباعه في المدرسة السلطانية .) فكاد والله يسيل لعابه خجلا وحاول أكثر الأعضاء أن يمحوا أسماءهم بألسنهم ولكن الحبر الزيتي لا ينفصل له صبغ . فتركتهم في حيرتهم وأشعلت سيجارتي وجلست أدخنها وأنظر اليهم .

وكان يقع بمجلس مراقبة الكتب (الانجمن) مايقع بالمجلس الأعلى حتى حدث خلاف بين الرئيس حسيب افندي وبين بعض الأعضاء ومنهم الشاعر التركي الشهير صديقي حيرت افندي . ولكن تغلب الرئيس على الأعضاء واستقل بختام المجلس رغما من المخالفين له وأيده زهدي باشا الناظر وكان حسيب افندي صنيعته . وقد آلى الرئيس لا يدخل المجلس أو يعزل حيرت افندي وأبو النصر يحيي السلاوي . ولقد نال ماأراد وثبت على كلامه فنقل السلاوي عضوا الى جمعية الرسومات وأنزلت درجة حيرت الى مفتش المكتبات . ولم يغن اعتراضهما شيئا.

﴿ الحرب الموان ﴾

مازلت أنوى الخروج من الاستانة وأنا أشد الناس شغفاً بها ولا يقدر لى ذلك . ورأيت الحرب تهلكة على أهل بيتي . فانى حين أدعهم بالاستانة لا أترك لهم مايعيشون به على حد الكفاية . ومالى بالاستانة من يعولهم من آلى وعشيرتى . واذا أرسلت لهم مالا لم آمن عليه الضياع واذا أردت أن أستصحبهم معى أحست بنا الحكومة وان تركتهم ليلحقوا بى بعد سفرى مانعتهم الحكومة السفر . فمن خاطرى أن أستأذن فى السفر الى مصر لأقيم بها شهراً وأعود بعد انقضائه . فكتبت ورقة بذلك ورفعتها الى ناظر المعارف فلم يرض بقبولها وقال لى : أكتب الى السلطان فان أذن لك فلا تقوى على مخالفته . فكتبت ورقة أخرى الى السلطان وذهبت بها الى دائرة الباشكاتب تحسين الكائنة ببلديز . فقرأ الورقة ثم قال لى :

— ولم تريد السفر الى مصر ؟

— لى بها حقوق أريد أن أحفظها وقد أردت أن أجعل لى وكيلا ولكن جاءنى الجواب بأن لاغنية لى عن سفرى.

— سأرفع ما كتبت الى أعتاب السلطان. فعدت الىّ بعد ثلاثة أيام. فشكرته سلفاً وانصرفت . فلما انقضى الميعاد غدوت عليه وأقمت فى انتظاره ساعات طويلة . ثم قيل لى انه فى (الحضور) والحضور يريدون به هنالك أنه عند السلطان . وسألتهم متى يكون رجوعه فقالوا انهم لا يعلمون . فخرجت على غير هدى من أمرى . وفى الغد رجعت اليه ولبثت كذلك فى انتظاره كما وقع

لى بالأمس . ومكان الانتظار فيه أناس كثيرون لهم حوائج يريدون قضاءها . فدعانى الحاجب جانبا وأخبرنى أن الباشكاتب يخصنى بالسلام وانه لم ينس ماوعدنى به . وسألنى أن أعاوده بعد بضعة أيام فوافيته فضرب لى ميعاداً آخر ثم ضرب ميعاداً آخر ثم ضرب ميعاداً آخر . وأنا فى كل مرة أخسر دراهمى وأضيع وقتى حتى عيل صبرى ونفدت حيلتى ولم أدر ماأصنع . فوافيته يوما وهو يتهيأ للدخول الى (الحضور) فسلمت عليه وقلت :

— سيدى اذا كانت حاجتى غير مقضية فلا تكلفنى التعب عبثاً وان كانت مقضية فتفضل علىّ بما أمر به السلطان وأرحنى من هذا العناء وكثرة التردد . فقال :

— وما يمنع قضاء حاجتك ولم تتطلب محالا . ولكن غير خاف عليك ما أنا فيه من وفرة العمل وتكاثر المشاغل . فاغد علىّ غداً مبكراً بكور الطير واذا لم تجدنى فانتظرنى الى أن أحضر . وآمل أن ترجع بعد ذلك وقد نلت الاذن وقضى الأمر . فشكرته ثم شكرته ثم شكرته وخرجت وأنا أعلل النفس بقرب الخلاص وأقول اذا خرجنا من الآستانة اخترت الاقامة فى اوروبا . هنالك أجاهد فى سبيل الوطن آمنا نكايات الأعداء ولا أدخل مصر الا زيارة كلما اشتقت اليها . فان بمصر من يحارب الأحرار . وقد ملك عليهم البر فى فجاجه وسد عليهم مسالك الحياة . فبت باهناء ليلة . على أننى لم أذق غمضاً ولم يستطب الرقاد لى جنب من فرط ماداخلنى من الفرح . فلما تنفس الصبح بادرت الى القصر وأنا أستحث سائق العربة وأقول له ماأبطأ عربتك سيراً . حتى اذا وافينا الى باب يلديز وثبت الى الأرض وانطلقت عدواً الى دائرة الباشكاتب . فرأيت

بعض الخدم يجمعون قطع الشمع التى بقيت من الليل ويدخلونها فى جيوبهم وآخرين يمدون سيجارات وجدوها . كانت سقطت من الوافدين على القصر. وغير هؤلاء يكنسون المكان ويصلحون من شأنه . فاتخذت لى كرسيا بمكان خال وأردت أن أدخن سيجارة لى فلم أجد معى سجاير . قلت وهذه احدى العظائم . ألم يكفنى أنى خرجت من قبل أن أفطر حتى أجلس هنا بلا تبغ. ان هذا لخطب عظيم . وقد طال علىّ الوقت واشتد بى الضجر . فقال لى الخدم انه لا يليق بى أن أجلس على كرسى بهذا المكان المعد للأصاغر !! : وأدخلونى الى حجرة الانتظار للأكابر !!! فلبثت بها ساعات وأخذ يتوافد عليها أهل المصالح حتى غصت بهم .

وبينا أنا كذلك أكاد أقضى كمداً وقد أمضنى الجوع وزاد بى من القلق ما رأيت من الزائرين الذين يدخنون السجاير ولها رائحة أزكى من المسك الأزفر إذ جاء حاجب الباشكاتب فدعا أحد الجالسين ثم عاد فدعا ثانيا ثم دعا ثالثا ولكن الحجرة لا يخلو بها مكان . فما مضى زائر الا جاء زائرون. واستطال لبثى الى العصر حتى كدت أن يغشى علىّ . فنهضت واقفا وجعلت أمشى رويداً رويداً الى باب حجرة الباشكاتب . فأراد الحاجب أن يمانعنى فدفعته فى صدره وفتحت الباب وأسرعت بالدخول . فاذا هو جالس وحده يقرأ أوراقا له : فقلت : طال الثواء ولا سؤال من لدنك ولا جواب . عشرة ساعات مرت علىّ وأنا مقيم هنا . فهل أردت يا مولاى أن تهزأ بى ؟

— كلا وانما تعمدت تأخيرك لاجد سعة فى الوقت فأكلمك فيما أنت قاصد له .

ـ ولكن الذى أريده لايحتاج مناظرة ولا تأملا طويلا . ان هو الا استئذان بالسفر الى بلد من البلاد لحاجة من الحاجات .

ـ صدقت ولكن كنت أريد أن أعلم ماذا تريد .

ـ ألم أذكر بالعريضة ما أريد ؟

ـ بلى . ولكنها ضاعت . ولا أدرى ان كنت رميتها سهواً منى بين الأوراق الممزقة أم هى لاتزال بين الأوراق التى (تحت العرض). فخيل لى أن المكان سقط على رأسى . أظل شهراً كاملا أنفق المال وأضيع الوقت وأجد وأكد في طلب اذن بالسفر . ثم يقول لى هذا الرجل بعد ذلك كله ماذا تريد !!! فنظرت اليه نظرة ملؤها حنق ويأس . وقلت :

ـ لأسهدن والله جفونك ولأطيلن أوجاعك ولأجعلن أيام الحياة حربا عليك . ولأسلكن المخاوف سبلك ولتعلمن بأية داهية رميت . وخرجت من عند مخاطبي وأنا أكاد أتميز غيظاً . فركبت عربة وجدتها فى طريق وقلت لسائقها ان يذهب بى الى جهة بك أوغلى (وهى بيرا) . وكان عبد الحميد جعل بالاستانة مراكز ترسل اليه الرسائل البرقية منها . وفى (بيرا) أحد تلك المراكز . يخاطب منها السلطان ومقربيه من يشاء . فان كان خطابه جديراً بالعناية عرضوه على السلطان وان لم يكن كذلك ألقوه جانبا . ومراكز التلغرافات تقبل كل رسالة هى تعرف صاحبها أو تعرف اسمه ولو ملئت من القول الغليظ وخوطب به السلطان نفسه .

فأخذت القلم بيدى وكتبت رسالة تركية هذا معناها :

(الى الباشكاتب الكاذب بالقصر السلطانى

سخرت منى وأضعت أوقاتى فيما لايجدى ولم تبال كذبا وبهتانا فانتظر ماسينشر عنك فى أوروبا وغيرها) ولى الدين يكن

أحد أعضاء مجلس المعارف الأعلى

فأخذ الموظف الرسالة وجعل يتأملنى . فقلت له ان كنت لاتعرفنى فانظر فى تقويم الحكومة الرسمى تجد اسمى . فقال : ولكن الرسالة شديدة ولابد من الاستئذان من المدير .

قلت — لك ذلك . فصعد وغاب عنى بضعة دقائق ثم عاد وقال أمرنا المدير بقبول الرسالة على أن تكتب فى أسفلها أنك تتحمل تبعة ما فيها وتختمها مرة ثانية . ففعلت ماطلب ودفعت له الثمن وخرجت بعد ذلك قاصداً الى منزلى . فنمت ليلتى نومة يحسدنى عليها المؤرقون وانتبهت فى الغد وبى من الانشراح مالا أستطيع له وصفاً . فقلت من أين لى هذا الجذل وأنا قضيت بالأمس يوما لو سمع به أهل الجنايات لاقشعرت جلودهم وقد سدت علىّ المسالك وليس بيدى من الدراهم ما يكفى لحاجتى ريثما أتقاضى راتبى . وبعد فان أمام باشكاتب السلطان رسالة برقية بها من الكلام مالم يسبقنى اليه غيرى . فعلمت أن لارجاء فى فرجة ومتى حق اليأس استقرت الراحة فى الفؤاد .

واذ لم يكن من مواصلة الجهاد بد عمدت الى قلمى وكتبت رسالة فرنسوية نشرت اذ ذاك في احدى الجرائد الفرنسوية التى بالقاهرة وأظنها (لوجورنال دى جيبت) ذكرت فيها كيف اتصل تحسين بخدمة السلطان ولم يكن معروفا بين الناس بالكاتب المجيد ولا الأمير النبيل ولا الموظف الكبير ولم يكن الاسكرتيرا بنظارة البحرية . فلما توفي الباشكاتب الذى قبله

واسمه ثريا باشا أشار لطفي اغا قرين عبد الحميد باختيار تحسين هذا المكان بينهما من الود منذ أيام أحد الصدور الخائنين المسمى، محمود نديم . والأحرار العثمانيون يسمونه نديموف لسعيه في تأييد المنافع الروسية وايثاره اياها على منافع دولته . ثم وصفت بعض ماصنع هذا الباشكاذب منذ اتصل بالسلطان وذكرت أني مشتغل بتأليف رسالة في بيان أعماله وشرح مفاسده ليقف عليها من كان يجهلها . فوشي بهذه الرسالة بعض الجواسيس الأجانب فقامت القيامة على القوم الخائنين . ثم قاوب أبت الرحمة أن تدخلها وأبي الانصاف أن يأوي اليها . بها من الشر مايفزع الأسد بآجامها ولو صفر لها عصفور لطارت من صفيره شعاعا .

محمد باشا الچركسي

« المعروف بأبي لحية »

كنت قصدت الى دار صديق لي . ثم ودعته وقصدت الى بيتي فبينما أنا في الطريق اذا بخادمي يهرول نحوي وقد أجهده الجري وتصبب جبينه عرقا . فلما رأيته على تلك الحال هالني منظره فصحت به : ويلك ماوراءك؟

فقال — جاء أحد الياورية من (يلديز) وذكر أنه طلبك بنظارة المعارف وقيل له انك لم تذهب اليها اليوم . ثم سألنا عنك . فأخبرناه أنك خرجت . فلم يصدق كلامنا وقال انه لن يبرح المنزل الا وأنت معه . ووالدتك وامرأتك في خوف شديد لاتدريان ماذا تصنعان . والرجل لايزال هناك ولا يريد أن يذهب . وقد أرسلتني السيدة لابحث عنك وأخبرك بالأمر لتأتي

وأنت متهيأ له.

قلت — له مافى الأمر من خطر . وأسرعت فى مشيتى . فلما قاربت البيت ألفيت امرأتى على انتظارى فى منتصف الزقاق وهى ترتجف ولا تقدر على الكلام . فأخذت أهون عليها الأمر وأقول ان هذه ليست بأول مرة دعيت فيها الى القصر وقد أخذت قبل ذلك ليلا . قالت :

— نعم ولكن الذى يطلبك هذه المرة هو محمد باشا الجركسى المعروف بأبى لحية . فتبسمت لها وقلت : هذا صديقى واذا كان الطلب من عنده فكونى فى راحة . لا أرجع الا شاكرا حسن لقائه . على أننى لم أعرف أبا لحية الا اسما . وانما اخترت هذا الكذب لتطمئن امرأتى . ورأيت بعد ذا الجندى الذى جاء ليأخذنى معه . فعلم أن أهل البيت لم يكذبوه فجعل يعتذر عما بدر منه . فاستمهلته ريثما أغير ملابسى والبس (الريدنجوت) وكنت أريد أن أدع أوراقا كانت بجيبى وأوصى بها امرأتى . فلم يمانع فى شىء وخرجت معه . واذا عربة تنتظرنا . فركبناها وقصدنا الى (يلديز) . فدخل الجندى بى الى حجرة أبى لحية وجاء حاجبه فقادنى الى أخرى مجاورة لها وقال : ان الباشا فى (الحضور) فاذا عاد أخبرتك بعودته . ولم تمر على بذلك المكان عشرة دقائق الا والخادم يخبرنى بقدوم الرجل .

فدخلت على غريمى . . . . . اعوذ بالله ! . . . . الضوارى تفتك اما لاشباع بطونها واما جريا على طبائعها . وان أفتكها وأشدها خطرا ليصل حينا فيجلس الى جانب فريسته يلعب بها أو يستريح بقربها . وأبو لحية لا يعرف التعب . فهو اذا فتك فتكته أسمع روحها ضحكته . ثم وقف متلفتا

ذات اليمين وذات الشمال . طالبا صيدا جديدا . لا يفتأ دامى الجوارح فان لم يجد شيئا ينهشه نهش جليسه واذا لم يكن عنده جليس نهش ثيابه أو عض نفسه . وربما أنساه طربه بمضاضه ما يجده من الم مبرح . فيستمر عاضاً . هو يعلم أن كل ذى روح يؤكل . ولقد يمنى بصحة أبنائه وأهله ويسمنهم ليأكلهم اذا عدم فريسته . يرى أن الله خلق الأنياب لتنهش فلا يجب أن يعطلها مما خلقت له . فاذا سال الدم الأحمر على لهاته وبراثنه وهدر فى حلقه سائغا مستعذبا سخنا . عرته هزة من تطرب وارتاح فؤاده .

رأيته أربد الوجه . ينطق الموت الزؤام على ناصيته . له عينان ملؤهما اللؤم . تحيط بذلك الوجه الخشن لحية لم أر فى حياتى مثلها لو نصبت شرا كالما تركت بمزرعة طائرا ولا بأجمة وحشاً . فسلمت عليه ووقفت أمامه وكان مطرقا . فرفع طرفه الىّ ومشى فىّ نظره . ثم قال لى بصوت قبيح :

— أهكذا تدعنا فى انتظارك طول يومنا هذا . أكنت تريد أن تهرب أم كنت تحدث نفسك بالعصيان !

— كلا . لا هذا ولا ذاك . ولكن جاءنى أمرك الآن فاسرعت ملبيا .

فتأملنى مليا ثم ضحك ضحكا عاليا وقال :

— أتريد أن تخدعنى أنا ! ان هذا لشىء عجاب وصاح بخادمه فلما وقف أمامه قال :

ـ علىّ بالجندى الذى ذهب ليدعو هذا البك . فدخل وقال انه لم يجدنى بالمعارف وانه فتش علىّ كثيراً حتى تأخر وأنه حين أخبرنى بدعوة الباشا بادرت لا متوانيا ولا محجما . فسرى عنه وأمرنى بالجلوس وناولنى سيجارة

أشعلتها وأقمت أنتظر سؤاله .

فتنهد تنهداً طويلا ثم التفت نحوى وقال :

— كم تحسن من اللغات !

— أعرف العربية والتركية والفرنسوية ولكننى لاأحسن واحدة منها .

— اذن تعرف معنى كلمة الخليفة .

— لايحتاج المرء الى معرفة كثير من اللغات ليفهم معنى كلمة الخليفة .

— وتعلم أيضاً أن قوة الخليفة وبطشه لاحد لهما وأنه مع ذلك كله أميل الى العفو عمن جنى والاحسان الى من أساء . وانى سائلك الآن أشياء . فاذا كان جوابك كما أتوسمه فيك من الصدق والأمانة لايبعد أن يعفو السلطان عنك واذا حاولت الانكار ولزمت المخادعة فتذكر أن اسمى محمد الجركسى . وأنا من يلين بالمجاملة ويخشن بالعناد . ولا أريد أن تجربنى فى حالة يسوؤك أن ترانى بها . وأنت اليوم عظيم الذنب ولكن النخوة تدفع بصاحبها الى الاعتراف بذنبه وان عظم لكى لايرمى بالجبن والخور .

— قلت يامولاى هذه أشياء كان ينبغى أن تقولها اذا أنت سألتنى وأخفيت أنا عنك شيئاً مما أعرفه أو أكون جنيته . وانى اذا اجبتك الى الحق فذلك محبة منى للحق . أما الوعيد فلا يطلق لى لساناً أكون عزمت على تقييده . فسل مابدا لك . وأنا ذنوبى كثيرة لاأعلم الى أيها تشير . فأفصح لى سؤالك أفصح لك جوابى .

ـ هل كتبت الى الجرائد الأجنبية شيئاً فى ذم أحد رجال السلطان ؟

ـ الآن علمت ماتريد . تسألنى عما كتبت فى أعمال الباشكاتب . نعم

كتبت فيه عجالة أنفذتها الى الجرائد ووعدت فيها قراءها بطبع كتاب سأبدأ تأليفه قريباً . وسأذكر فى هذا الكتاب ماأعلمه من سيئآت الباشكاتب .

ـ ولأى شىء تكلف نفسك هذا الشطط وما يفيد الناس ذمك للباشكاتب ؟ هلا صرفت قوة عارضتك وبيانك في شىء ينفع أهل بلادك؟

ـ وهل ينفع أهل بلادى شىء أكثر من علمهم بمن يحول بينهم وبين سلطانهم ؟ أتراهم لا يرغبون أن يعلم السلطان بما يقع في بلادهم فيتخلص من عدوه وعدو أمته ؟

ـ هذا فضول منك . ومن ذا الذى طلب منك أن تخدمه هذه الخدمة أم من أنابك أنت عن أهل بلادك ؟ أنا أقول لك السبب فى غضبك على الباشكاتب . طلبت اليه أن يأتيك برتبة أو وسام . فوعدك بالنظر في ذلك وقال لك ان الخليفة أدرى بمن ينبغى أن يتحلون بالأوسمة . فغاظك ذلك والآن تريد أن تنتقم منه . فياناشدتك الله أترانى أصبت فى حدسى أم أخطأت .

ـ ان ماطلبته من السلطان طلبته كتابة لاشفاها . فان كان فيه مايستدل به على شىء من هذا القبيل فحكمك فيما تريد واذا ظهر أن كلامك غير صحيح أترضى بأن تكذبه فى الجرائد ؟

ـ أكلمك هنا بقصر السلطان وما لنا وللجرائد ولا شأن لنا معها . فان كان ماأقوله غير صواب فخبرنى أنت بالصواب . وانما أمرنى السلطان باستدعائك لأستطلع منك الصواب .

ـ انا لا أجيب الا كتابة على أن آخذ سنداً منك بما كتبته ودفعته اليك .

— اذن فأكتب . ثم أشار الى مكتبة بجانب الباب عليها ما يحتاجه الكاتب من قلم وقرطاس . فقمت اليها وكتبت ما جرى لى مع الباشكاتب من البداية الى النهاية ورفعت ما كتبته اليه . فأخذه وقرأه وقال سأرفع هذا الى أعتاب السلطان وأبلغك بعد ذلك أمره . فأتنى غداً صباحا واياك أن تمر بمكان أحد من رجال القصر . فخرجت قاصداً الى بيتى . ولما كان الغد ذهبت لميعادي . فكان وصولى الى القصر قبل حضور أبى لحية . فأدخلت حجرته وأقمت فى انتظاره الى أن جاء . فعياني تحية عن عرض ودعا بعد ذلك كاتباً له فناوله مسدسه ومفاتيح مكتبته ليضمه بها . ثم عمد الى مصحف كان على يمينه فوق كرسى عال فتناوله وقبله وجعله فوق عينيه ثم أعاده الى مكانه . وحين فرغ من أعماله هذه التفت نحوى وأخذ يحادثنى ويسألنى عن أيام معاوية وعلى ابن أبى طالب وقال انه يبغض معاوية بغضاً شديداً وانه لو وقع فى يديه لضرب عنقه بالسيف . وبعد حديث لم أستطب منه شيئاً فارقنى قاصدا الدخول الى الحضور . وصرت فى انتظاره وحدى الى الظهر . فعاد ولم يرد الجلوس بل قال لى وهو واقف وأنا أيضاً واقف :

— أبلغك أن مولانا السلطان يأمرك باحضار أخيك من مصر وأن تكذب ما كتبته فى ذم الباشكاتب وأن تأتينا بالكتاب الذى تزعم أنك ألفته أو ستؤلفه لنحرقه هنا ونرتاح نحن وترتاح أنت معنا . وقد أمهلك السلطان الى صباح السبت . فأت الى هذه الحجرة بعد أن تكون نفذت ما أمرك به سيدنا .

ـ اليوم الخميس وتريد أن أحضر أخى صباح السبت الى هنا !!! اذا

قلت أنك لا تعرف كم بيننا وبين مصر. أفلم يخبرك أحد بمقدار بعدها عنا. ألم تسأل شركات البواخر كم يوم تستغرقه أسرع باخرة للوصول الى الاسكندرية. فهب أن أخي الآن واقف على رصيف الثغر الاسكندري وان حكومة انكلترا أعارتني أسرع مدمرة لديها أيكفي كل هذا لوصول أخي الينا في صباح السبت. هذا مالا يكون؛ وتكذيب ما كتبته مع علمي بصدقه لا أقوى عليه ولو أدى ذلك الى ذهاب حياتي. أما الكتاب فلم أشرع في تأليفه. وذلك لأن عادتي أن لا أكتب شيئاً الا اذا علمت أنه سيطبع وأنا أكتب ما أكتبه وأبعث به الى المطبعة تباعا.

ـ كل هذا لا أسمعه منك وما أمرت بمناظرتك بل أمرت بأن أدعوك الى الانصاف. اذهب الآن واجعل جوابك مفتوحا لكي لا اتهم عند السلطان بخيانة العهد.

ولقد قضيت ليلتي على مثل اعالي الموج. فلما وافانا السبت قصدت الى (يلديز) وكنت كتبت ورقة ذكرت بها بعدي عن أغراض السوء وما كابدته من الباشكاتب وكيف اتفق الناس على الشكاية من أعماله. وأبنت أن رجوع أخي ليس بيدي وأني محضته النصح فلم يرض به مني. وقلت اني لن اقدم على تكذيب حق أنا عرفته وأن لي من حسبي لزادا على تورط الشبهات. فأدخلت الى حجرة أبي لحية كما سبق بيانه. وجاء هو بعد ذلك. فدفع مسدسه لكاتبه ولثم المصحف كأول مرة والتفت نحوي سائلا عما اكون قضيت فيما بلغنيه من أمر مولاه. فدفعت الرقعة اليه فقرأها وتمعنها ثم نبذها الى الارض ونظر الى وجهي نظرة مغضب وقال:

ـ الآن ندخل معك فى شأن جديد. الا تريد ان تطيع مولانا السلطان ؟

قلت ـ بلى . انى أريد ولكن شتان مابين الارادة والامكان .

ـ أراك تقول حسبى وما هو حسبك الذى تتباهى به . من أى بيت فجور منشاؤه ؟

ـ نحن لم ننشأ من بيت فجور مثلك . ووآحرباه أن يكون بقصر الملك العثمانى رجل مثلك أبت مكارم الأخلاق أن تسكن نفسه . أمن أجل هذا الكلام المهذب دعوتنى وأشغلتنى بك منذ يومين أم أمرك السلطان أن تخاطبنى بذلك ؟ وقد نسيت أن أذكر لقراء كتابى أنه دخل علينا رجل قصير القامة بادن الجسم علمت أنه من موظفى السفارة العثمانية التى ببرلين . فلما سمع ماخاطبت به أبا لحية قال لى :

ـ الباشا مثل والدك ولا ضير فى أن تتحالم له اكراماً لسنه .

قلت ـ أعوذ بالله أن يكون مثله والدى . أنا لم أعرف والدى جيداً لأنه توفى الى رحمة ربه وأنا صغير . ولكننى سمعت من أناس كثيرين انه كان رجلا أحسن الله أدبه وعصمه مما يشين أهل الوقار. اما هذا الرجل الذى يذم حسبى ونسبى فى قصر سلطان العثمانيين فاص دنىء حقير كذاب أفاك . لايقاس بأحد حتى من السوقة . فالتفت أبو لحية الى جليسه وقال :

ـ أرأيت كيف يستبطر حلم السلطان هؤلاء القوم . أما والله لو كان أمره بيدى لتوالت على أكتافه العصى .

قلت ـ وما يمنعك من ذلك ؟

قال ـ خوفي من غضب سيدى الذى أعيش بأنعمه وانى لفخور بخوف

هذا . وأنتم لا تعرفون مقام السلطان فتبلغ منكم قلة الأدب أقصاها . وقد صدق من قال : أشد الناس جرأة على الأسد أشدهم جهلا لبأس الأسد .

قلت — ويحك ألا تدرى أن السلطان لو جعل أمرك بيدى لألجمت فاك وجعلت فوق ظهرك برذعة ولأركبت الناس متنك بلا أجرة . أنت لا تعلم ماتقول ومن العبث أن أضيع معك أوقاتى . وها أنا ذاهب فان كان عندك ماتبلغنى عن السلطان فلا أتقبله الا مكتوباً . وخرجت من بين يديه . فلم يمانعنى .

ثم أرسلت رسالة برقية الى عبد الحميد وصفت فيها مااتفق لى مع سيافه وقلت : اذا لم ينصفنى طلبت انصافه فى جرائدأوروبا . فدعانى المرحوم عاصم بك كاتبه الخاص وأبلغنى أن السلطان أسف أشد الأسف لما جرى لى مع أبى لحية وأخبرنى أنه سيحضر الى عند عاصم ليعتذر الى عمافرطمنه . ونصح لى أن لاأجيبه جواباً يؤلمه . فجاء أبو لحية وسلم علىّ وزعم أنه لم يرد بكلامه لى غير النصيحة وأنه أحبنى فرأى أن يخاطبنى بما يخاطب به ولده اذا لم يطعه .

قلت — اذا كنت تقول لولدك فى أية دار فجور نشأت فهذا كلام أنا لاأصبر عليه . وحين هممت بالانصراف مال عاصم بك بى جانباً وقال :

— يقول لك مولانا السلطان : ان من حسن أدب المرء أن لا يكثر من الوعيد فى مخاطبة مليكه . ويريد أن لايسمع منك كلاماً عن الجرائد الأوروبية .

فخرجت من ذلك القصر الذى استوطنه الظلم وانا أكاد أعدو هرباً

وقلت يالك من صرح شيد على خراب الوطن . فلئن مد الله فى أيامى ورأيتك وقد خلت مقاصيرك وحجرك وقفت أمام رسمك المحيل وحيينك بما قاله الملك الضليل فى الغابرين :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

فدخلت منزلى واستلقيت على مقعد لى وجعلت أفكر فيما مر بى من المخاوف والمهالك. وقلت عسى يعقب الله هذا التعب راحة فأخرج لا غانما ولا غارما كما قال الشاعر القديم .

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علىّ ولا ليا

فلبثت ثلاثة أيام لا تروعنى فى خلالها روائع الدهر حتى ظننت أن الدهر عاد الى شيمة الوفاء ولم يبق لى شىء أخافه . وفى اليوم الرابع بينا أنا جالس فى حديقة البيت اذا زائر يتقدم نحوى . فتأملته فرأيته شابا حسن البزة والوجه . فلما دنا منى سألنى : هل انت ولى الدين يكن ؟

قلت ـ نعم . فأخرج لى بطاقة كتب عليها اسمه وهو . . . ممتاز بك من موظفى نظارة الداخلية . فرحبت بقدومه ولم أسأله عن سبب زيارته تأدبا وقربت منه كرسيا وسألته الجلوس فجلس وبعد دقائق قضيناها فى تكرار جمل التحيات على العادة الشرقية . قال لى :

ـ أرسلنى اليك ممدوح باشا ناظر الداخلية لأبلغك أنه يريد مواجهتك فى أمر ذى بال ويقول اذا استطعت أن تزوره قبل العصر فاذهب الى النظارة واذا لم تستطع ذلك فانك تجده بمنزله الكائن بجهة (ارناؤود كوى) وأمرنى أن ألازمك فى ذهابك لكى لا تتكلف تعب السؤال عن المنزل .

قلت — سمعاً وطاعة . غير أنني لم أحظ قبل اليوم بلقاء الوزير . فماذا ترى يريد أن يخاطبني فيه .

ـ لا أدري . وكانت الشمس مالت الى الغروب فنهضت ولبست ملابسي ورافقت الرجل الى منزل ممدوح . فأخبرونا أنه رجع من النظارة على عادته ثم دعاه السلطان الى (يلديز) . وقالوا لممتاز بك : أمرنا الباشا أن نستبقيك مع من دعوت الى أن يعود من القصر . فأقمنا في انتظار الناظر نحو ساعة من الزمان . فلما جاء أدخلت الى عنده . فألفيته واقفا الى جانب الباب فاستقبلني بأحسن مايستقبل به قادم . وناولني الخادم سيجارة فلم يرض الباشا أن أشعلها وناولني أخرى من علبته . واشعل لي كبريته بيده فدخنت سيجارتي . وقلت في نفسي ترى ماوراء هذا الاكرام !! فبدأني بالحديث . قال :

ـ كثيراً ما كنت أسمع الناس يتحدثون بفضلك وأدبك فأشتاق الى رؤيتك . غير أنني لم يقسم لي أن أراك الا في هذا اليوم وأود أن لا تكون هذه آخر زيارة . فان البيت بيتك وكل من به يفرحون لقدومك . فأجبته بما يسع المقام . ثم قال لي :

ـ أأنت ابن أخي محمد فائق بك يكن ؟

ـ نعم .

ـ أنعم به وبك . هو صديقي من القديم وأنا ممن يفتخرون بمودته . والآن زادت جرأتي في بيان ماأريد لك . فاسمع كلامي وتأمله ولا تتعجل الاعتراض . أنا لي ولد هو أسن منك ولي من التجارب مالا يتاح لسنك . وقد كنت صديقا للمرحوم نامق كمال الشهير وهو أشعر الشعراء وأكتب

الكتاب غير منازع . فأخلصت له النصيحة فى ترك الاجتماع والرجوع الى طاعة أولى الأمر . فلم يحفل بمقالى وسخر من نصحى . فلما خاب فى مساعيه وعثرت جدوده ندم حين لا يجدى الندم . وقد رآنى فى أيام نكبته مرة فقال لى : صدقت يا ممدوح فيما قلت لى وليتنى كنت تبعت رأيك وعملت بمشورتك فكفيت ما ألاقيه اليوم . وانما أبدؤك بهذا الكلام لتجعله عظة لك. انى أتانى أنك تناضل قوما من المقربين عند السلطان وهذا مالا أرضاه لك. مالنا نحن ولهم . هم خاصة رجل نحن من رعيته ولا يطمع عاقل فى أن يعاقب السلطان أحد خاصته اكراما لمن ليس من أندادهم . اذا كنت تريد من السلطان شيئا فبالرفق والحسنى تناله . ولقد قال الحكماء : يدرك بالحكمة مالا يدرك بالقوة . هذا كلام لم يأمرنى به السلطان ولا طلبه منى أحد من مقربيه . ولكنى أقوله لك متوسما فيك الرأى والسداد. واذا شئت أن تكتب فاكتب ماينفع بلادك والذم لا ينفعها . ألف روايات وترسل فيها ببيانك المعلوم أو فاكتب كتبا فى التاريخ والأدب . واذا كانت لك عند السلطان حاجة فتعال الى بيتى ولك علىّ أن أكون رسولك اليه. واذا لم أرضك فاشتمنى وذمنى ما شئت . أنا لا أؤاخذك وأحمل منك ذلك على فتنة الشباب . أما غيرى فيؤاخذك ويطالبك بحقه . والسلطان لا يذل خاصته ولا غنى له عنهم. والآن وقد سمعت كلام أب يغار على أهل الفضل والحسب أن يصيبهم مكروه فهل أنت واعدى بترك نضالك؟

— مالم من نضال . شتمونى ثم اعتذروا : وسمعت الشتم أولا وقبلت المعذرة ثانيا . فلا أنا مغبون ولا الدهر غابن .

ـ سبيلك . قد رضيت منك بما تعهدت أما رجوعك الى مصر فلا أراه صوابا . ولا يضيع العاقل خيراً هو بيده جريا وراء أهوائه . فشكرت كلام الرجل كما يوجبه الأدب وخرجت من عنده . وما أطربني من كلامه الا لفظه دون معناه . فان ممدوحا من رجال الأدب الذين عاشروا كمالا وأصحابه وأوتوا البيان وفصل الخطاب. غير أنه فتنه ذهب عبدالحميد وقلت قيمة الوطن عنده . فحسب الذهب يبقى والوطن يفنى . فكان من الأخسرين أعمالا .

هذه الزيارة فذة لاثانية لها . وما سرني أن يكون لي بمودة ممدوح ملك الدنيا وهو رجل لم تطلع الشمس على ألأم منه . وأعلم أنه خاطب كثيرين بمثل ماخاطبني ليستجلب قلوبهم ويشترى نفوسهم ويلقى بهم في هلكات العار .

وقد أطلت الكلام في هذه الفصول حتي كدت أخرج عن الصدد . بل خرجت عن الصدد . وانما أردت بذكر هاته المحادثات أن يقف القراء على عقول أركان الأستبداد وعلى تنوع أهوائهم فهي منقولة اليهم بغير زيادة ولا نقص وكأن كاتبا كان يكتب مايدور بيني وبين هؤلاء الناس. وربما يخيل لبعض القراء أن ببعض الأخبار مبالغة فلا يصدقون وقوعها . فيقولون كيف يكتب ولى الدين كذا وكيف يتجاسر أن يقول كذا وهو في قصر عبدالحميد. بين يدي خاصته . ولكن هذه الوقائع يعلمها كثير من الناس وهم لا يزالون بالآستانة ومنهم من جاء مصر وأقام بها . فان كانوا يعلمون فيما ذكرت شيئا يخالف الصواب فليتفضلوا بذكره ولينشروه بالجرائد واذا هم لم يستطيعوا نشرها نشرتها أنا لهم بأية جريدة يريدونها .

﴿ شتم وضرب وقتل ﴾

« عاصمة ملك أم مرسح ملعب !!! »

كل بلد فيها من الفضائح مايظنه الناس لا يتحصل في غيرها وكل مصر لهم من المثالب مايخاله المرء لا ينشأ الا منهم . ولو تأمل حال الدنيا لبيب رأى عواصمها مكامن الأسواء ومعاشرها صناديق للعيوب . فلست أريد أن أذم ماضي فروق من هذه الوجهة . وماذنب فروق وهي روضة غناء زهرها ابتسامها ومزنها بكاؤها . جنة أراد قوم أن تكون جهنم فلم تكن. وانما الذنب ذنب فئة باغية تقدمها عبد الحميد . فكانت كالسيل اذا دهم والطامة اذا حلت.

دخلت الآستانة وبها شاب اسمه عبد الغني بك. كان ميرآلايا بالحرس السلطاني . نال من ثقة مولاه مالم ينله أحد غيره ومن الحظوة شأوا بعيدا وقفت دونه الهمم. استبطر عبد الحميد هذا الشاب فتركه يعتدي على الناس ولم يقبل فيه وشاية ولا سمع فيه شكاية . فلو قيل له ان عبدالغني أضرم النار بالآستانة وأخذ يرمي بالناس في لهيبها مثنى وفرادى لقال: دعوه . أنا امرته بذلك . ولم أعاشر عبد الغني ولم أخالطه كثيراً ولا قليلا فأقول في حقيقته ذماً أو مدحا . وما رأيته منذ نزلت بالآستانة الى يوم مقتله غير مرة واحدة والمادحون له من أفادهم وده والقادحون له من اضرهم بغضه ولا يعتد بشهادة فريق منهما . غير أنه تجاوز الحد في اقدامه فلم يرحم صغيرا ولم يوقر كبيرا

وحيث رمى ببصره سعى بقدمه . وكان لهذا الشاب آخر يغايره ويعانده . وكان دون عبد الغني شجاعة ولم يكن دونه قدرة . وقد فاق عبد الغني طولا بما أوتي من المال . وهذا الخصم الألد هو جاويد بك ابن المرحوم خليل رفعت باشا الصدر الأعظم . ولما بلغ الشر مبلغه بين المتحاسدين وسعى أناس بينهما بالغيبة والنميمة دهم عبد الغني جاويداً بأحد المنازل فسبه وشتمه وطرده على أسوإ حال . فأسرها له جاويد في نفسه وكان له صديق حميم اسمه حافظ باشا وهو أحد أعضاء أمانة البلدة بالاستانة . فأخذ يتودد الى عبد الغني حتى استحكمت بينهما الالفة . ثم رماه برصاصة أصابت جبهته في خبر طويل وفر حافظ وأرسل بعد ذلك جماعة من قبيلة عبد الغني بك رجلا اسمه الحاج مصطفى قتل جاويداً بجسر غلطة في رابعة النهار .

وكان لعبد الحميد كاتب خاص من قبل عاصم بك اسمه كامل بك . دخل عليه جاويد يوما وكلمه في شؤون بينهما لا يعلمها سوى الله . فعظم الخلاف وكبر الشر وآل الكلام الى الملاكمة ففاز جاويد على خصمه وضربه حتى أوجعه . فلما بلغ الأمر عبد الحميد أنعم على كامل بك برتبة البالا وعلى جاويد بوسام وأمر لهما بجائزة سنية .

واشتد غضب الصيادي على آل بدر خان الا اثنين منهم . وهما بدري بك وعثمان باشا . فسلط على .... بك البدرخاني جماعة من الحمالين هاجموه ذات يوم ولكنه أدخل يده في جيبه فأخرج مسدساً كان معه ورمى به في الهواء ثلاث رميات . فأسرع البوليس الى المكان الذي دوت منه الرصاصات . وقبضوا المعتدين واستاقوهم الى نظارة الضابطة وخلص الله البدرخاني من

obeikandi.com

أعدائه . وأراد علي شامل باشا وهو أيضاً من كبار أولاد بدرخان الشهير أن يعاقب أخاه عثمان باشا على صداقته للصيادى. فقابله في يوم من أيام رمضان احدى السنين وهو خارج من الجامع. فضرب على شامل أخاه ضربة على وجهه هشمت أنفه ووقع على الأرض صريعاً فنقلوه الى البيت. ولما كان يوم العيد قابل عثمان أخاه فى حجرة التشريفات بسراى (طولمه بغچه) فرماه بنظرة ماؤها وعيد وخرج من بين صفوف المهنئين وأشار بيده الى السلطان مسلما . فأنفذ السلطان وراءه حسن باشا محافظ بشكطاش الفاتك الشهير ينذره بانه لن يعود الى التشريفات بعد ذلك أبداً .

وكان حسن باشا الذى أتى ذكره فى هذا الفصل عرضا من أكبر أنصار الاستبداد . يضرب ويقتل ولا يعارضه أحد . ويروى البعض أن السبب في هذه المنزلة أن بعض الأحرار كانوا هاجموا قصر (چراغان) التى كان السلطان مراد الخامس مسجونا بها وحاولوا اخراج السلطان المعتقل واعادته على كرسى الملك وجعل عبد الحميد مكانه . وقاد هؤلاء الأحرار السعاوى الشهير. ففتحوا أبواب القصر عنوة حتى وصلوا الى السلطان مراد. وكان الخبر وصل الى حسن باشا محافظ بشكطاش فأسرع الى المهاجمين في جماعة من الجنود ووقعت عينه على السعاوى فضربه ضربة ألقته على الأرض قتيلا . والقصة معروفة عند العثمانيين كافة وهم يسمون هذه الواقعة واقعة السعاوى . ومن ذلك اليوم أعجب عبد الحميد بحسن باشا وركن اليه فى المحافظة على حياته . وهذا الرجل ضرب يوما الحر الشهير المرحوم مانياسى زاده رفيق بك الذى كان ناظر العدلية. فشكاه ولكن لم يسمع شكايته أحد.

obeikandi.com

ولعلى شامل باشا البدرخانى واقعة أخرى تعجبنى كثيرا . فقدالتقى يوما بحسن خالد الصيادى بجهة الفنار . وكان حسن خالد ذهب الى هناك لينزه ناظريه فى جمال تلك الفانيات وقد ملأت الروابى والبطاح . فضربه على شامل أمامهن حتى أسفّه التراب .

كذاكانت فروق . يضرب الناس بها بعضهم بعضا . فمن كان ذا قوة وبأس شديد استوجب لنفسه الكرامة وبات ذا منعة لاتتطاول اليه الأبصار . ومن كان ضعيفا ضيم فى ضعفه ولم يجد له حميا ولا نصيرا . وهنالك عبدالحميد مشرف من أوجه ينظر الى الناس في اختلاف أهوائهم وتزاحمهم على آرائهم فيسوق فريقا الى حرب فريق . فمن رجحت كفته استدناه من حظيرته واختاره لنفسه . ومن خفت كفته أجهز عليه وعجل له بنقمته .

السياسة الحميدية

ليس فى العثمانيين ولا فى الغربيين من عرف سياسة عبد الحميد حق معرفتها . بلى أقول ليس فى خاصته وأشد الناس قربا منه من استبان مقاصده . لقدكان هذا الرجل لغزاً من الألغاز حارت فى فهمه العقول وقصرت المدارك . ولا أدعى لقرآء كتابى أنى عرفت من عبد الحميد مالم يعرفه غيرى . فتلك دعوى عريضة لاتقدم نفسى عليها . وان ما أذكره لهم فى سطورى هذه لضروب من الحدس قد أخطئ فيها وقد أصيب : غير أن أمراً واحداً لا أخطئ فيه ولا يجادلنى فيه أحد من الناس . وهو أن عبد الحميد كان عدو أمته . لم يعرف مقدار جهلها فى أوائل حكمه . فتولى زمامها على حذر منه . فلما

مارسها وعرف من أمرها ماكان يجهل صغرت في عينه عقولا ولم تصغر في عينه قلوبا . وقد شهد لها بالبأس والفتوة واحتقار الموت في سبيل كرامتها وعلم أن هذه الصفات الطيبة يسترها الجهل فتمسك بالجهل . وأيقن أن سمو المدارك يكون على قدر العلم. فقضى أن لا تزداد الأمة علما لكي لا تزداد فهما .

ورأى بنى الشرق مولعين بقديمهم . لا يريدون أن يبدلوا منه غيره . فمشى على أهوائهم وفتنهم بالهبات . وفتح لهم باب الحسد ففرق بينهم وجعل بعضهم رقباء على بعض . ثم دلته تجاربه أن خير ما يؤيد به عرش فى بلاد لم تزل على عهد البداوة أن يبدو من السلطان تعصب للدين . فجعل يستدنى من مجلسه أولى العمائم ويعمر لهم التكايا ويشيد لهم المساجد ويواصل بيره أهل النسك والزاهدين . فيقولون هذا سلطان تقى بار يحب أهل البر والتقوى وهم لا يعلمون ماوراء بره وتقواه . على أنه نال بغيته فجعل لنفسه منزلة فى قلوب المسلمين فى بلاده وفى البلاد القاصية وأوهم دول أوربا أن له ركنا قويا وجانبا غير هضيم .

أما أوربا فكان فيها المصدق وفيها المكذب . فرأى المصدقون أن لا يفتحوا على أنفسهم أبواب الفتنة ويدعوا عبد الحميد فى ملكه حتى يقبضه الله. ورأى المكذبون أن يستفيدوا منه بتخويفهم اياه . فقد علموا أنه ضعيف الفؤاد شديد الفزع . فكانوا كلما لاحت لهم بالبلاد العثمانية غنيمة أقبلوا عليها يتزاكضون وأمامهم أساطيلهم وجيوشهم تتكلم النيران بأفواه مدافعها . ولا يلبث أن يريهم حاجتهم فيرجعون ظافرين غانمين .

وقد شاء الله أن يكون فى الأمم المتمدينة قوم يرثون لحال العثمانيين ويستحثون حكوماتهم وأبناء جلدتهم على الأخذ بناصرهم وافتدائهم من أسرهم . فلم يفلحوا . وذلك لأن بعضهم لم له المال فى يد الظالم فهى لسانه وشلت أنامله وبقى البعض الآخر لا نصير له حتى ملّ النضال وطلب الهدون. وما ظهر من العثمانيين من يدعو الناس الى نصرتهم وبحثهم بخطبهم الا تغلب عليه عبد الحميد بالمال واذا لم ينفع فى نكايته المال تغلب عليه بالحيل . ورأى الغربيون ذلك . فساءت بنا ظنونهم وصغرت منزلتنا فى أعينهم وقالوا هؤلاء قوم لا ثبات لهم على رأى . فليذوقوا الظلم حتى يتعودوه فيستطيبوه أو يملوه فيغلبوه . وبذا أمكن الله عبد الحميد من رقاب أمة استسلمت اليه امتثالا لا ذلاً وسكتت عنه صبرا لا عجزا وأحبه منها من أحبه جهلا لا علما .

ولو اقتصر ساسة أوروبا على التغاضى عن العثمانيين لهان الأمر ولتدبر العثمانيون لأنفسهم تدبيراً يقصر دون رقابهم يد القاتل . ولكنهم فى حضارتهم وشغفهم بانصاف بنى الانسان أقبلوا على خزائن عبد الحميد . فبينما تجرى دماء الأرمن أنهاراً فى أقطار الأناضولى ويعلو صراخ الثاكلات واليتامى بين الصخور والوديان وتغتذى أسماك البوسفور بأجساد الفضلاء من الأمة وتجبى الأموال الى عبد الحميد وأعوان نقمته وهى تسل من كبد القروى المسكين اذا بزعيم قوم يخطب على ضريح صلاح الدين الأيوبى محيياً عدو الأمة العثمانية فوق عرشه الذى اغتصبه . فيقول لأبناء الحضارة كذب المتظلمون . ان عبد الحميد سلطان جليل عادل رحيم . ويقول أبناء الحضارة صدق الزعيم وكذب العثمانيون .

كان أبو الهدى أشد الناس بغضاً لعزت العابد وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبي الهدى . وكان عبد الحميد مصطفياً كليهما وهو يعلم أنهما لا يتفقان في رأي ولا يجتمعان على خطة . فان كان يظن بأبي الهدى خيراً فقد وجب عليه أن يكتفي به ويستغني عن العابد . وان كان يتوهم بالعابد نفعاً فكان من الصواب أن يستخلصه لنفسه وينصرف عن أبي الهدى . ولا يجتمع نقيضان على حق . وبذا يتبين للمتأمل أن عبد الحميد لم يرد من اختيار المتخالفين الا اتخاذ كل منهما رقيباً على الآخر . علما منه أنهما سيسهران لياليهما في رقبة ويرتاح هو بين الرقيبين .

وأشد ما على نفس الحر أن يعيش عبد الحميد في ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة يظلم فيها رعيته ويقتل أبناءها تقتيلا وأن يجد كثيراً من الناس يضربون بسيفه ويجادلون بحجته . وما ذاك الا أنه أرضى رجال الدين والعامة تبع رجال الدين .

هذا هو دهاء عبد الحميد الذي يضرب به الأمثال أكثر المتشيعين له وهذا هو السر في استمرار حكمه طول هذه المدة وأنا أخالف كل من يقول بذلك . فان الرجل فطر على حب نفسه وولد اذ ولد جباناً مستطارا . فكان همه استطلاع أسرار الناس ليتبين ان كان فيها ما يرجع اليه بمكروه . ولو كان ذا دهاء كما يقولون لتبين الحق من الباطل ولاستطاع أن يحبب نفسه الى مبغضيه وذلك مالا يكلفه شططاً ولا يكسبه اثما . فقد خرج الآن من ملكه وهو لا يعلم من رعاياه الا ما كان خاصاً بذاته من حب أو بغض وهو علم تتكنفه الشبهات ولا يؤيده الا الوسواس . والرأي السديد لا يقيم بفؤاد

الجبان. فان الخوف يمنع الفكر امعان التأمل . وكل مايراه المرء في فزعه من الرأي يراه على غير حقيقته. وقد وقع ذلك لعبد الحميد في كثير من أموره . وما اشتد به أمر الا استدعى وكلاءه وفاوضهم مفاوضة المقيم على جمر الغضا فتزل قدمه وتزل أقدامهم . وربما أمر أمراً يستحدث شرا . فيتجاهله ويزعم أنه لم يأمر به . خوفا وذلة ولبئست الخلتان .

وأي دهاء عند رجل كلمة تقيمه وأخرى تقعده . كما وقع له في أمر العرابي. فوعد الانكليز بأرسال الجنود العثمانية لاخماد الفتنة ثم انصاع لرأي الشيخ أسعد كما سبقت الاشارة اليه في أحد الفصول المتقدمة . بل أي دهاء عند رجل يخاف أحقر عبيده وترتعد فرائصه أمام نسائه ويكاد يميته الخوف من طفلة ربيبة تقلب مسدساً له . كما جرى له مع تلك المسكينة التي قتلها ظلما وعدوانا . أنا لاأصدق أن جباناً يكون ذا دهاء . واذا كان المراد بالدهاء احتياله على الناس وابتزاز أموالهم فذلك مالا أجادلهم فيه. واذا كان في الناس من يظن أنه خدع أوروبا فذلك ظن كله خطأ . وان أوروبا لأعقل ان يتلاعب بساستها عبد الحميد . ولكنهم كانوا معه على ما قال الشاعر الحكيم :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

بلغني أن سفير ايطاليا شدد عليه النكير في احدى زياراته وجعل يقول له : ان الدول الاوروبية لم تر من الدولة العلية وفاء بوعد من وعودها وانها كلما طالبتها الدول انجاز الاصلاح الذي ضمنته مالت الى الخديعة والمطل وان هذه الحال قد تضطر الدول يوماً الى ركوب الخشن والرجوع الى الوعيد. فحاول عبد الحميد اقناع السفير بأنه ساهر ليله مشتغل نهاره سعياً وراء

ما يرضى الدول وأن الأمة العثمانية جاهلة ومتعصبة فهو يعاني الشدائد في ارشادها الى الخير وأنه لا يلبث أن يتمكن من ذلك قريباً . كل هذا والسفير لا يقتنع . فحار عبد الحميد ولم يدر ما يصنع . ولما كبر عليه الأمر استدعى عزت العابد وقال له : كلم جناب السفير بشيء يكون له فيه مقنع . وأقام العابد يغالط السفير حتى استرضاه بالرجاء ولم يرضه بالبرهان . فأين كان الدهاء في عبد الحميد يومئذ وفي مثل ذلك يعرف الدهاء . ولا يستنجد الملك الحازم بكاتب من كتابه في معضلة بينه وبين أحد السفراء :

هذا كجوابه لمن قال له : ما السبب في اكثار السلطان من الحراس والجند حين يخرج الى صلاة الجمعة ؟ وكان سائله أوروبياً . فقال له عبد الحميد لأمكن هيبة الخلافة من قلوب النصارى وقد حرف الكلمة ترجمانه فقال : من قلوب الاوروبيين . فجاءت الاقالة شراً من العثرة .

وأقبح من كل ما تقدم أن عبد الحميد كان كلفاً بالاستقلال . فلم يشأ أن يكون لغيره رأي في كبيرات الأمور ولا صغيراتها . وسيان لديه تولية وال وتوظيف أحد رجال الجاندرمة . كل يكون بارادة سلطانية . وقد تولى تدبير حركات الجيش في الحرب الروسية وهو بقصره بين جواريه وغلمانه . فكانت العاقبة أن جاءت الجنود الروسية الى عاصمة ملكه وكادت تطأ سنابك أحوجياتها حجرة نومه لولا فضل الاسطول الانكليزي ووقوف جباله الشم تلقاء (سان استفانو) .

ولينظر القراء من اختارهم لدولته من الصدور والوكلاء . أما والله لم يكن بينهم ذو عقل ولا من يليق به أن يكون من الرعاة . هذا وفي الناس

من يتوهمون أن عبد الحميد كان من الدهاة :

جهل الأمة وأطماع قادتها ومقاصد أوروبا من منن الدهر التي يشكره عليها عبد الحميد . والآن وقد أنزله الله من عرشه وجعل مأواه بيتا كان لا يرضى أن يهب مثله لنديم من ندمائه وترك لنا بقية ملك يحاول كل عثماني أن يرفعها بشغاف فؤاده . فلا يجمل بنا أن نخدع أعقابنا ونوهمهم أن الرجل الذي أبت نعمة الله أن تساكنه كان ملكا من كبار الملوك .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني

فهرست

الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول

صحيفة

١ اهداء الكتاب

٣ مقدمة

١١ الجرائد المصرية فى سنة ١٨٩٢ وما فيها وما بعدها

١٦ السياسة الانكليزية بمصر سنة ١٨٩٢

٢٧ المرحوم عبد الله النديم وأستاذه

٣١ حزب تركيا الفتاة

٤٨ مذابح شهداء الحرية من اخواننا الأرمن

٥٧ فرار مراد الطاغستانى من الآستانة الى مصر وسبب ذلك

٧٨ حال الأحرار وجمعياتهم بعد هرب مراد من الآستانة

٨١ وقع ما كتبه الأحرار على دوائر الظلم بالآستانة

٩٠ أبو الهدى بالآستانة ومصر

٩٨ ماذا كان يريد أبو الهدى

١٠٠ اللورد كرومر وأحرار العثمانيين

١١٢ بين التابع والمتبوع

obeikandl.com

صحيفة

١٣٠ أنا في حزب الأحرار
١٥٥ الأميرة الجليلة الفاضلة نازلى هانم
١٦١ الجنرال أحمد جلال الدين
١٦٩ الشيخ محمد ظافر المدنى
١٧٧ عزت العابد
١٨٢ شر جديد
١٩٣ بعض مامرّ علىّ بنظارة المعارف
٢٠١ الحرب العوان
٢٠٦ محمد باشا الجركسى المعروف بأبى لحيه
٢١٩ شتم وضرب وقتل
٢٢٢ السياسة الحميدية

obeikandl.com